اضافة جديدة الى مكتبة الحرب

لعله ليس من قبيل المبالغة أو التهويل أن يقال ان حرب السادس من تشرين قد نقلت العرب من عصر الى عصر ، وان هذه الحرب قد نقلتهم من موقع المنفعل بالأحداث الى موقع الفاعل والمؤثر في هذه الأحداث .

لقد كان غياب العرب عن ميدان الفعل السياسي قبل السادس من تشرين ،وعلى الأخص بعد الخامس من حزيران ،ظاهرة من أخطر الظواهر التي لازمت التطور الحضاري في الوطن العربي . وكان العدو الصهيوني يخطط ويدبر تحت تأثير هذه الحقيقة ، وهي أن العرب غائبون ، أو على الاقل مغيّبون وبالفعل فان اسرائيل نجحت في وقت من الأوقات في اقناع العالم بأن العرب غائبون عن المنطقة ، وانه لا وجود الا لاسرائيل بالذات ،وأن مفتاح المنطقة بين يديها تستعمله كما تشاء ، وان على العالم أن يتصرف على هذا الأساس .

غير ان السادس من تشرين قلب هذا الوهم رأساً على عقب ، وبدد الكثير من الخرافات التي أشاعتها اسرائيل في العالم ، وأعاد العرب مرة أخرى الى العالم وباختصار ، فان السادس من تشرين أعاد العرب حضورهم الطبيعي في العالم ، وتأثيرهم الذي يسمح بـه موضعهم الجغرافي وقدرتهم الاقتصادية وحضارتهم العريقة وحجمهم البشري ، وسقطت الى غير رجعة نظرية غياب أو تغييب العرب .

من هذا المنطق ، يصدر هذا العدد من المعرفة الذي أسهم في تحريره نخبة من الكتاب والمفكرين العرب . صحيح أن المناسبة أكبر وأعمق من أن يكون في مقدرنا الابانة عما فيها دلالات ، وصحيح ان حرب تشرين لم تفصح بعد عن حجمها الحقيقي وأثرها الخطير الذي تتكشف ابعاده يوماً بعد يوم ، غير ان هذا العدد يشكل محاولة جدية لاستكشاف بعض هذه الجوانب والابانة عن مدلولاتها .

وباختصار شديد ، فان هذا العدد يشكل اضافة الى مكتبة الحرب العربية التي تتسع وتكبر وترتفع قامتها في كل يوم .

رئيس التحرير

★ ★ ★

الحرب التي لم تتم

فوزي الكيالي

حرب تشرين ، كما بدأت ، وكما كانت تتطور خلال أيامها السبعة عشر ، كانت تبدو و كأنها تحبل في كل يوم بل في كل ساعة بمولود جديد مولود من النوع الذي يفاجيء كل الناس حتى أهله .

وليست حرب تشرين بدعاً في ذلك ، فمن المعروف جيداً أنه مامن حرب في التاريخ إلا وفاجأت ،حتى أصحابها، بنتائج لم تكن في حسابهم ، يوم خططوا لها

وأعلنوها ، نتائج تتجاوز كل الحسابات وكل الظنون بما في ذلك أكثر الظنون جرأة واندفاعاً .

حرب تشرين بدأت على الجانب السوري لتحرير الأرض والوصول إلى حدود عام ١٩٦٧ ولتنقل القوات السورية بقفزة من خطوط وقف اطلاق النار التي بقيت فيها ست سنوات ونيف الى ضفاف نهر الأردن وبحيرة طبريا ، وكان ذلك ممكناً ، وفي متناول قدرات قواتنا ، وخلال مدة زمنية لاتسمح للقوى الدولية بأن تفرض على المتحاربين تدخلها الحاسم . خصوصاً وان القوات الاسرائيلية لابد لها وهي تقاتل كلا من سورية ومصر معاً ، من أن تضعف فاعليتها وان تتوزع في جبهتين تفصل بينها مئات الأميال .

وبدأت حرب تشرين على الجانب المصري لتعبر القوات المصرية بقفزة صاعقة قناة السويس وتحتل خط بارليف وتتقدم بعد ذلك لاحتلال الممرات التي لا تبعد عن شواطىء القناة بأكثر من ثلاثين كيلو متراً . وكان هذا الهدف أيضاً في متناول قدرات الجيش المصري وقابلاً لأن يتحقق في مدة زمنية لا تسمح للقوى الدولية بان تفرض على المتحاربين تدخلاً حاسماً .

فحرب تشرين كانت على الجبهة السورية حرب تحرير ، لأن عمق المساحة المحتلة من الأرض السورية كان من الضيق بحيث يمكن انجاز التحرير كاملاً قبل مضي زمن طويل يسمح بالتدخل ، بينما كانت الحرب على الجبهة المصرية هي حرب تحريك (كما صرح بذلك الرئيس أنور السادات مؤخراً) . طالما أن عمق المساحة المصرية كان من الطول بحيث لايمكن اجتيازه حرباً إلا خلال مدة طويلة لا يعقل أن تقف الدول العظمى خلالها تتفرج وهي مكتوفة اليدين . وبمجرد أن تطرح الحرب على العالم وعلى المنظمات الدولية قضية النزاع العربي الاسرائيلي فان

القضية الفلسطينية التي هي أصل هذا النزاع وجوهره ستفرض نفسها من جديد وستتحدى المجتمع الدولي مرة أخرى ليجد لها الحل العادل المناسب .

وهكذا نستطيع ان نقول ان حرب تشرين كانت تدور حول محورين: الأول هو تحرير الارض العربية المحتلة في عام ٦٧ والثاني هو ضمان الحقوق الوطنية المشروعة لشعبنا العربي في فلسطين . هذه هي حدود حرب تشرين كما بدأت وكما خطط لها .

ومع بداية الحرب ومع أستمرارها المظفر والمفاجيء منذ اليومين الأولين اخذت الحرب تتطور في اتجاهات كثيرة وتنطوي على العديد من الاحتمالات التي تتجاوز الى حد كبير حدودها التي رسمت لها .

أ ـ على الصعيد العربي :

كانت الشعوب العربية في بادىء الأمر وعندما سمعت ببدء القتال مأخوذة، مندهشة ، مذهولة ، ومشفقة معاً ، تمتلىء بالرجاء الحزين، وبالأمل المختنق بالشك ، ثم اخذت هذه الشعوب تغادر كابوسها المخيف المذل ، لتصحو على حلم وردي جميل ونبيل ، وفجأة وفي خلال ساعات انتقل الناس الى ايام محمد وأبي بكر وعمر وكانهم لم يعيشوا قط غيرها ، وغادر الناس مع الكابوس الثقيل بؤسهم النفسي وصغارهم ودناياهم وجبنهم واقبلوا على الفعل مصممين مهللين تملأهم الثقة ويهز اعطافهم الطرب.

ليس من حادث في الحياة يستطيع ان يغير التاريخ وان يبدل المصائر الا اذا بدأ بالانسان فغيره ، ولقد غير القتال في الاسبوع الأول من حرب تشرين ، الانسان العربي تغييراً كاملاً كشف عن جوهره واظهر اصالته ، هذا الانسان الذي ارادوا ان يدخلوا في روعه بكل وسيلة ممكنة انه نذل ، وانه جبان ، وانه متخاذل ، وانه فردي واناني . . . رأى نفسه رأى العين بطلاً يقتحم الخطوب ،

ويلقي بنفسه في النار ، ويقتحم ابواب جهنم وعلى فمه ابتسامة ترفع واستعلاء ، ورأى اعداءه الذين كان يقال عنهم انهم فوق البشر وانصاف المة ، يفرون أمامه ويهربون من وجه مذعورين مأخوذين . . . رأى الحصون تتهاوى والقلاع تنهار والمدافع تخضع والقمم تسقط ، ورأى نفسه فوقها جميعاً .

قبل الحرب كان كل شيء عندنا مستحيلاً ، اقتحام خطوط العدو، الهجوم على حصونه ، عبور قناة السويس ، احتلال خط بارليف ، مواجهة طيرانه في السماء ، الالتحام بدباباته على الأرض ، اقتحام جبل الشيخ .. كل شيء ، كل شيء كان مستحيلاً ، حتى قرار الحرب ، كان مستحيلاً ، وأن يبدأ القتال على الجبهتين الشمالية والجنوبية في نفس اللحظة ولتنفيذ ذات الخطةفكان من أكثر المستحيلات إعجازاً .

وما أن تمضي بضع ساعات ، عشرة ساعات ، عشرون ساعة على بدء القتال ، حتى اصبح كل شيء ، كل شيء أصبح ممكناً ، تمريغ أنف اسرائيل بالتراب ، فتصدها واستنزاف دمها . دك حصونها واصطياد من فيها واسرهم ، تدمير طائراتها والقبض على الطيارين ، دحر جيوشها ومطاردة فلولها ، كل شيء اصبح ممكناً ، حتى الوحدة العربية اصبحت ممكنة ، وحتى قطع النفط عن أمريكا من قبل أصغر إمارة على الخليج ، أصبح ممكناً أيضاً . . بل اصبح ممكناً أن نقول للعالم : من لم يكن معنا فعليه أن يوقف مصانعه وان يجمد نشاطه وان يموت من البرد . . .

وتهاوت الحدود التي كانت تبدو قوية منيعة ، ومن أقصى المغرب العربي جاء الناس يدافعون عن بيتهم في دمشق ويموتون من دون أبوابه ، جاؤوا بأكفانهم معهم ليموتوا في أرض الشام ، وذهب ابو مدين الى موسكو يقدم خبز الجزائر ثمناً لسلاح يشتريه لاخوانه في مصر وسورية ، واوقفت الجزائر بذلك

خطة التنمية لديها ، وجاء وزير خارجية امارة عربية تقع على الخليج ، من لندن الى دمشق مباشرة ، موفداً من قبل اميره ، ليتلقى أوامر دمشق ، ماذا تريد الأميرة ، وقال يفسر سلوكه : كنت قبل اليوم اخشى نظرات الاحتقار اذا ما لبست ثيابي العربية في أوربا ، اما اليوم فالناس يتوقفون في الطريق لينظروا الى ثيابي ويعجبوا بها ، ان رفاه العالم وتقدمه أصبح رهينة لدى من يلبسون هذا الثوب . . .

كان المد العربي جباراً . . كانت الجماهير العربية تزغرد وترقص وتصلي بمقدار ما كانت تندفع في طريق العطاء بغير حدود . لقد كشف الغطاء واسفرت السماء عن وجهها بعد طول احتجاب، وتحطمت السدود ، وجاء الفيض، فيض العطاء وفيض الحب ، وفيض الغفران . . لقد غفرت الجماهير كل شيء ، ونسيت كل شيء ، حتى الجلادين ، غفرت لهم شعوبهم انهم اطلقوا طلقة واحدة في حرب رمضان .

قابلت جندياً عراقياً وصل الى دمشق مع اخوانه في طريقه الى الجبهة ، فسألته عن شعوره وهو يذهب الى القتال ، فأجابني كل ما أخشاه : ان اعود حياً وان امر في عودتي بحمص وحماه وحلب لأنني سأكون خجلا جداً وربما شعرت بالعار ، قلت له لماذا؟ انني ارجو ان تعود حياً ، وان تعود الى اهلك سالماً فاجاب انت يا اخي ، لم تكن معنا ، ونحن نمر بهذه المدن ، في طريقنا من العراق الى دمشق ، انت لم تر الناس كيف كان استقبالهم لنا ، انت لم تر كيف كان ترحيبهم وتهليلهم ، انت لم تسمع زغاريدهم ، ولم تر دموعهم ، انت لم تحس بأيديهم وهي تمتد الى اعلى محاولة ان تلامس ايدينا ونحن نمر بسياراتنا وتلقي الينا بالهدايا والزهور والحلوى . انت لم تر اليهم وهم يركضون مئات الامتار من حول مركباتنا ويطالبوننا بان نأخذهم معنا ... وتحشرجت الكلمات في صدره

واخذ يبكي وهو يقول انني اريد ان اموت هنا ... هنا ... هنا ... هنا اهلي وهنا عشيرتي وهنا تراب ابي وجدي .

في تلك الايام من حرب تشرين جاءني الجواب على سؤال كثيراً ما كنت اطرحه على نفسي ثم لا اجد له جواباً مقنعاً .. لماذا لا نتحد ؟ .. لماذا تبقى اقطارنا مجزأة وأمتنا مشتتة ، بينما الأخطار تحدق بنا من كل جانب ؟ لماذا تبقى الوحدة شعارات وكلاما دون ان يتحقق منها شيء حتى الآن ، لماذا تتعثر وحدتنا في سيرها فلا تكاد تخطو خطوة حتى تنتكس ؟! لماذا ؟! .. كنت دائماً اجد نفسي عاجزاً عن التماس الجواب المقنع .

في ايام حرب تشرين وجدت أن « وحدتنا » التي كنت اراها مقعدة وكسيحة بدأت تنبت لها الف رجل ورجل ، بل بدأ يظهر لها الف جناح وجناح بل اخذت اراها مقبلة اسرع من الظن ، تخطو في سبعة عشر يوما ما لم تستطع ان تجتازه في سبعين عاماً ، وفهمت ايضاً في تلك الايام بالذات ، ان الامم حتى تتوحد لا بد لها من ان تقاتل معاً اولا ، هكذا تكونت الوحدات القومية في اوربا وفي جميع انحاء العالم .. من خلال الحرب وفي اتونها ، وفي مواجهة التحدي الاعظم : الموت ، الفناء ، تظهر الحقائق اسطع ، واصفى ، وانقى ، مما تظهر في اي مجال آخر .

لقد استطاعت حرب تشرين ان تحرر الانسان العربي من الاحساس بعقدة الدونية تجاه الامم والشعوب الاخرى ، وكادت حرب تشرين فيما لو استمرت وقتاً كافياً ان تقنع كل الناس بان حياتهم جميعا ، بان حياتهم اليوم لاغداً ، مرهونة بوحدتهم ، وان لاحياة لهم بدون هذه الوحدة . وان تدفعهم لكي يطوروا هذه القناعة الساكنة الراكدة البليدة الى قناعة حركية بحيث يسارعون فوراً الى اتخاذ كل الاجراءات اللازمة من أجل ان يحولوا هذه القناعة الى واقع حي معاش.

وشيء آخر شعرنا به جميعاً خلال ايام حرب تشرين ، شيء آخر هائل وعظيم . وكان لابد من مزيد من الحروب حتى يستقر في نفوسنا والى الابد : أنه مامن شيء في الوجود يبرر امتياز مواطن على آخر إلا العمل ، والا التضحية ، والا نكران الذات ، وان الذين قاتلوا وماتوا في الجولان ، وفي سيناء ، وعلى قمم جبل الشيخ ، لم يكونوا ابناء بلد بمفرده أو طائفة بعينها او منطقة محدودة ، او اعضاء في حزب واحد معين ، انهم كانوا من كل البلدان ، ومن كل الطوائف ، ومن كل الأديان ومن سائر المناطق ومن كل الاحزاب ، .. وان من قاتل حتى قتل ، وحتى من قاتل بكل شرف ولم يقتل ، من حقه ، من حق هذا وذلك ، ومن حق ابيه واخته واخيه ان يعيشوا في وطنهم كمواطنين مكتملي الحقوق لهم ما للاخرين ، على الأقل ، بعد ان دفعوا اغلى مايمكن لمواطن ان يدفع ثمناً لشرف انتسابه لهذا الوطن .

شيء عظيم هذا الذي حققته حرب تشرين ، او كادت ان تحققه لو انها استمرت لفترة اطول ، شيء أعظم من الأرض ، واعظم من السماء ايضا ، انها وضعت مشروع تحرير الانسان العربي موضع التنفيذ الفعلي موضع الممارسة العملية ، وتحرير الانسان هو الغاية الاسمى لتحرير الوطن ، والا فما قيمة الوطن الذي يعيش عليه الانسان عبداً ذليلاً ومهاناً .

على الصعيد الاسرائيلي :

قبل حرب تشرين بأيام قليلة بل بساعات كان قادة اسرائيل يملأون الدنيا بتصريحاتهم عن قوة اسرائيل القاهرة في المنطقة ، وعن جيش اسرائيل الذي لا يغلب ، وعن يده الطويلة التي تستطيع أن تمتد فتطال عواصم العرب جميعاً حيثما كانت .. وكانوا يغذون نفوس اليهود في العالم بحلمهم الاسطوري عن دولة اسرائيل الكبرى من الفرات الى النيل .

وبدأت الحرب وفي ساعات تغير كل شيء ...

جاء في كتاب « التقصير » الذي ظهر في اسرائيل باللغة العبرية بعد حرب تشرين والذي حرره عدد من الكتاب ومراسلي الصحف الاسرائيليين ، انه في اليوم الثاني للحرب قال موشيه دايان لغولدا مائير وهو يشرح لها انطباعاته عن زيارته للجبهة « اننا نفقد البيت الثالث » ، اشارة الى أن دولة اسرائيل الحالية هي الدولة الثالثة لليهود في التاريخ . ويعلق مؤلفوا الكتاب على هذا التصريح بما يلي :

« كان تنبؤاً مريعاً ، عبّر جيداً عن وضع دولة اسرائيل يوم ٧ تشرين أول . وفي أقل من ٢٤ ساعة ، تحولت اسرائيل من دولة عسكرية كبرى ، حتى بالمفاهيم العالمية ، دولة أصبح جيشها رمزاً ونموذجاً لجيوش العالم ، دولة أحرز جيشها قبل ست سنوات فقط نصراً يعتبر من ألمع وأكبر الانتصارات في تاريخ الحروب العصرية ، دولة بحسب تصريحات زعمائها [لم يكن وضعها العسكري أفضل من ذلك] الى دولة تقاتل بشراسة من أجل وجودها بالذات بينما يخيم عليها شبح الدمار » .

ويتساءل المؤلفون بعد ذلك « كيف يمكن أن يحدث مثل هذا التحول الكبير المذهل ، خلال ساعات قليلة كهذه » ؟ ...

وورد في مكان آخر من الكتاب ما يلي :

« يوم الأحد ، ٧ تشرين الأول ١٩٧٣ خيم ظل نكبة على دولة اسرائيل » .

ومنذ طلوع فجر ذلك اليوم حتى غروب شمسه ، كان مصير اسرائيل ، كدولة ، متوقفاً على قدرة الصد . ولم تتعرض اسرائيل منذ أصبحت دولة مستقلة

وذات سيادة ، وخلال خمس وعشرين سنة من قيامها ، لخطر الدمار بصورةملموسة كما حدث في ذلك اليوم المصيري . « كان بيننا وبين القضاء علينا خطوة واحدة». هذا ما قاله في وقت لاحق ، بنحاس سابير وزير المالية في حكومة اسرائيل .

وورد في مكان آخر من نفس الصفحة (٢٠) من ذات الكتاب مايلي :

« لقد كان مصير المعركة معلقاً بشعرة ، ولو انتصر السوريون في هذه المعركة ، لكان الطريق امامهم مفتوحاً الى جسر بنات يعقوب ، حيث لا يبقى سوى خطوة للوصول الى روش بينا ، وصفد و كريات شمونة والجليل الاعلى ».

« لقد كان بيننا وبين القضاء علينا خطوة واحدة » ..

« لقد كان مصير المعركة معلقاً بشعرة » ...

«ترى من الذي عاقنا عن ان نخطو هذه الخطوة بعد ان اجتزنا الطريق كله وهو طويل ، وطويل جداً ، من ٥ حزيران الى ٦ تشرين . و كيف عجزنا عن ان نحسم المعركة لصالحنا بعد أن اصبحت معلقة على شعرة ، شعرة واحدة ؟ ..»

عندما كنت اقرأ هذا الكلام لأول مرة في الكتاب الاسرائيلي تذكرت ما يلي :

في اليوم الرابع للحرب دعانا الرئيس حافظ الأسد الى اجتماع مشترك يضم القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية وقيادات حزب البعث العربي الاشتراكي ومجلس الوزراء ، ليشرح للمجتمعين الوضع العسكري على الجبهة وليشرح الوضع السياسي العام العربي والدولي، واذكر انه بعد أن شرح بالتفصيل العمليات العسكرية الظافرة التي قامت بها قواتنا المسلحة وما حققته من انتصارات اشار الى الخسائر الفادحة في العتاد بسبب طبيعة الارض في الجولان المملئة بالصخور البازلتية والتي تحد من حرية حركة الآليات، والى ما كان العدو قد زرعه

فيها من تحصينات تفوق حدود التقدير ، فوراء كل صخرة وكل مرتفع مهما كان صغيراً وفي جوف كل تل سلسلة من التحصينات التي قل ان عرف لها مثيل ، ومع ذلك فقد استطاع جيشنا باصراره وعناده وباستبسال كل ضابط وجندي فيه ان يخترق هذه التحصينات والموانع وان يصل الى نهر الاردن والى بحيرة طبريا حيث شرب العشرات من جنودنا من مياهها . ولكن . . . ولكننا كنا قد خسرنا جزءاً هاماً من عتادنا . . . وعلى الاخص كنا قد خسرنا عدداً لا بأس به من دباباتنا وكنا نحتاج لكي نتمكن من الاستمرار في الهجوم ولنتمركز على ضفاف النهر وشواطىء البحيرة لصد الهجوم المعاكس والقضاء عليه ، الى مئتي دبابة فقط ، بل الى مئة زيادة عما كان لدينا منها .

وأحسست يومها بكل ما كان يعتمل في صدر القائد من ألم حين كتم كل ما في نفسه وطرح السؤال التالي ، وكأنما كان يطرحه على نفسه فقط ، ألم تكن امتنا العربية بكل ثرواتها واموالها وثرواتها بقادرة على ان تزودنا بمئتي دبابة فقط زيادة عما كان لدينا ؟ . . لقد دفعنا نحن في سورية آخر ليرة كانت لدينا ثمناً لهذا السلاح الذي استعملناه ، ولم يكن لدينا ما ندفعه اكثر .

هذا السؤال بقي يتردد في ذهني منذ ذلك اليوم بدون انقطاع : ألم يكن بامكان امتنا العربية ان تزودنا بمئتي دبابة اكثر ؟ . . اذن لمشينا الخطوة التي تحدث عنها بنحاس سابير وزير مالية العدو حين قال : كان بيننا وبين القضاء علينا خطوة واحدة ... واذن لقطعت الشعرة التي كان مصير المعركة معلقاً بها ، كما ذكر مؤلفوا كتاب التقصير .

في ذلك الوقت بالذات كانت سبعمائة دبابة تقف على جنازيرها في الاردن ساكنة هامدة ، ترى لو تحركت ، أما كان بامكانها أن تحسم الموقف وتقطع الشعرة ؟ . وفي ذلك الوقت أيضاً ، كانت ألف دبابة تتهيأ في العراق

لتتحرك نحو الجبهة ، ترى لو أنها كانت قد وصلت الى الجبهة قبل يوم أو يومين من بدء المعركة ، اما كان بامكانها أن تساعد على اجتياز الخطوة الواحدة التي تحدث عنها بنحاس سابير ، والتي كانت تفصل بين اسرائيل وبين قدرها المحتوم ؟

اسئلة كثيرة تتوارد على الذهن ، وتفرض نفسها علينا ، ونحن نقرأ ، ونحلل ، ونحاول ان نفهم . . . وفي النتيجة لابد لنا من الاعتراف بان حرب تشرين كان بامكانها ان تحسم الصراع ، وكان بامكانها ان تحقق كل ما وضع لها من اهداف لو أننا نحن العرب دخلناها معاً من اليوم الأول بنفس التصميم وبنفس العزيمة ولم نتردد ، ولم نضيع الأيام الأولى من الحرب التي كنا خلالها قادرين على الحسم بالضربة الواحدة .

* * *

الخلاصة :

وهكذا توقفت الحرب دون ان تحقق كامل ما كان يراد منها . توقفت لأن العالم لا يستطيع ان يحتمل قيام حرب في هذه المنطقه تدوم لأكثر من سبعة عشر يوماً ، دون ان تجره الى صدام عالمي . توقفت لأن سيل المدد من السلاح والعتاد والرجال الذي تدفق على اسرائيل من الولايات المتحدة الاميركية كان من القوة والضخامة بحيث استطاع ان يؤثر في مجرى المعركة وينقذ اسرائيل من هزيمة محققة . . . توقفت لأنه قيل لنا يومها ان المجتمع الدولي ، وعلى رأسه كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية ، أصبح مقتنعاً بل ومصمماً على انهاء النزاع وحسم الصراع بما يتفق ومبادىء الحق والعدل ومقررات هيئة الأمم المتحدة .

ومضت سنة الى اليوم ، ومع كل يوم يمضي ، تزداد القناعة بان اسرائيل لن تتراجع عن الارض العربية المحتلة ، ولن تعترف بالحقوق المشروعة لشعب فلسطين ، إلا بالقوة ، والا اذا ارغمت على ذلك بالحرب . واسرائيل تستعد الآن

للحرب كما لو أنها ستقع اليوم أو غداً مستفيدة من دروس حرب تشرين ، تسلح نفسها ، وتعبىء شعبها ، وتحشد قواها داخل اسرائيل وخارجها .

اذن فتحرير الارض لا بد له من حرب خامسة كما يبدو حتى الآن . واذن لا بد لنا نحن ايضاً من ان نبذل اقصى ما لدينا من جهد في سبيل الاستعداد لها والاستفادة من دروس حرب تشرين ، هذه الحرب التي لم تحقق كامل اغراضها لأنها لم تتم ، وهي لو تمت لما اكتفت بتحرير الأرض فقط وانما لأمكن لها ان تحرر الانسان العربي ، وان تهدم ما بين اقطارنا من حواجز وحدود .

واذا كان تحرير الارض العربية لا بد له من حرب خامسة ، فان من حقنا ان نسأل :

هل تحرير الانسان العربي واستمتاعه بكل حقوق المواطنة يحتاج ايضاً الى حرب خامسة ؟ .

وهل تحقيق بعض الخطوات الأكثر جدية على طريق وحدة امتنا لا بد له من حرب خامسة ؟ .

وإلا فكيف يكون الاستعداد الجدي لحرب خامسة ممكناً اذا لم نفعل كل ذلك ؟ ..

بعد سنة من
حرب التحرير العربية

أديب اللجمي

بعد سنة انقضت على حرب العرب التحريرية ، تأكد للعالم كله أن اسرائيل ليست من القوة كما أوحت للناس وأوهمتهم ، وأن العرب ليسوا من الضعف كما أرادت وسائل التضليل والتزييف أن تصورهم .

وتأكد للعالم أيضاً ، أن العرب حين يحزمون أمرهم ، قادرون على أن يدافعوا عن حقوقهم بالقوة ، وقادرون على أن يستردوها بالقوة . والقوة هنا ، واستعمالها ، مشروعان كل المشروعية . فما من مرة استعمل العرب قوتهم لاغتصاب حقوق الآخرين ، او للعبث بالسلام العالمي او للسطو والقرصنة . وحين قال الرئيس حافظ الاسد ، رئيس الجمهورية العربية السورية ، مامعناه اننا مكرهون لاستعمال

السلاح والقوة في سبيل استرداد حقوقنا ، كان في حقيقة الأمر يعبر عن واقع صحيح كلياً. ذلك أننا نحن العرب انتظرنا سنين سبعاً طوالاً لم نتمكن خلالها من استعادة حقوقنا في أرضنا وحقوق شعبنا في أرضه بوسائل سلمية بعيدة عن العنف والقصف ، فكان انتظارنا عبثاً . بل اخذ الغرب يفسر انتظارنا على أنه اعتراف منا بالهزيمة الكاملة .

والحقيقة اننا نحن العرب كنا ومانزال نعاني حكماً ظالماً جائراً بحقنا من الغرب الداعم لاسرائيل ، ان هذا الغرب الذي قدم ، طوال قرون عدة ، ملايين الضحايا في سبيل « العدالة والحرية والمساواة » لم يتمكن حتى الآن من أن يقول بصوت عال لاسرائيل انها هي المعتدية ، كما لم يتمكن حتى الآن من أن يقول بصوت مرتفع واضح ان العرب هم اصحاب الحق وانهم هم الذين ينشدون العدالة؛ ان موقف الرياء الذي يقفه الغرب من العرب واسرائيل معاً ، لن يكون مؤذياً لسلامة العالم وحسب ، بل ستظهر آثاره المؤذية بصورة خاصة على شعوب الغرب نفسها . ذلك أن حرب تشرين العربية قد أزاحت كثيراً من الاقنعة التي كانت تحجب الحقائق مثلما بددت كثيراً من الأفكار الخاطئة التي كانت تعمر رؤوس اكثر ساسة الغرب وحكامه .

★ ★ ★

وأولى الأفكار الزائفة ، التي فضحتها حرب تشرين ، هي ان حضارة الغرب كلها ، بما تحفل من إبداعات وانجازات وتقنيات وانتاجات، انما تعتمد أولاً وآخراً على الابتزاز، على نهب المواد الأولية التي تزخر بها بلادنا وبلاد العالم الثالث. بل ان هذه الحضارة ذاتها ، وضح للملأ أنها تعيش بالدرجة الاولى على البترول ومشتقاته ، اي على ثروة العرب ، وان اية سياسة يتخذها العرب من شأنها ان تحرر نفطهم من الاحتكارات والشركات الامبريالية العالمية ستجعل حضارة الغرب كلها في مهب

الريح . لقد كتب الالوف من الباحثين الغربيين عن الانجازات الرائعة المذهلة التي حققها عصر التكنولوجيا خلال السنوات الثلاثين الاخيرة ، وابانوا ان هذه الانجازات تضاهي في سعتها وعمقها ونوعيتها ما تحقق من انجازات طوال مئات السنين السابقة . ولكن الغرب لم يتساءل يوماً واحداً عما ستؤول اليه حضارته حين ينضب البترول وتجف آباره ، او حين تستيقظ الشعوب صاحبة الحق في بترولها فتفرض على العالم أن يحترم حقوقها وان يتوقف عن نهب ثرواتها . ان الحرب ، اية حرب ، ليست فضيلة بذاتها ، ولكنها حين تكون من اجل استرداد الحق والدفاع عنه ، انما تكون شراً لابد منه ، ومع ذلك فان حرب تشرين كانت فضيلة بذاتها لا من حيث كونها جعلت العالم يعيد النظر في تقديره للعرب واسرائيل وحسب ، بل من حيث كونها جعلت العالم يتساءل بعمق وقلق عن مصير الحضارة الانسانية ، وعن مستقبل البشر ، ومستقبل السلام نفسه . ان المعطيات الجديدة قد بينت ان ما يسمى بازمة الطاقة في العالم ليس هو ازمة طاقة بقدر ما هو ازمة سلب مجاني يجب ان يتوقف الى غير عودة . ومن غريب المفارقات ان الغرب المنادي بمبادىء الحق ، المفرط في التفلسف حول الحق والعدالة هو الذي يدوسها بلا رحمة ، وهو الذي يعبث بها كما تشاء له اهواؤه .

★ ★ ★

وبينت حرب تشرين ، في جملة ما بينت ، ان على العالم كله أن يحترم الشعب العربي ، لا في حقه في ارضه وفي إزالة العدوان الذي وقع عليه وحسب ، بل في حقه ، على وجه الخصوص ، في ان يشارك في إقامة حضارة انسانية ، تحترم الانسان فعلاً لا قولاً ، توجه البشر في طريق الخير لا في طريق الضياع والتردي . ان يقظة العرب على مشكلات عالم اليوم ستكون لها في المستقبل ابعاد كبيرة وخطيرة ، وسيأتي يوم ، وهو في تقديري ليس بعيداً ابداً ، نتمكن فيه ، نحن

العرب ، من ان نقدم لانسانية الغد صيغة في الحياة تختلف نوعياً عن هذه الصيغة التي تتجلى في هيمنة التكنولوجيا لا على وسائل الانتاج وحدها ، بل على عقول البشر ومشاعرهم وعواطفهم وعلاقاتهم فيما بينهم . لست اتحدث هنا عن حنين الى الماضي ، ولا عن « بعث » للماضي في الحاضر والمستقبل ، بل اتحدث عن كفاءة شعوب ، كالشعب العربي وامثاله ، على تمثل مشكلات الحضارة الحديثة تمهيداً لتجاوزها واكتشاف العلاج الجذري لها . ان المصاب بالداء يعجز في اكثر الاحيان عن معالجة نفسه وانقاذها مما اصابها . وحضارة المتقدمين قد اغرقتهم في لجتها ، واعمتهم بالتالي عن رؤية ما بعدها ، فهم أسرى لها ، بل عبيد لها . انها تتحكم فيهم بالفعل ، وهم يتوهمون انهم هم الذين يسيرونها ، بوصفهم هم المبدعين لها .

ان ظاهرة العنف التي تسم الاجيال الناشئة في الغرب هي دليل بليغ على مدى ما تفعله هذه الحضارة القائمة في اسسها وفروعها على العنف ، على الفصام ،على تمزيق الانسان فرداً وجماعة ، من هنا نستطيع ان نفهم طغيان النزعة العدوانية لدى اسرائيل . فهي نزعة يغذيها تياران معاً : تيار من الخارج ، إذ ان الغرب كان وما يزال يستعمل اسرائيل اداة قمع واداة تقويض للنظام، واداة تهديد للسلام ، وقوة إعاقة للجهود البناءة التي تبذلها الشعوب العربية من اجل توفير حياة لأبنائها افضل من الحياة التي كانوا يعيشونها . وتيار من الداخل ، إذ ان الطبقة التي تحكم اسرائيل هي طبقة تدين بالعنف والعدوان ، وهي مشبعة بالنزعة العسكرية المتسلطة ، تحشو ادمغة الاولاد الاسرائيليين بأفكار العدوان والانتشار على حساب الآخرين ، والتسلط على حقوق سواهم .

كل ذلك يجري في إطار من الاستعلاء والصلف الفارغين ، إذ أن ماجرى في حرب تشرين أيضاً هو أن العرب ، في ساعات قليلة فقط تمكنوا من أن يجعلوا هذا « البالون » المنتفخ كبرياء ، ينفّس بوخزة واحدة، فيضمر ثم يضمر حتى

كاد يذوب كالملح في الماء . ومن المحقق لدى جميع الملاحظين لما جرى في تشرين الماضي أنه لولا الامدادات الهائلة الكثيفة الفورية التي أرسلتها الولايات المتحدة لنجدة اسرائيل ، لقصمت القوات العربية وإلى الأبد ظهر هذه الطغمة العسكرية الاسرائيلية التي استمرت سنوات طوالاً تتبجح خيلاء وزهواً دون مارصيد حقيقي .

ان مانلاحظه من انفراط هذه الطغمة العسكرية في داخل اسرائيل ، إضافة إلى القلق الناخر في نفس كل اسرائيلي ، إضافة إلى الخوف الحقيقي الذي قدم لنا وصفاً عنه عشرات الكتاب والمراسلين الأجانب الموجودين في اسرائيل ، إن هذه الوقائع كلها ليست سوى عينات مما أصاب اسرائيل ، وكل من فيها ، من هزة خلخلت أعمق أعماق كيانها . وهذا دليل جديد على أن الاستعلاء والصلف ليسا ظاهرتي قوة ، بل هما ظاهرتا ضعف ، أنهما في لغة علم النفس ظاهرتا تعويض عن القوة الحقيقية ، حرب تشرين لم تكتف بتعرية اسرائيل أمام العالم وأمام نور الحقيقة وحسب . بـــل أضافت الى هذه التعرية حقيقة كاد الكثيرون منا ينسونها ، وهي أن العرب لا يمكن بأية حال ، ولا بأية قوة ، اقصاؤهم عن ممارسة حقوقهم ، وتأكيد هذه الحقوق ، لأن الحق ليس أفكاراً ولا مبادىء ولا دروساً في الفلسفة ، بل هو أسلوب وجود ، وصيغة حياة ، بل وشرط للحياة .

★ ★ ★

ولكن حرب تشرين أبانت في الوقت ذاته ان حقنـــا مرهون ، بل ومشروط ، بقدرتنا على توكيده . والتوكيد هنا يعني بكل بساطة تماسك القوى العربية وتضامنها . لقد كتبنا وكتب غيرنا الكثير الكثير عن فضائل الوحدة العربية ، وشعارات توحيد القوى التقدمية ، او توحيد الطاقات العربية ، وسوى ذلك من التعابير والكنايات . ان الموضوع ليس معقداً ، ولا يحتـاج الى انشاء ومواعظ ، مثلما لا يحتاج الى توريات وتلميحات . ان التضامن العربي ليس واجباً

يفرض على العرب من فوق او من الخـــارج ؛ والتضامن العربي ليس ابتهالات وادعية ، والتضامن العربي ليس مؤتمرات ولقاءات قمة . انه سلوك وممارسة ، انه فعل يومي يرمي الى عمل مشترك تقوم به الأسرة العربية كلها في مشرقها ومغربها، لا من اجل دحر العدوان وحسب ، ولا من اجل استرداد الاراضي التي اغتصبتها امرائيـل في عدوانها سنة ١٩٦٧ وحسب ، ولا من اجـل الاعتراف بالحقوق المشروعة لشعب فلسطين ، ان التضامن العربي هو هذه الامور مجتمعة ولكنه اكثر بكثير من هذه الامور مجتمعة،انه فعل عربي مشترك من اجل بناء الحضارة العربيـة المقبلة ، من أجل مساعدة الانسانيـة على أن تتخلص من نزعات العنف التي تطغى عليها ، من اجل مشاركة القوى الخيرة لدى شعوب العالم الأخرى في سبيل فتح آفاق جديدة امام اجيال المستقبل ليعيشوا بسلام حقيقي لا رياء فيه ولا نفاق ؛ ذلك اننا نخطىء خطأ بالغاً اذا تصورنا ان المتقدمين والمتخمين والغارقين في خضم حضارة الاستهلاك هم سعداء . انهم على العكس تماماً ، يعيشون في خوف من ذواتهم اولاً ، ويعيشون في قلق تأصلت جذوره في نفوسهم نتيجة ادمانهم على حضارة الاستهلاك ثانياً. مرة اخرى اقول ان امامنـا نحن العرب ، امكانات عظيمة جداً ، نستطيـع ان نتلقفها لنحيل فيها تضامننا من مستوى الابتهال الى مستوى الانجاز ، بذلك وحده نكون قد برهنا عن جدارتنا في استخلاص اعظم عبرة من شتى العبر التي قدمتها حرب تشرين لا للعرب وحدهم ولا لاسرائيل وحدها ، بل للانسانية جمعاء .

حرب تشرين

المدلولات والأبعاد الكبيرة

ظهير عبد الصمد

مهما كتب وقيل عن حرب تشرين التحريرية ، وعن حرب الجولان ، فالحياة تعطي الجديد كل يوم من آثار هاتين الحربين، وآفاقها،وتقدم الكثير الكثير من المعطيات والوقائع والاحداث عن نتائج هاتين الحربين . ان نظرة جديدة ، واقعاً جديداً ، قد نشأ بعد هاتين الحربين وخلالها ، وقوى كثيرة قد اخذت تغير مواقفها ونظراتها في ضوء هذه الحرب والاستعداد لها ، وفي ضوء النتائج والاستنتاجات التي تحققت او التي تم التوصل اليها .

قبل حرب تشرين التحريرية كانت الامة العربية في مختلف اقطارها - وخاصة في بلدان المواجهة - تعاني مرارة الهزيمة في عدوان ١٩٦٧ ، وكانت تدرك ان اسرائيل لن تنسحب من الاراضي المحتلة ، وهي تخطط للبقاء في هذه الأراضي وتعمل لتغيير معالمها الجغرافية والاجتماعية والسكانية ، وايجاد واقع معين ملموس في هذه الأراضي ، واقع اسرائيلي . وان كل حديث كلامي عن تحرير الأرض بدون ممارسة فعلية لعملية التحرير ، سواء أكانت ممارسة سياسية أو عسكرية ، يعطي ردود فعل سلبية ،ويقوي الشعور بالهزيمة ، ويخلق التربة والمناخ لردات فعل عنيفة ، عفوية ، منظمة أو غير منظمة، من قبل بعض المسؤولين العرب ضد مسؤولين آخرين وضد بعض الحكومات العربية أو موجهة من قبل منظمات واحزاب وهيئات شعبية .

وقد جرت مبالغات في تقييم دور النضال السياسي أو النضال المسلح،علما ان كلا النضالين ضروري في المعركة ، وان النضال السياسي ليس بديلاً للنضال المسلح بل هو مكمل له .

أما بعد حرب تشرين وحرب الجولان ، فالصورة مختلفة في كثير من جوانبها ، فالشعور بالهزيمة قد زال لحد بعيد، وحل محله شعور بالاعتزاز والثقة،وان البلدان العربية، وخاصة بلدان المواجهة ، وعلى الأخص سورية ومصر، قادرة بتعاونها، على رد العدوان الاسرائيلي والتغلب عليه، وقد بينت حرب تشرين وحرب الجولان بصورة واقعيةهذه الحقيقة ، وكشفت عن الامكانيات الكبيرة المتوفرة عند الأمة العربية ، وعند المقاتل العربي في سورية ومصر .

ان هاتين الحربين قد نقلتا الأزمة السياسية والعسكرية الى الجانب الاسرائيلي ، وعمقت التناقضات في صفوفه ، وخلقت روح اليأس في صفوف مقاتليه ، ان الحالة الوهمية التي كان يخلق فيها المواطن الاسرائيلي،والشعور بالامان والاطمئنان ، وان اسرائيل لن تغلب قد زالت وحل محلها الشعور بالخوف والقلق من تغيرات مفاجئة ، وعدم الثقة بالقيادات العسكرية والسياسية في اسرائيل . ان روحاً من التمرد قد اخذت تبرز في وسط المجتمع الاسرائيلي ضد القيادة الصهيونية واخذ الصراع الطبقي يشتد ويتنامى أكثر فأكثر في أوساط العمال والفلاحين وجماهير السكان.

الولايات المتحدة هي عدو حركة التحرر العربية :

قبل حرب تشرين التحريرية وحرب الجولان ، كان هناك اجماع في الاوساط التقدمية العربية الرسمية والشعبية ، على ان الولايات المتحدة الاميركية هي عدو حركة التحرر العربية ، وعدو الانظمة التقدمية فيها ، وان اسرائيل عندما تقوم باعتداءاتها على البلدان العربية ، تستند بالدرجة الاولى الى دعم الامبريالية الاميركية ، والى الاسلحة الاميركية .

وان الاتحاد السوفيتي وبلدان المنظومة الاشتراكية هي الصديقة الصدوق لحركة التحرر العربية ، وللانظمة التقدمية فيها ، وان معاركنا من اجل تحرير اراضينا المحتلة في عدوان ١٩٦٧ وتطهير الارض العربية من رجس الامبريالية تستند بالدرجة الأولى الى الدعم اللامحدود من قبل هذه البلدان الصديقة وبالاستناد الى اسلحتها .

وقد اثبتت الوقائع الملموسة لحرب تشرين وحرب الجولان عمق الصداقة العربية السوفيتية ، ومتانة الروابط بين البلدان العربية التقدمية والبلدان الاشتراكية .

وبعد هاتين الحربين جرت الامور في صورة اخرى، في صورة معكوسة في بعض البلدان العربية .

غيوم تحجب صفاء الصداقة العربية السوفيتية :

فبدلاً من أن تتعمق وتتمتن الصداقة العربية السوفيتية ، أخذت بعض الغيوم تحجب صفاء هذه الصداقة في مصر ، وأخذت شعارات التشكيك بالاتحاد السوفيتي والهجوم عليه احياناً تبرز في العديد من الصحف المصرية واللبنانية وعلى لسان بعض المسؤولين ، مستغلة بعض الحوادث التي لا بد من وقوعها بين الأصدقاء والحلفاء مهما بلغت صداقتهم أو مفتعلة لهذه الحوادث .

والى جانب ذلك اخذت شعارات الصداقة مع أمريكا ترتفع ، ولصبح العدو صديقاً . وعلى الرغم من كل التبريرات التي اعطيت دفاعاً عن هذه الشعارات ، فان الجماهير العربية لم تعط تأييدها لهذه السياسة .

وارتفعت اشارات الاستفهام عالية حول مبرر هذه التغيرات في المواقف السياسية . وبخاصة ان الاتحاد السوفيتي لايزال وسيظل على مواقفه في دعم القضية العربية سياسياً وعسكرياً ، وهو بذلك لا ينطلق من اسباب تكتيكية ، وانما ينطلق من مواقفه الثابتة في دعم حركات التحرر الوطني في معاركها من أجل تحرير اوطانها وطرد الغزاة المحتلين منها ، والشاء حكوماتها الوطنية المستقلة .

ونضال مصر وسورية ضد العدوان الاسرائيلي ومن أجل تحرير الاراضي في عدوان ١٩٦٧ هو نضال عادل ومشروع ، ولا يمكن للاتحاد السوفيتي الا ان يقف موقف المؤيد والداعم لهذا النضال، ولابد له من ان يقوم بدوره ومسؤولياته في هذا المجال .

اهمية التعاون والتنسيق في انجازات حرب تشرين :

قبل حرب تشرين وفي مراحلها الاولى ، كان هنـاك بين مصر وسورية تنسيق حول مختلف القضايا العسكرية والسياسية ، وكان هناك قيادة عسكرية موحدة ، وساعة الصفر كان متفقاً عليها بين القيادتين المصرية والسورية ، وقد كان ذلك من العوامل الاساسية في تحقيق نجاحات هامة في المجالين العسكري والسياسي .

ولكن بعد ذلك اخذ التنسيق بين القيادتين يضعف أو يغيب وأخذت تبرز أعمال غير مدروسة بصورة مشتركة وظهر التباين في المواقف السورية والمصرية ، وكان لذلك اثره الضار على مجمل القضية الوطنية .

أن مصر وسورية لو نسقتا معاً مواقفهما السياسية ، وقامتا وبصورة مشتركة بمباحثات فصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية وعلى باقي الجبهات الأخرى ، لكانت مرحلة فصل القوات قد أنجزت بصورة أفضل وأسرع وبدماء أقل ، ولأضطرت اسرائيل للانسحاب مسافات أكبر على مختلف الجبهات في عملية فصل القوات كمرحلة أولى من الانسحاب الشامل ويمكن القول ان التنسيق بين البلدين العربيين مصر وسورية حول المراحل المقبلة من عملية الانسحاب الشامل ، وحول مباحثات مؤتمر جنيف ، هو ضروري وأساسي ، وبدون ذلك سيكون من الصعب ان لم نقل من المستحيل اجبار اسرائيل على الانسحاب من الأراضي المحتلة .

خطأ الدخول في مفاوضات منفردة

وكان خطأ كبيراً الدخول في مفاوضات منفردة مع اسرائيل . ان اسرائيل كانت وستظل تعمل للتفاوض مع كل بلد عربي على حدة .

وقـد انعكس ذلك في اسلوب الفصل بين القوات ، حيث اختارت سورية اسلوب المعركة في جبـل الشيخ وفي حرب الجولان من جهة ، واسلوب النضال السياسي والاستعداد للوصول الى اتفاق لفصل القوات كمرحلة اولى من الانسحاب الشامل من الأراضي العربية المحتلة من جهة ثانية وقد أدى هذا الاسلوب الى ارغام اسرائيل على الانسحاب من بعض الأراضي المحتلة .

لقد حاولت بعض الأوساط الامبريالية والرجعية استغلال عملية فصل القوات للضغط على سورية ومصر ، ومن أجل التساهل مع اسرائيل ، وقبول تواجدها في أراضينا المحتلة في الجولان والقدس والضفة الغربية وغزة وسيناء ، وقدمت مقابل ذلك شتى المغريات ، ولكن الشعور العالي بالمسئولية الوطنية أحبط هذه المحاولات ، وظلت سورية قلعة الصمود ، ورمزا لمقاومة الاحتلال ، وللنضال من أجل استرداد أراضينا المحتلة في عدوان ١٩٦٧ ، ولصيانة المنجزات الوطنية والتقدمية ومن أجل ضمان الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني .

عزلة اسرائيل على النطاق الدولي :

قبل حرب تشرين كانت اسرائيل تنال دعماً واسعاً من قبل الولايات المتحدة الاميركية والعديد من الدول الاوربية ، وكانت تتدفق عليها المساعدات والتبرعات بدون حدود ، وكانت تظهر نفسها وكأنها واحة « سلام » في المنطقة ، ونبتة ضعيفة وسط غابة من المتوحشين ، ومركز تقدم للحضارة الأوربية وسط الصحراء .

ولكن هذه الصورة قد زالت الآن على النطاق العالمي ، وحلت محلها صورة اخرى . لقد برزت اسرائيل على حقيقتها في المنطقة كمركز عدواني موجه ضد حركة التحرر العربية ، وضد الانظمة التقدمية فيها ، واصبحت تعاني عزلة متزايدة على نطاق أفريقيا وآسيا والعديد من الدول الاوربية واوساط واسعة تقدمية في مختلف البلدان . وعوامل عزلتها تعود الى :

١) استهتار اسرائيل بالقوانين الدولية وتحديها للامم المتحدة وقراراتها ورفضها تنفيذ قرارات مجلس الامن بالانسحاب من الاراضي المحتلة .

٢) السياسة المبدئية والمرنة لجمهورية سورية ومصر . وحسن توجهها للرأي العام العالمي ، واظهارها عدالة القضايا العربية ، وعدوانية اسرائيل ، والبعد عن الشعارات المتطرفة ، وابراز ان سورية ومصر تريدان السلام ، ولا تهددان احداً وتواصلان النضال من اجله ولكن في الوقت نفسه لا وجود للسلام في ظل الاحتلال .

٣) دعم بلدان المنظومة الاشتراكية ، وخاصة الاتحاد السوفييتي ، لنضال سورية ومصر العادل ضد الاحتلال ، وكشفها عن اهداف اسرائيل العدوانية .

٤) التضامن العربي مع سورية ومصر والذي برز وتجلى بصورة جيدة في استخدام سلاح النفط .

وقد أدى ذلك كله بالاضافة إلى عزلة اسرائيل الدولية ، الى تعميق التناقضات بين الولايات المتحدة الاميركية وبين العديد من الدول الأوروبية ، وخاصة بينها وبين فرنسا وانكلترا والمانيا الغربية وغيرها . لقد سلكت هذه الدول الاوروبية واتخذت مواقف مغايرة لحد ما لمواقف الولايات المتحدة الاميركية وضد العدوان الاسرائيلي ، ومؤيدة في بعض نواحيها للقضية التحرر العربية . لقد رفضت هذه الدول استخدام قوات القواعد الاميركية في أراضيها ضد البلدان العربية،أو لتزويد اسرائيل بالاسلحة .

تناقضات في صفوف الدول الامبريالية :

وحتى الآن لاتزال هذه الدول على مواقفها المغايرة لمواقف الولايات المتحدة الأميركية ، وقد عبر المسؤولون الاميركيون عن انزعاجهم من مواقف الدول الاوربية هذه ، وعقد حلف الاطلسي الشمالي أكثر من اجتماع لمعالجة هذه القضايا ، وحاولت الولايات المتحدة الاميركية ترويض الدول الاوربية واخضاعها ، ولكنها فشلت في ذلك ، وواجهت تمرداً مكشوفاً ، وانتقاداً صريحاً من جانب الاوساط الاوربية ،ولكن هذا كله لاينفي ان التناقضات لن تسوى، فمحاولات التنسيق والتعاون بين الدول الامبريالية ستظل قائمة ، وسيرافقها دائماً تناقضات جديدة وخلافات جديدة .

والبلدان التي سايرت الولايات المتحدة الاميركية في سياستها العدوانية المؤيدة لاسرائيل تعرضت لهزات وانقلابات ، كالبرتغال واليونان ، وأصبحت سياستها مغايرة لسياسة الولايات المتحدة.

ان مواقف الدول الاوربية من القواعد الاميركية فيها ، ورفضها استخدام هذه القواعد ضد حركات التحرر ، وبدون اذن مسبق منها ،دفع الولايات المتحدة الاميركية الى تنظيم الانقلاب في قبرص ضد المطران مكاريوس ، عن طريق الفاشيست اليونانيين، لأن المطران مكاريوس رفض استخدام الجزيرة ضد البلدان العربية ، وضد حركة التحرر العربية ، ولكن حسابات واشنطن والفاشيست اليونانيين قد انقلبت عليها ، فالشعب اليوناني قد قلب حكامه الفاشيست ، وعادت الى السلطة فيه حكومة مدنية سلكت سياسة مناهضة لسياسة واشنطن في قبرص ، والحكومة التركية تدخلت في قبرص ضد الانقلاب فيها ، وتعمقت أزمة حلف الاطلسي واشتدت تناقضاته ، وانسحبت اليونان عسكرياً .

وقد تطوعت اسرائيل واعلنت استعدادها لتحويل بعض موانئها كقواعد عسكرية اميركية .

حرب تشرين ازمت وضع الولايات المتحدة وفجرت تناقضاتها مع حلفائها:

ان حرب تشرين كانت نقطة انطلاق لتأزيم وضع الولايات المتحدة الأميركية الاقتصادي ، وابراز تناقضاتها مع حلفائها الاوربيين ومع اليابان ، بالاضافة الى تناقضاتها مع البلدان الاسيوية والافريقية ومع حركة التحرر العربية .

وما النشاط الذي قام به كيسنجر وزير الخارجية الاميركية من اجل فصل القوات في المنطقة على الطريقة الاميركية إلا محاولة منه لتخفيف صعوبات اميركا ، واعادة علاقات الولايات المتحدة الاميركية مع حلفائها الى الوضع الطبيعي ، بالاضافة الى تأمين الاستمرار لاسرائيل وتوفير الحماية لها ، وتمكينها من تهديد البلدان العربية ، والاعتداء عليها مرات ومرات ، وقد وقفت سورية بوجه ذلك، وقامت من خلال النضال السياسي والنضال المسلح ، وبمشاركة الاتحاد السوفيتي في التوصل الى اتفاق فصل القوات كمرحلة اولى من الانسحاب الشامل ، وعلى اساس فهمنا لقرار مجلس الأمن القاضي بانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة وضمان حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

اسرائيل تخلق جو الحرب من جديد في المنطقة:

لقد مضت شهور حتى الآن على حرب تشرين وحرب الجولان ، ورغم الانسحاب الجزئي لاسرائيل من بعض الاراضي المصرية والسورية ، ورغم فصل القوات الذي تم ، ورغم قرارات مجلس الامن بضرورة انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة ، فأن اسرائيل لاتزال مقيمة في هذه الأراضي، وهي مصرة على الاحتفاظ بها بحجة حماية امن اسرائيل ، وليس مايدل في الافق القريب على ان اسرائيل تنوي الانسحاب . انها تسلح جيشها اكثر فاكثر ، وتستورد الاسلحة المختلفة والمتطورة من الولايات المتحدة الاميركية، وتخلق من جديد جو الحرب في المنطقة عن طريق هجماتها وغاراتها المستمرة على جنوب لبنان وعلى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، وعلى سواحله ومرافئه ، وعن طريق دعوة الاحتياط وتعبئة الجيش والقيام بالمناورات على حدود سورية ، وعن طريق التهديدات بالحرب ضد سورية والتي يطلقها قادة اسرائيل السياسيين والعسكريين .

واضح ان اسرائيل بمواقفها هذه تريد اعادة الثقة لجيشها وشعبها وتقوية اعصاب مواطنيها ، واشعارهم بأن اسرائيل ماتزال قوية وانها قادرة على توجيه الضربات للدول

المجاورة ، ولحركة المقاومة الفلسطينية ، وهي تريد ايضا ان تبين لليهود في العالم ان اسرائيل قادرة على حمايتهم في حال مجيئهم الى فلسطين واستيطانهم فيها ، وانها قادرة على حماية امنهم واستقرارهم ، وهي تريد ايضا ان تبين للولايات المتحدة الاميركية انها ماتزال قادرة على حماية مصالحها في المنطقة ضد حركة التحرر العربية ، وضد الأنظمة التقدمية فيها ، وان مصلحة الولايات المتحدة الاميركية في المنطقة مرتبطة بوجود اسرائيل قوية متطورة ، وان كل ضعف او وهن يصيب اسرائيل ، فانه بالنتيجة سيصيب الولايات المتحدة الاميركية ويؤثر على مصالحها ومصالح حلفائها في المنطقة .

أهمية التضامن العربي في معركة التحرير والتنمية :

خلال حرب تشرين لعب التضامن العربي دوراً سياسياً كبيراً وخاصة في ميدان الدعم العسكري ، وفي ميدان النفط . ان ارسال العديد من الدول العربية جزءاً من قواتها العسكرية الى ميدان القتال كمراكش والعراق والكويت والسعودية والاردن ، كان له أهمية كبيرة في ابراز أن البلدان العربية كلها من المحيط الى الخليج ، وعلى اختلاف أوضاعها هي من الناحية السياسية مع تحرير الأرض المحتلة ، ومع الاعتراف بحقوق الفلسطينيين في العودة الى وطنهم وتقرير مصيرهم على أرضهم . وقد ساهمت هذه القوات مع القوات السورية والمصرية في خوض المعارك ضد العدو المحتل بنسب وأشكال مختلفة .

التضامن في ميدان النفط :

ولعب التضامن العربي في ميدان النفط دوراً كبيراً في الضغط على الولايات المتحدة الأميركية ، وعلى بعض الدول الاوربية ، وساهم في تعميق الأزمة في صفوف دول الأطلسي ، وفي تقوية التناقضات فيما بينها وبين الولايات المتحدة الأميركية ، ولو استمر هذا التضامن في هذا الميدان لكانت آثاره أكيدة ، ولفرض على الدول الامبريالية وعلى اسرائيل تنازلات وتراجعات أكبر لصالح حركة التحرر العربية ولصالح قوى التقدم فيها .

ومع ذلك فيمكن القول ان التضامن النفطي العربي خلال المعركة وبعدها هو ظاهرة هامة ، ظاهرة جديدة ، وسيكون لها أبعاد كبيرة في المستقبل . فرغم ارتباط العديد من الدول النفطية العربية بهذا الشكل أو ذاك بالدول الغربية وبالولايات المتحدة ،

ورغم أنظمتها الرجعية فأنها استطاعت أن تسام في معركة التحرير بشكل من الأشكال ، وأن تقوم بضغوط شديدة على الدول الامبريالية .

ولا شك أن الدول النفطية قد استفادت أيضاً من حرب تشرين ، فرفع أسعار النفط قد زاد في موارد هذه الدول كثيراً ، وما قدمته هذه الدول من أجل المعركة هو أقل بكثير مما جنته وربحته .

ولكن الوضع في ميدان النفط وفي ميدان الدول النفطية لا ينطلق فقط من المواقف الوطنية والقومية ، وانما ينطلق ايضاً من المواقف الطبقية ، ومصالح الحكام والاقاليم ، ولذلك كانت الترددات في هذا الميدان منتظرة وطبيعية ، وارتباط مصالح الامبريالية والرجعية يلعب دوره في توجيه السياسة النفطية في المنطقة.

ضرورة انتهاج سياسة واقعية ومبدئية في ميدان النفط :

ومع ذلك ، ومها كانت الظروف والتطورات ، ففي ميدان النفط والسياسة النفطية ، ينبغي الانطلاق من سياسة واقعية ، تأخذ بعين الاعتبار مصالح الاقاليم النفطية ، ومصالح جماهيرها من جهة ومصالح حركة التحرر العربية ، ومصالح تحرير الأراضي المحتلة من جهة ثانية ، ففي الظروف الآتية من الصعب سلوك سياسة أخرى .
ان دول المواجهة الموضوع امامها عملية تحرير الارض بحاجة ماسة الى المال من اجل اعمال التنمية والتسلح ، واستعدادها لتحرير الاراضي المحتلة يرهق ميزانيتها كثيراً ، وهي بحاجة الى الدعم المالي بدون حدود ، فمواردها الداخلية لا تكفي لتأمين هاتين المهمتين ، التحرير والتنمية ولذلك لا بد لها من دعم مالي عربي. والدول النفطية، غنية بدون حدود ، ومواردها المالية خلال نصف قرن كذلك بدون حدود ، وعدد سكان هذه الدول والامارات قليل واراضيها فقيرة ، وليس باستطاعتها استخدام اموال النفط في أراضيها ذاتها ، وهي لذلك تقوم بتوظيفها في البنوك الاوربية والاميركية ، اي بكلمة ان الاموال العربية تستخدم لخلق الرفاه في البلدان الاوربية والاميركية ، بدلاً أن تستخدم لتحقيق تنمية حقيقية في البلدان العربية وتستخدم لتأمين الاستقرار المالي في الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وغيرها ، وفي مكافحة التضخم المالي فيها ، وفي الضغط على البلدان العربية من قبل هذه الدول ، وحجب أو منح دول المواجهة بعض القروض ، ان الاموال العربية التي تقترضها الدول الغربية واميركا

تستخدم فيما تستخدم فيه في منح مساعدات واسعة لاسرائيل وفي تجهيزها بشتى صنوف الاسلحة .

سياسة وطنية وقومية في ميدان النفط :

ان بامكان الدول العربية والجماهير العربية والمنظمات الوطنية التقدمية ان تقوم ببحث قضايا النفط واموال النفط على اساس وطني وقومي ، وان تستخدم ذلك في صالح المعركة الكبرى . معركة التحرير والتنمية ، وهذا يتطلب :

١ — الارتفاع فوق المصالح الاقليمية والعشائرية .

٢ — الانطلاق من ان البلدان العربية يكمل بعضها بعضاً ، وان ثروات الأرض العربية ، ينبغي ان تستخدم لصالح الجماهير العربية ، ولصالح عملية التحرير والتنمية.

وربما يكون من الصعب الآن ان لم نقل من المستحيل السير في هـذا الاتجاه ، ولكن سير التطور لابد ان يفرض ذلك في المستقبل ، ولا شك ان انتشار الوعي في مختلف البلدان العربية ، واشتداد الكفاح للخلاص من التخلف وتكون طبقة عاملة في اكثرية دول النفط ، وانتشار التكنيك الحديث ، كل ذلك وغيره سيهيء الظروف المناسبة والتربة للسير في طريق استخدام الاموال العربية لصالح الجماهير العربية .

ضرورة الثقة ، وتحاشي الغرور ، وضرورة الاستعداد :

ان حرب تشرين التحريرية وحرب الجولان ونتائجها السياسية والعسكرية قد وضعت الجماهير العربية على الطريق الصحيح . طريق النضال السياسي والعسكري لتحرير الارض ولاعادة الشعب العربي الفلسطيني لوطنه وتقرير مصيره على ارضه . ومن المهم كثيراً ان لا يأخذنا الغرور بنتائج حرب تشرين ، وان لا يعمينا ذلك عن رؤية الحقيقة ، فالعدو ما يزال جاثماً فوق اراضينا ، ولم ينسحب بعد ، ولذلك لا بد من الاستعداد والتعبئة لطرده منها ، لا بد من اعداد الرأي العام العربي والدولي للمساهمة معنا في الضغط على اسرائيل وحلفائها من اجل الانسحاب . ان عزلة اسرائيل الدولية ينبغي ان تشتد وتتعمق اكثر فأكثر ، عزلتها عن افريقيا وعن آسيا وعن العديد من الدول الاوربية ، وعن فئات واسعة من جماهير السكان في القارة الاميركية .

دروس حرب تشرين والجولان :

ان حرب تشرين وحرب الجولان اعطت دروساً قيمة لحركة التحرر العربية والبلدان التقدمية فيها ، ولا بد من الافادة من هذه الدروس وهضمها جيداً في المستقبل . واهم هذه الدروس هي :

١) في الحروب العصرية لا بد من اتقان السلاح الحديث ، وحسن استخدامه والتدرب عليه ، ولا بد من اعداد المقاتل بصورة جيدة فكرياً وسياسياً ، فالمقاتل المؤمن بقضيته مستعد للتضحية والبذل من اجل هذه القضية ، ان المقاتل المؤمن والمتقن استخدام سلاحه هو الاساس في كل حرب وفي كل معركة .

٢) ان الاستعداد لخوض المعارك العسكرية ، لا يتعارض مع الاستعداد للمفاوضات السياسية ، وانما هو مساعد لهذه المفاوضات ، فكلما كان الاستعداد العسكري اشد ، كلما كانت نتائج المفاوضات السياسية افضل وانجح .

٣) ان كل معركة يخوضها شعب من الشعوب ، امكانيات نجاحه فيها متوفرة اكثر ، كلما كانت الثقة متبادلة بين الجماهير والحكام ، الثقة بكفاءة القادة واخلاصهم من جهة ، والثقة بأن الجماهير بحسها الوطني مستعدة للبذل والتضحية من جهة ثانية ، وقد اثبت حرب تشرين صحة هذه الحقيقة .

٤) اهمية وضع الخطط بشمار ، واتخاذ التدابير العملية لتنفيذها والتناسق بين القوى المتحالفة لتنفيذ هذه الخطط

٥) اهمية عنصر المفاجأة ، فمفاجأة العدو توفر الكثير من الضحايا وتسرع بالقضاء على العدو والحاق الهزيمة به .

دروس حرب تشرين والجولان السياسية :

وفي الميدان السياسي يمكن تلخيص أهم الدروس بما يلي :

١) لايمكن خوض المعركة بدون حلفاء أقوياء ترتبط مصالحهم وأهدافهم بمصالح حركة تحررنا العربية ، وتعزيز الصلة مع هؤلاء الحلفاء، والتنسيق معهم قضية أساسية.

وحيوية . وكل محاولة لاضعاف الروابط أو للاساءة الى هؤلاء الحلفاء هي في صالح العدو ومساعدة لأهدافه العدوانية .

وقد تنشأ خلافات أو سوء تفاهم مع هذا الحليف الصديق لسبب من الأسباب وقد نكون نحن أو هو السبب في نشوء هذا الخلاف أو سوء التفاهم ، فكيف ينبغي أن نعالج ذلك ؟

هل سنعالجه بردود فعل أو بنزق أو بروح متعالية ؟

هل سنعالجه بالهجوم والتشكيك ، والتوجه نحو العدو والتقارب منه ؟

ان ذلك سهل ، ولكنه اسلوب خاطيء في المعالجة ، اسلوب ضار وغير مسؤول !

ان اسلوب المعالجة الصحيح هو في الانطلاق من ا المصلحة الوطنية ، من مصلحة المعركة . من الروابط المشتركة التي تربطنا بهذا الحليف الصديق .

لنسأل أنفسنا أولاً لماذا نشأ هذا الخلاف أو سوء التفاهم ، ما دورنا نحن في ذلك؟ وما دور هذا الحليف ؟

ولنقم ببحث ذلك معه بوضوح وصراحة . ولا شك ان ذلك سيؤدي الى ازالة سوء التفاهم ، والى اعادة الأوضاع الى أفضل مما كانت عليه ، كما سيؤدي الى تحديد المسؤولية فيما نشأ من سوء تفاهم أو خلاف .

وحلفاؤنا الطبيعيون في معركة التحرير والتنمية ، هم الاتحاد السوفيتي وبلدان المنظومة الاشتراكية بالاضافة الى بلدان آسيا وأفريقيا وحركات التحرر في العالم . وعلاقتنا مع الاتحاد السوفيتي وبلدان المنظومة الاشتراكية علاقة حيوية ، وتقوية الروابط معهم سياسياً واقتصادياً وعسكرياً قضية لا يمكن الاستغناء عنها .

لقد كان الاتحاد السوفيتي قوة أساسية في معركتنا ضد العدوان . وضد الامبريالية الأميركية ، وسيظل هذه القوة في معاركنا المقبلة ، ومعاركنا السياسية والعسكرية .

٢) ينبغي الافادة من التناقضات الناشئة بين عدونا وحلفائه واستغلال هذه التناقضات لصالح حركة التحرير العربية ولصالح الأنظمة التقدمية فيها كما جرى عندما برز التناقض بين الولايات المتحدة الأميركية وأوربا خلال حرب تشرين .

وبروز هذه التناقضات في معسكر الأعداء ، في معسكر الدول الامبريالية هو

أمر طبيعي ، هو ظاهرة دائمة ، والاتفاق بين الدوائر الامبريالية هو اتفاق مؤقت ، وسيتبدد هذا الاتفاق ويزول عندما تتغير نسبة القوى بين الدول الامبرياليـــة هو أمر طبيعي . هو ظاهرة دائمة ، والاتفاق بين الدوائر الامبريالية هو اتفاق مؤقت ،وسيتبدد هذا الاتفاق ويزول عندما تتغير نسبة القوى بين الدول المحالفة ، ومن خلال الاتفاقات بين الدوائر الامبريالية تبرز التناقضات فيما بينها ، وتظل مكتونة حتى تظهرها حادثة من الحوادث . لقـــد كانت اليونان وتركيا دولتين حليفتين من دول حلف الأطلسي الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأميركية . وفجأة خلال وبعد احداث قبرص برزت تناقضات حادة بين هاتين الدولتين وبين الولايات المتحدة الأميركية ، وتفجرت التناقضات القوية بين اليونان وتركيا .

وكل هذه التناقضات وغيرها يمكن وينبغي استخدامها في مصلحة حركة التحرر العربية ، وفي مصلحة الحركة الثورية ، ولإضعاف مواقع الامبريالية وعملائها .

٣) ان التعاون بين البلدان العربية ، في المعركة ضد الامبريالية والصهيونية قضية حيوية وأساسية ، وشعار الاستفادة من كل جهد عربي في هذا المجال هو شعار صحيــح ، وينبغي العمل لتقوية هذا الجهد العربي وتطويره بحيث يكون جهداً فعالاً ، وبحيث يتحول الى دعم مادي وعسكري واقتصادي لقضية التحرير وقضية التنمية ، وبحيث يوجد الأساس المادي لنشاط عربي موحد في هذا المجال .

وواضح أن تحقيق ذلك بصورة دائمة هو في هذه الظروف أمر صعب ، بسبب اختلاف المواقــع الطبقية والسياسية والفكرية للبلدان العربية والمسئولين فيها ، ولكن العمل الدؤوب ، والنشاط بين الجماهير العربية ، والاعتماد على القوى التقدمية فيها ،وعلى الطبقات الشعبية سيغذي البراعم الشابة والمتقدمة ،ويقوي مواقع الطبقة العاملة وحركتها النقابية ، والحركات الطلابيـــة والاحزاب الوطنية التقدمية ، والاحزاب الاشتراكية والشيوعية . وهذا كله سيضع التربة المناسبة لتحقيق تعاون افضل وتنسيق اشهر بين البـــلدان العربية ، وسيدفعها تدريجياً للسير في طريق تحقيق الوحدة العربية .

وفي الظروف الراهنة ، وفي مجال الاستعداد لمـؤتمر جنيف فأن وصول البلدان العربية الى وجهة نظر موحدة ، وقيامها معا وبشكل موحد بالتفاوض كفريق واحد ، يقوي مواقعها كثيرا ، ويحبط محاولات اسرائيل والولايات المتحدة بالتفريق بين البلدان العربية ، ومساعيها للتفاوض مع كل بلد عربي على حدة .

٤) ان حركة المقاومة الفلسطينية هي عنصر اساسي في معركة تحرير الأراضي المحتلة في عدوان ١٩٦٧ وفي حل القضية الفلسطينية وخاصة اذا قامت بالتنسيق والتعاون مع جيوش البلدان العربية التقدمية ، واستندت الى دعم وتأييد البلدان الاشتراكية وفي طليعتها الاتحاد السوفيتي. ومنظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني في الداخل والخارج وبدون هذه المنظمة لايمكن حل القضية الفلسطينية، ولايمكن تحديد ماهية حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

٥) ان حركة التحرر العربية هي حركة ذات تأثير عالمي كبير ، ولها حلفاء في اكثر بلدان العالم ، ونفوذها ناشيء اولا من عدالة القضايا العربية التي تناضل من أجلها، قضايا النضال ضد الأمبريالية والصهيونية ومن اجل تحرير الارض .ومن تفاعلها واندماجها مع حركات التحرر الاجتماعي ، ومن اغتنائها بمفاهيم واتجاهات تقدمية واشتراكية .

هذه الحركة وقوة الأنظمة التقدمية العربية ، وما يجري فيها من انجازات تقدمية في مجال التأميم والاصلاح الزراعي ، والقطاع العام وتطويره وفي مجال التنمية والتصنيع والقضاء على التخلف وكلما اغتنت هذه الانظمة التقدمية وترسخت ، كلما ازداد وزن ونفوذ حركة التحرر العربية ، داخلياً وعربياً ودولياً . وكلما كانت أقدر على التأثير ، والعمل حتى في المجال العسكري .

٦) ان التطور يسير لصالح حركتنا التحررية ، ولصالح تحررنا الاجتماعي ونضالنا من أجل الاشتراكية والوحدة العربية . والتأييد العالمي لقضيتنا الوطنية ، يتنامى أكثر فأكثر ، والامبريالية والصهيونية تصطدمان بمقاومة عنيفة من قوى التقدم والاشتراكية ، ولذلك ينبغي السير بقدم ثابتة ، من أجل تحقيق أهداف أمتنا العربية في تحرير أراضينا المحتلة وفي ترسيخ اتجاهات التقدم الاجتماعي والاشتراكية .

العرب والسادس من اكتوبر

الدكتور جمال حمدان

حين وصف بعضهم ٦ اكتوبر بأنه بعث او ميلاد جديد للعرب ، وحين ذهب آخرون الى انه اعظم وامجد ايام العرب منذ قرن ونصف قرن على الأقل ، أي لقطة الأوج والذروة في تاريخهم الحديث جميعاً ، لم يكن ذلك من قبيل الحماسة او المزايدة العاطفية ولا كان فيه من الرومانتيكية الجامحة أو الجنحة اكثر مما فيه من الموضوعية العلمية الصارمة . واذا كان هناك من يرى في ذلك « كثيراً من المبالغة ، وقليلاً من الدقة العلمية » ، وان ٦ اكتوبر « مرحلة هامة من مراحل الصراع فقط . وتغيير كمي لاكيفي بعد » ، فان الاختلاف في النهاية نسبي ، وخطر التقليل قد يكون اسهل ولكنه اسوأ

من خطر التهويـل . ويبقى ٦ اكتوبر تغييراً ضخماً وجذريـاً بكل مقيـاس وعلى أي اساس .

ذلك لأنه بقدر ما يكون عمق السقطة السابقة يكون ارتفاع القفزة اللاحقة . ولا يستطيع ان يقدر معنى ومدى وحجم النصر العربي في اكتوبر الا من يستطيع ان يتخيل مدى الانهيار والسقوط ونوع المصير الذي كان يمكن أن ينتهي اليه العرب لو انهم هزموا فيه فوق هزيمتهم في يونيو وبعدها . ولو اننا فكرنا بهدوء وواقعية فيما كان يراد بنا ويخطط لنا على أيدي العدو واطماعه وطموحاته ، لتأكد لنا بلا أدنى شبهة اننا على الاقل وعلى الأسوأ قد نجونا من خطر ماحق كان يدبر لنا وكان يمكن فعلا لو تحقق أن يودي بنا ، وعلى الأغلب والأرجح قد ضمنا مستقبلنا وأمنا مصيرنا الى الأبد ، وعلى الأكثر والأحسن سوف نحقق كل أهدافنا وآمالنا القومية العظمى كاملة يوماً ما في المستقبل القريب او البعيد . أو كما يقول بهاء الدين « هزيمة يونيو لم تجعلنا نركع » ولكن ظل « سيفها مسلطاً فوق رؤوسنا ، قريباً جداً من اعناقنـا .. حرب اكتوبر كسرت هذا السيف المسلط ، وحطمت القيد الذي كان يكبلنا » ..

فليس سراً ان نكسة يونيو كانت قد أصابت الوجود العربي في مقتل اكثر مما كانت جرحاً دامياً او كسراً اليماً . وقدر البعض ما بين جيل الى جيلين حتى تخرج العرب من كارثتها العسكرية وتعيد بناء قواتها المسلحة . بينما ذهب ريمون آرون الى ان العرب لن يفيقوا من هول ما حدث الا بعد قرن كامل . ففي يونيو خسرنا في ستة ايام سوداء ليس فقط ما كلفنا ستة اعوام حالكة كالحة من الانهيار والعار والتمزق ومهانة الهزيمة ، كل يوم بسنة ، ولا كذلك ما قيمته ستة آلاف مليون جنيه من السلاح وحده خسائر مباشرة ، اي كل يوم بألف مليون جنيه ، هذا عدا ستة آلاف مليون اخرى خسائر مادية واقتصادية غير مباشرة ، ولكنها اكثر منه جميعاً شوهت ستة آلاف سنة عريقة من التاريخ المجيد ، كل يوم بألف سنة ..

ولم تكن بشاعة الهزيمة لتكمن في ذاتها فحسب ، فالعرب قد عرفت وامتصت هزائم كثيرة في تاريخها المفعم ، ولا كانت كذلك في حجمها ، وقد كان مخيفاً ومهيناً بصورة غير متصورة وان لم تكن بالضرورة غير مسبوقة ، وانما كان هول الهزيمة في مصدرها ومعناها . فمن مثل عدونا الاسرائيلي المعقد القميء ، بكل احقاده وصغاره وسعاره ، وأكثر منها وأخطر خططه واوهامه المجنونة ونواياه المعلنة والمكتومة كاستعمار استيطاني

احلالي أبادي وأبدي ، من مثل هذا العدو كانت الهزيمة اذلالاً دموياً مشيناً للماضي والحاضر برمته يسفحها سفحاً ونذير شؤم سوداوي للمستقبل يمده الى الأبد .

معنى نكسة يونيو

من هناك جميعاً لم يكن من المبالغة في شيء أن تعد سنوات مابعد يونيو السوداء بمثابة ردة في تاريخ العرب الحديث الى « العصور المظلمة » . وفي الوقت الذي كان العالم يطفر طفراً نحو آفاق عصر جديد ونحو حضارة لم يسبق لها مثيل في درجة التطور والتعقيد والامكانيات ، وحتى المتخلفون كانوا يلهثون للحاق بالعصر ، بدا للبعض كما لو أن العرب وقد انزلقوا وحدهم في حمأة هذه الرجعة التاريخية قد أمسوا وكأنهم أمة منقرضة لن تقوم لها قائمة ، ميئوس منها ، شاخت واستنفدت أغراضها ومبرر وجودها ، وتلك فقط انما علامات الزوال وآلام الاحتضار . أما من ترفق منهم فقد قال ان العرب قد توقف بهم التطور عند صلاح الدين أو على الأكثر عند محمد علي..

ولم يكن ذلك صحيحاً بالطبع ، بل بالقطع ، ولكن كان لابد من تحد عملي قاطع. ومن ثم جاء ٦ أكتوبر بمثابة بداية «عصر النهضة» العربي الحديث بعد تلك «العصور المظلمة» التي انتهت اليها النكسة . لقد رد هذا اليوم اعتبار العرب في العالم ، ونسخ كل النظريات والنظرات الاستخفافية والاستهزائية التي نسجت حولهم ، وأعاد تأكيد وجودهم انسانياً ، كما اعاد اقامة تاريخهم على قدميه بعد ان كان قد انكفأ على وجهه ثم انقلب على رأسه .

غير أنه أكثر من ذلك ايضاً ساعد على وضعهم في مكانهم الحق والمستحق في العالم كقوة كبرى كامنة أو قادمة . لقد فتح باب الأمل كاملاً أمامهم لا ليلحقوا بالعصر فقط ، بل ليسبقوه ان ارادوا ، بحيث يمكن لنا ، ربما بقليل من مبالغة ولكن بأكثر منه من الصحة ، أن نعتبر السادس من تشرين بمثابة البداية المبكرة والطافرة للقرن الحادي والعشرين في تاريخهم الحضاري .

بل أكثر من قرن جديد ، كوكب جديد . فلو اننا فقط نجحنا — وهذا شرط لازم — في أن نستكمل المعركة والنصر بحيث نستخرج منها كل نتائجها المنطقية ونعتصر ثمراتها الطبيعية كاملة ، لكنا بمثابة من انتقل الى كوكب جديد . أليس هذا — في النهاية — معنى حديثنا الشائع عن البحث عن مكان جديد تحت الشمس ؟ أو لم

لكن بعد يونيو – كما رددنا كثيراً – في مفترق طرق مصيري وعنق زجاجة تاريخي ، أما ان نفشل فننزلق الى الخلف عشرات السنين حبيسي الزجاجة المغلقة ، واما ان نقتحم عنقها فنظفر منطلقين الى اوسع آفاق المستقبل واعرض امكانيات التطور ، نخترق حاجز التخلف ، نحقق الوحدة ، وندخل دائرة القوة والسيادة العالمية ، الى آخره ، الى آخره ؟ حسناً ، لقد قررت المعركة الاختيار الاخير .

الآثار العالمية

ونستطيع الآن أن نحصر الآثار السلبية لهزيمة يونيو في ثلاثة مجالات نحللها تباعاً ، عالمياً ، قومياً ، ووطنياً . فأولاً على المستوى العالمي لم يكن هناك أدنى شك أن العرب فقدوا كثيراً جداً من وزنهم السياسي ومن هيبتهم ومكانتهم الدولية ، وانتقلوا في معادلة القوة العالمية قرب تخوم خط الخمود ، وتحولوا على خريطة استراتيجية السياسة الدولية الى منطقة ضغط منخفض ، أي الى « انخفاض جيوبوليتيكي » أغرى تيارات ضغوط القوة من حوله ومن بعيد بالتدفق لملء التخلخل الناشىء ، ولا نقول الفراغ .

تضاءلت ، علينا من أسف أن نعترف ، قامة العرب في المجتمع الدولي وخفت موازينهم في حساب الصراعات العالمية ، وبدا كما لو قد أتى على الانسان العربي حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . حتى لقد طمع فينا أحياناً الصغار قبل الكبار ، القوى المحلية المجاورة قبل القوى العظمى النائية . بل لقد تكامل الاثنان في مشروعات ومخططات مشتركة بزعامة القوة الأعظم المعادية وهي الولايات المتحدة . وكانت الاستراتيجية العظمى في هذا هي الحصار والعزل في الخارج ، والضرب والتفتيت في الداخل .

فمن ناحية بدأت الولايات المتحدة تعد لسقوط المنطقة كاملاً في قبضة نفوذها وفرض الوصاية عليها ، بطرد القوة المكافئة والمضادة منها ، وتصفية النظم الوطنية بها ، ثم تقنين السيادة الاسرائيلية المباشرة عليها . ومن الناحية الأخرى أخذت تمد بالسلاح والاقتصاد وبالاستراتيجية الاقليمية والاستراتيجية البحرية لخلق مناطق « أقطاب مضادة » للمنطقة العربية تقوم على ضلوعها مباشرة سواء في آسيا أو في افريقيا ، « ترث » دورها القيادي في الشرق الأوسط الكبير ، وتنتزع منها زعامتها فيه الى الأبد ، وذلك بزعم أنها أصبحت مجرد جسم مترهل متخلف مضروب وان كان غنياً ، وعاجز ثقيل الحركة بقدر ماهو ضخم ومترام .

على المستوى القومي

هذا عالمياً ، أما قومياً فلم يكن شك أن اللطمة التي أصابت العرب عامةقد أساءت اساءة بالغة الى مصر خاصة ، باعتبارها عاصمة العرب استراتيجياً والقوة الوطنيةالكبرى التي يقع عليها تاريخياً وجغرافيا وديموغرافيا وتكنولوجيا مسئولية الدفاع القومي في الصف الأول والتحليل الأخير . ولما كانهذا العجز العارض قد جاء في مرحلة ، عرضية هي الأخرى ، أخل فيها البترول بدرجة أو بأخرى بتوازنات القوة فيما بين الدول العربية نفسها ، فقد استغل الاستعمار هذه الفرصة للطعن في زعامة مصر والتشكيك فيها ـ محاولة انتزاعها أمر غير وارد أصلاًلأنها، بترول أو لابترول، مستحيلة، ضد الطبيعةوالجغرافيا والتاريخ والمستقبل .

وقد يمكن بصورة تقريبية نسبياً ولكنها مقربة للغاية ان نشبه موقف العرب في العالم ومصر بين العرب بعد النكسة بموقف العالم السلافي وعلى رأسه الروسيا بعد حرب اليابان والحرب العالمية الاولى وقبل ثورة اكتوبر ، حيث كانت اوربا تنظر الى كل منها كمارد ضخم الجثة راقد على أطرافها وتخومها ولكنه عاجز لايأخذه أحد بجدية. وهناك فروق عديدة وعميقة جداً بالطبع ،ولكن المقصود فقط هو الموقف العسكري وموازين القوة والهيبة بالنسبة للعالم الخارجي . فالعالم السلافي عائلة كبرى واحدة،رغم الاختلافات والخلافات ورغم التعدد السياسي ، تجمعها الاصول الانثولوجية الى حد معين والقرابة اللغوية الى حد آخر ، ثم كان هناك الدين والكنيسة ، واخيراً نمط الحياة العامة وقالب الحضارة .. الخ . وفي وسط هذه المجموعة المترامية الممتدة كانت الروسيا بضخامتها وجرمها العملاق ومواردها تقف تقليدياً وتاريخياً كحارسة السلافية وحاميتها العتيدة . ولكن مع تضعضع الروسيا القيصرية ثم هزيمتها على يد المانيا في الحرب الاولى ، بدت كحارسة عاجزة مضروبة ومحتلة مقتطعة أجزاء من اراضيها ، لاتملك أن تحمي نفسها فضلا عن الاخوات الصغريات . الى ان قامت الثورة ، ثم الى أن كانت الحرب العالمية الثانية حيث حققت الى القمة دورها التاريخي في تحريرهن وحمايتهن . بالمثل كان وضع العرب ومصر في العالم بعد يونيو ، بل ربما منذ ١٩٤٨ ، وسنرى بعد قليل كم يصل التشابه الى منتهاه وكيف تعادل حرب اكتوبر في أثرها عندنا ثورة اكتوبر عندهم .

وعدا هذا فلقد عمل اعداء القومية العربية على فكرة الوحدة العربية ، التي لا شك اهتزت بعض الشيء في قرارة النفس العربية ، وان لم يصل الامر قط الى حد الشك

فيها أو فقد الايمان بصحتها أو بحتميتها . ولكن الاستعمار احتبلها سانحة للهجوم بالجملة على كل أعمدة العروبة والقومية والوحدة وذلك للاجهاز عليها مرة واحدة والى الابد . فزعم ، على سبيل المثال ، ان العرب مجرد مجموعة غير متجانسة : لا جنساً ولا لغة ولا لوناً ولا ديناً ، الى آخر تلك النظريات السقيمة الخاطئة التي دفع بها الاعداء بثاً للبلبلة والتخريب ..

ولا مفر لنا من أن نعترف أن هذه الحرب النفسية نجحت نسبياً في خلخلة التماسك العربي الى حد ما ، وبدا لوقت ما كما لو أن العرب قد خضعوا لحركة مركزية طاردة Centrifugal وقعوا في عين دوامتها الكاسحة ، وانهم يتصرفون كما لو كانوا أمة غير واحدة . بل بدا أحياناً — ولكن فقط على السطح وللمراقب السطحي — كما لو أن العرب ليسوا أصلاً وأساساً « أمة واحدة » ، وأن القومية العربية ان لم تكن مجرد مثالية أسطورية فهي ليست اكثر من حقيقة تاريخية ولكنها بالتأكيد ليست حقيقة واقعة فعلاً .. الخ .

ووطنياً :

أخيراً ، على المستوى الوطني ، غني عن القول ان صدمة النكسة قد هزت الوجدان الوطني حتى النخاع ، واحدثت مرارة الجرح كثيراً من التقلصات الحادة بل والتشنجات العنيفة في الجسم السياسي ، وحدثت فجوة تصديق وثقة ساحقة بين القاعدة والقيادة في كل بلد من البلاد العربية تقريباً . وعلى الجملة فقد انعكست كل تفاعلات الهزيمة على الوحدة الوطنية ، واصبحت مشكلة الوحدة الوطنية هي قضية الجبهة الداخلية الأولية والآنية .

ولحسن الحظ فان الوطنيات العربية ، بفضل رصيدها التاريخي الزاخر والهائل من التماسك والتجانس والوعي ، تجاوزت الأزمة وسرعان ما التأمت جراحها والتحمت صفوفها في وجه الخطر الخارجي . بل لقد اتخذت تلك الوطنيات من الوحدة الوطنية خط دفاعها الأخير الذي تخندقت فيه تعيد ترتيب بيتها من الداخل وتستعد للتحدي ، ومنه بالفعل قفزت قفزتها التحريرية الرائعة في اللحظة المقدورة .

وفضلاً عن هذا فلقد سجلت الوحدة الوطنية مكاسب ثورية وتقدمية محققة صنعتها في ظل النكسة وبرغمها بل وكرد فعل متحد ومضاد لها . فكانت الثورة في السودان

ثم في ليبيا ، وكذلك في اليمن الجنوبية ثم في العراق ...الخ . وكان هذا كله اعلاناً بنبذ الهزيمة ورفض نتائجها وعلامات على طريق الصمود حتى فجر النصر .

بعث اكتوبر :

الآن يأتي ٦ أكتوبر لينسخ هذه الصورة كلها ، بل وليقلب التوازنات والاوضاع جميعاً رأساً على عقب . وكما قال الجنرال بوفر « ان النجاح العظيم الذي حققه العرب في هجومهم يوم ٦ اكتوبر يكمن في انهم حققوا تأثيراً سيكولوجياً هائلاً في معسكر الخصم وفي المجال العالمي الفسيح . ويبقى عليهم بعد ذلك أن يفكروا في نتائج هذا التأثير على العالم ليحصلوا على مناصرته وتأييده » . انه أول انتصار عسكري حقيقي يحرزه العرب في العصر الحديث . أو كما قالت المجاهد الجزائرية « ان الامة العربية كلها تحس اليوم بفخر عظيم وشكر عميق لجيوش مصر وسوريا التي حققت للعرب اول انتصار لا رجوع فيه . ومهما تكن النتائج النهائية للمعركة ، فلسوف تبقى حقيقة أنها انهت مهانة ١٩٦٧ ، وجددت الكرامة العربية » .

ليس انفعالاً غير منضبط اذن او تهويلاً غير مسئول ، ولا هو من السابق لأوانه كذلك ، أن نقول ان ٦ اكتوبر يتجاوز في معناه التحريري والتاريخي ومغزاه النضالي كل أبعاده الراهنة المباشرة ، الميدانية منها والديبلوماسية ، العسكرية او السياسية ، أو غير ذلك . انما السادس من اكتوبر هو – بلغة الرسم البياني – نقطة الانعكاس العنيفة والحاسمة Point of inflection في ذلك الخط الخطأ والاتجاه النازل أبداً الذي اتخذه منحنى الصراع منذ بدأ في ١٩٤٨ وحتى الأمس القريب والى ان ينتهي بالتحرير الشامل والاسترداد النهائي للاراضي المحتلة والسليبة والمقدسة على السواء . ومن هنا يشبهه البعض بحق بمعركة حطين بالنسبة للصليبيات ، لم تكن النهاية ولكن بداية النهاية ، لم تكن التصفية نفسها هي حطين الصهيونيات . وآخرون يقولون معركة ذي قار في التاريخ العربي .

ان السادس من اكتوبر – نحن نجادل – انما هو في واقع الامر الخط الاول في خريطة سياسية جديدة تماماً للشرق الاوسط وللوطن العربي الكبير ، والخطوة الافتتاحية من خطة مستقبلية كاملة عنوانها التصفية والاسترداد والعودة ، تصفية الاغتصاب ، استرداد فردوس العرب المفقود ، وعودة فلسطين ، الشعب الى الوطن والوطن الى

الشعب . ان تاريخاً جديداً تماماً ، تاريخاً بكراً واعداً مبشراً وواثقاً الى اقصى حد ، قد كتب ويكتب حتى الآن بالدماء على الرمال ، وان مستقبلاً جديداً ليصنع الآن صنعاً بقوة السلاح وبسلاح القوة على أرض سيناء والجولان ليفرض نفسه فرضاً على « أرض اسرائيل » المزعومة . .

فاذا بدا للبعض في هذا قليل أو كثير من التجاوز أو التفاؤل ، فلنسمع معاً ما يقوله الآخرون . يقول الكاتب الامريكي ادوارد شيهان عن اكتوبر « ان هـذه الحرب لن تقيم من حيث ما حققته من نتائج عسكرية ، بل من حيث انهـا نقطة تحول تبشر بنهاية عصر التدهور العربي الذي دام اكثر من خمسة قرون » . ثم يضيف أن « هذه الحرب سوف تحتل مكانة في التاريخ العربي المعاصر ، بل ربما التاريخ العربي بأكمله. فلقد تكون لها من الوجهة السياسية والمعنوية أهميـة تضارع الفتوح العربية الاموية في العصور الوسطى وهزيمة الصليبيين ومولد القومية العربية والوطنية المصرية واسترداد قناة السويس » . او فلنقرأ ما كتبته النيوزويك في دراسة علمية وضعها اخصائيون لا يمكن أن يتهموا بالانحياز الى العرب : « لدى العرب الآن مشروعات تعميرية طموحة ، اذا تحولت الى واقع فقد يكون العرب بالفعل على مشارف عصر نهضة حقيقية » . أو ما كتبته الديلي تلجراف : « لقد غيرت الساعات الست الاولى من يوم ٦ اكتوبر مجرى التاريخ بالنسبة الشرق الاوسط كله » . أو اخيراً كما قال كريستوفر ميهيو في شهادة مقتضبة ولكنها جامعة « لقد غيرت حرب اكتوبر مجرى التاريخ العربي الحديث » .

فاذا ماعدنا لنقترب من دقائق الموقف المعاصر وتفاصيله الحية ، فماذا بالضبط فعلت المعركة؟ أولاً وقبل كل شيء لقد مزقت حرب اكتوبر ونصر العرب شبكة العلاقات والتوازنات القديمة والقائمة في العالم من حولنا ، بكل معطياتها وفرضياتها وقيودها ونذرها ، وبدأ نسيج جديد تماماً يتخلق بدلاً منها . وفي كلمة اختزالية واحدة ، يمكن أن نلخص التغيير الجذري كله في أننا (ومعنا اصدقاؤنا وأنصارنا) قد تبادلنا المواقع والمواقف مع العدو الاسرائيلي (وخلفه معسكره والمتواطئون معه) ، وطنياً كان أو قومياً أو عالمياً .

وطنيـاً

فوطنياً ، اذا كان لنا أن نبدأ بالدائرة الاصغر ومن البسيط الى المركب ، فجرت

شرارة المعركة تيار الوطنية العارمة ، صحيا قويا وغلابا . فكان نداء المعركة هو نداء الدم ، وكان نداء الدم نداء الوحدة . وفي لحظة تاريخية فذة تحول الجسم السياسي في كل قطر عربي الى كتلة واحدة صلبة متماسكة كالبنيان المرصوص ، ليس بها من الثقوب أو الثغرات الا ما أصابها من رصاص الميدان ، وغير منفذة لرصاص الدعاية العدوة اكثر مما يعد الرصاص منفذاً للماء .

نعم ، لقد تلاحمت خيوط الوحدة الوطنية ، القاعدة والقيادة ، الشعب والجيش، الجبهة الداخلية والميدانية ، كما لم يحدث قط من قبل في تاريخ الصراع . فلا شيء في الدنيا – هكذا أثبتت المعركة – كالحرب يستثير الوحدة الوطنية ، ولا شيء بعدها كالنصر العسكري يدعم ويقوي هذه الوحدة . نعم ، ان الحرب هي النار التي تصهر الوحدة الوطنية ، والنصر هو « الأسمنت » الذي يلحمها بعد ذلك ، أما السبيكة التي صبت وصقلت فخرجت من المطهر صافية نقية من كل الشوائب فهي الشعب بكل أصالته والكل هو في النهاية البوتقة العظمى المقدسة التي نسميها الوطن .

قومياً :

بالمثل قومياً . لم تكد الطلقة الأولى في المعركة تدوي حتى انطلقت الامة العربية بأسرها في مد قومي طاغ ، أذهل حتى العرب أنفسهم ، حتى أشدهم تفاؤلا ، فضلا عن الاصدقاء ، ودعك تماماً من الأعداء ، هؤلاء الذين لم يشكوا قط ولا أخطأوا الحسابات في أن قوة العرب في وحدتهم وضعفهم في تفككهم ، وأن قوتهم هم أنفسهم في ضعف العرب وتفككهم فقط ولا قوة ولا مكان لهم ان اتحد العرب . راجع مثلاً قول دايان « ان تناقضات الدول العربية سياج أمن يحمي اسرائيل » .

وحتى بشهادة الآخرين ، فان « انتصار مصر الحاسم في حرب اكتوبر » ، كما تقول صحيفة لاسويس ، « عزل اسرائيل دولياً ، في حين حقق للعرب تضامناً واتحاداً بالفعل والعمل ، وليس بالأقوال كما كان يتصور البعض خطأ » . ومن قبل كتبت النيوزويك أن « حرب رمضان جاءت بفجائية لا يعادلها سوى الأداء العسكري العربي الممتاز ، ووجد ١٠٠ مليون عربي أنفسهم وجهاً لوجه امام حقيقة عزيزة عليهم هي الوحدة . وأياً كان ، فلقد كان السبب الرئيسي لهذه الوحدة العربية هو يقيناً وقبل كل شيء ذلك النجاح العربي الذي تحقق لهم في ميدان القتال ثم في فرض الحظر على امدادات البترول » .

لقد جاءت المعركة أعظم بوتقة وأدق كشاف لحقيقة العروبة وجوهرها الأصيل، فبرزت القومية العربية حقيقة واقعة ملء السمع والبصر والوجدان – والميدان أيضاً . فلقد ألهبت المعركة خيال العروبة وفجرت كل طاقتها الكامنة وجسمتها قوة محاربة فدائية واحدة . فتنادت كل الدول العربية الى ساحة المعركة منذ اللحظة الأولى ، والقت كل منها بكل مواردها وامكانياتها وثقلها في الميدان ، رجالاً وسلاحاً ، مالاً وبترولاً . فتلاشت كل الحساسيات والحسابات القديمة ، وانفكت العقد الوهمية والتحفظات ، تقاربت كل الانظمة والمذاهب ، ذابت دول المساندة في دول المجابهة ، وانصب المغرب في المشرق . (راجع في هذا ، على سبيل المثال فقط ، ماقالته النيوزويك من انهم الآن في لبنان يقولون انهم عرب ، بينما كانوا قبل ٦ اكتوبر يتحدثون عن الفينيقية ..)

وبهذا أيضاً توسعت حركة التحرير الوطني مع معركة التحرير الوطني جغرافياً ونضالياً وفكرياً لتتحول من مجرد أزمة الشرق الأوسط « اللفانتية » الى قضية العروبة بأسرها من المحيط الى الخليج . وفي هذا الاطار برزت ليبيا وهي عمق استراتيجي فعال ومثمر جداً لمصر ، بالسلاح والمال والبترول كوقود ، وكطريق وكميناء بديل أمين..الخ مثلما برز العراق عمقاً استراتيجياً ضخماً ومسانداً مقتدراً لسوريا ، وليس فقط بتأمين ظهرها وظهيرها وفتح طريقها ولكن أولاً وقبل كل شيء بسلاحه ورجاله . وكما قدمت السعودية مشاركة بترولية ومادية ومعنويةعظيمة باذلة وباذخة ، سياسياً ومالياً بل وسلاحاً وجنوداً ، قامت الجزائر الثائرة بدور قيل اكثر من رائع عسكريا وسياسياً واقتصاديا. كذلك فعلت بقية دول المغرب ، ومن قبلها الكويت ودولة الامارات العربية وسائر دول الخليج . بالمثل قدمت اليمن الشعبية والشمالية معاونة استراتيجية قيمة في حصار باب المندب بحريا . ومن الناحية المادية البحتة ، على سبيل المثال فقط ، اذا كانت دولتا المواجهة قد صبتا في المعركة مالا يقل بحال عن العشرة آلاف مليون جنيه وذلك عبر سنوات الاعداد لها ، فقد شاركت دول المساندة بنصيب كبير في دعمها قدرته بعض المصادر الخارجية بنحو الثلاثة بلايين دولار ، فضلاً عن بليون رابعة بعد ذلك .

لقد اندمج الجميع في جبهة حرب واحدة طولها القومية وعرضها الوحدة ، وتحققت جماعية القيادة ، وبدأ قادة العرب كما لو كانوا « فرسان المائدة المستديرة » . وبعد ان كنا نعيش « اوتعاني » معركة القومية ، عايشنا قومية المعركة . في الجبهة السورية كانت القوات العراقية والمغربية والسعودية ثم الاردنية تحارب مع الجيوش

السورية المستبسلة والقوات الفلسطينية الفدائية . وفي الجبهة المصرية شارك السلاح الجزائري والليبي فضلاً عن قوات رمزية من السودان والكويت والمغرب .. الخ . حتى بعض الدول العربية وزعت قواتها الرمزية على كلتا الجبهتين . انها وحدة الدم تختلط بوحدة التراب على خط النار .

وخارج جبهة القتال والى جانبها ، فتحت جبهة البترول ، فبدأت دول البترول العربية حرباً حقيقية ، حرب البترول . بإرادة ذاتية ودون ضغوط من الاشقاء بدأتها فكانت عونا لنا وعوانا على الاعداء وانصاف الاعداء وارباع الاصدقاء من ادعياء الحياد واللامبالين أو المتعاطفين مع العدو سراً ، ألسنتهم مع العرب وأسلحتهم مع العدو . ولا زالت المعركة مستمرة . وهي اذا كانت تحتاج وحدها الى وقفة خاصة مفصلة ، فان مايعنينا منها هنا هو مغزاها القومي الكبير العام : مامعناها ؟ ومعنى وحدة العمل العربي؟ علام يدل هذا كله ، والى أين يؤدي ؟

بغير مقدمات مطولة ، هناك ثلاثة معان . أولاً ، ان القومية العربية حقيقة واقعة ارتفعت الى مستوى المعركة مثلما ردت هذه لها اعتبارها . لقد أعادت المعركة خلق العالم العربي ، وخلقت منه « عالماً جديداً شجاعاً » . الحرب أثبتت وحدة العرب ، وحققت العرب وحدة الحرب . وهي وحدة عسكرية وسياسية ، وأيضاً اقتصادية واعلامية ، أي وحدة واقعية تتجاوز كل مشاكل الوحدة الدستورية ولكنها تكاد تتجاوزها عملياً في التنسيق والتضامن والتنظيم » وعلى هذا الأساس تقدم التفاعل العربي في ظل المعركة ، كما لوحظ ، من وفاق عربي الى تضامن عربي الى وحدة عربية ، ومن بين الكل خرجت « القوة الذاتية » العربية وهي القاعدة الأساسية والاصولية في المعركة والصراع جميعاً .

ولقد تجلى هذا — بالمناسبة — ابلغ ما تجلى في مؤتمر القمة بالجزائر ، أول مؤتمر عربي منتصر منذ بدأت مؤتمرات القمة ، وأول مؤتمر ناجح لا فاشل ، وهجومي لا دفاعي . كذلك بدا الوطن الكبير أثناء المعركة وبعدها ، ولكن أساساً من خلالها ، بدا أشبه « بكومنولث عربي » تلقائي ، وربما قال البعض « اتحاداً كونفيدرالياً » دون الاسم والشكل . ولا ينفي هذا بطبيعة الحال وجود بعض صعوبات واختلافات ، الا انها ثانوية وعارضة وضعتها المعركة على الرف مؤجلة أو مجمدة . ولا شك كذلك أنها ظاهرة ذات دلالة هامة ان جامعة الدول العربية قد بدأت مؤخراً في مراجعة نظامها الأساسي والتفكير جدياً في تعديل وتطوير كيانها الى مستوى أعلى يتلاءم مع التطورات الضخمة التي أحدثتها المعركة في الصف العربي .

المعنى الثاني للموقف العربي ان البترول أثبت نفسه سلاحاً سياسياً من الدرجة الأولى وسلاحاً قومياً في الدرجة الأولى : لقد نجحت المعركة نهائياً في « تسييس » البترول بعد ان كان ذلك أملاً بعيداً بل مستبعداً جداً في نظر البعض . وقد تحقق هذا بفضل جهود دائبة وصامتة في مجال العلاقات الثنائية . وبطبيعة الحال فلقد كانت هنا أيضاً صعوبات ومشاق في التخطيط والتنسيق والتنفيذ ، ولكنها كلها توارت خلف الدفع القومي الباهر . ومن الواضح ان سلاح البترول لم يكن ليسبق منطقياً وعلمياً السلاح العسكري ، بل كان لابد للأخير ان ينطلق ويعمل قبل ان يشرع الاول ليعمل على الفور . لقد كان توزيع الادوار هنا أيضاً بحسب ترتيبها . وهكذا بالفعل كان .

ويبقى أخيراً معنى ثالث لايقل دلالة وخطراً . لقد مارست مصر دورها الطبيعي والطليعي في قيادة الصراع وادارته بالعمل الهادىء الفاعل وبانكار الذات دون ادعاء فظ غليظ منفر . فمصر ، التي قدمت نحو ١٠٠ الف شهيد وانفقت نحو ١٥ الف مليون جنيه على مدى ٢٥ سنة منذ بدأ الصراع العربي – الاسرائيلي ، حشدت لمعركة اكتوبر وحدها ١٠١ مليون جندي تحت السلاح لمواجهة كل الاحتمالات . وهذا بالتأكيد أضخم حشد عسكري محلي عرفته منطقة الشرق الأوسط في تاريخها الحديث وربما القديم . وبهذا العطاء الذي لاحد له ، ارتفعت الى مسؤوليتها التاريخية ككلمة العروبة ، واضعة قدرها على كتفها وقلبها على يدها ، فالتف العرب حولها مبايعين مزكين ، واستعادت هي حجمها الطبيعي بينهم – ثلث العرب – واستردت مكانتها التي اهتزت حيناً بالهزيمة ، وفي الوقت نفسه وفرت لكل منهم دوراً مشرفاً وبناء . لقد كانت معركة اكتوبر بالنسبة لمصر بين العرب كثورة اكتوبر بالنسبة للاتحاد السوفيتي بين السلاف ، وخرجت منها وهي « كروسيا العرب » لا « كبروسيا العرب » كما كان الاستعمار يزعم ويردد تزييفاً وتأليباً . ومن الناحية الأخرى أثبتت مصر ٦ اكتوبر ان الزعامة السياسية الحصيفة الرشيدة انما هي فن توزيع الأدوار ، لا احتكار الأدوار ، هي أولوية بين أكفاء primus inter pares

عالمياً

إذا انتقلنا اخيراً الى المستوى العالمي ، فماذا فعل ٦ اكتوبر بالعرب والعرب ؟ أول شيء أن الحرب كشفت عن مفاجأة مذهلة : نحن أقوى مما كنا نحن نظن ، ومما كان أعداؤنا يتصورون ، بل وكذلك اصدقاؤنا ! في ساعات انهارت كل الافكار المسبقة المهينة

والنظريات المشبوهة الموضوعة (وغير الموضوعة) لتشويه وتحطيم العالم العربي سياسياً ومعنوياً ونفسياً ودعائياً . ثم في أيام فقط كانت الصورة كلها قد انقلبت بطناً لظهر .
ونستطيع هنا أن نقدم دراستنا الى عنصرين : الانسان العربي والسياسة العربية ، أو المقاتل العربي والدولة العربية .

الانسان العربي المقاتل

فقد كان أول ما أثبتته المعركة أن الانسان العربي مقاتل ، مقاتل ممتاز ، شعب محارب قادر على قبول التحدي وعلى تحدي العصر ، وفي الوقت نفسه نسفت كل دعايات العدو المغرضة عن « الشعب غير المحارب » و « الجندي الذي لا يجيد الا الفرار عند أول مواجهة » و « الانسان غير القابل للتعلم وغير القادر على استيعاب فنون الحرب الحديثة » .. الخ . لقد اعادت المعركة ثقة الانسان العربي في نفسه كمحارب ، وأعادت تقدير العالم واحترامه له عسكرياً ، كما اعادت بعث العسكرية العربية في أشرف صورها وأكثرها إشراقاً . وفي هذا قالت التايمز « ان العرب حققوا الانتصار ، وبرهنوا على أن قواتهم تستطيع أن تقاتل وأن تستخدم الاسلحة المعقدة بنجاح كبير ، كما أن القادة العرب أثبتوا أنهم يقودون ببراعة » . بل وكما اعترف عالم نفس اسرائيلي « لم تعبر العرب السويس فقط ، بل أنهم حاربوا جيداً ايضاً ولم يفروا . وقد بددوا الادعاء الاسرائيلي بانه لا يمكن لأى قدر من العلم أن يحسن قتال العرب» . لقد تذكر العالم فجأة، كما قالت صحيفة غربية، أن العرب فتحوا أوربا من قبل وغزوا العالم وأسسوا امبراطوريات وهزموا الأتراك وهددوا الاستانة ..!

ومن رواية القدرة التكنولوجية ، لدينا أكثر من شهادة محايدين وغير محايدين . فقد كتب درو ميدلتون « لقد أكدت عملية العبور المصرية للقناة أن تلك القوات قد تطورت تكنولوجياً منذ ١٩٦٧ ، وأثبتت تلك العملية أن المصريين قادرون على الابقاء على السر ، وأن في وسعهم بعد ما حققوا من مفاجأة ونجاح أن يتصرفوا في انضباط» . كما أضاف أن « جميع التقارير التي وصلت الى مصادر غربية تشير الى أن الجيوش العربية تقاتل بعناد وحماسة. وكانت القيادة على مستوى الكتائب والاسراب من مستوى مرتفع، كما كانت القيادة العامة تتسم بالفطنة والحكمة » .

هذا بينما قالت الاوبزرفر « منذ عام أو عامين كانت اسرائيل تبدو متقدمة في

سباق التكنولوجيا العسكرية .. وقد تنبه المصريون فيما يبدو – خلال حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩ – الى أهمية الدور الذي تلعبه التكنولوجيا في القتال .. ويبدو الآن ، وبعد معارك أكتوبر ١٩٧٣ ، أن مصر قد لحقت باسرائيل وسبقتها تكنولوجياً في ميدان الصواريخ والالكترونيات » .

وبصيغة حاسمة أيضاً قالت الجارديان « لقد برهن الجيشان المصري والسوري على أنها أفضل تدريباً وأحسن تشكيلا واستعداداً وأشد جلداً وأفضل عناداً ». أما النيوزويك فقد كتبت في نهاية الحرب قائلة ان الروح القتالية العاليـة والأسلحة الحديثـة التي لدى الجيش المصري كانت وراء الخسائر العالية في الأرواح التي يصعب على اسرائيل تحملها، فضلا عن أنها « أفقدتها توازنها » . ثم أضافت أن الشراسة العربية في القتال لم تقدر حق قدرها منذ بداية الحرب ، كما أن وجود عدد كبير من الكفاءات العربيـة وراء خطوط القتـال جعل من المستحيل أن يتعرض العرب لنقص في الرجـال . « وحتى ثقـة الاسرائيليين في أن لديهم تفوقـاً تكنولوجياً واضحـاً على العرب في مجال السلاح قـد سقطت « مثل الطائرات » بفعل النجاح العربي الملحوظ في استخدام الأسلحة المضادة للطائرات والدبابات » .

حتى العدو نفسه اعترف . مثلا آرى يعرى ، عضو الكنيست الاسرائيلي ، قال ان حرب اكتوبر بمدتها ومعاركها وعدد ضحاياها قد أثبتت مدى التقدم الكبير الذي أحرزته القوات العربية وقدرة مقاتليها على استخدام الأسلحة الحديثة المتطورة والمعقدة . هذا بينما كتبت معاريف في حقد ولوعة « لقد سبقت السلحفاة العربية الأرنب الصهيوني » . حتى قادة العدو لم يملكوا الا أن يعترفوا . « كان الجندي المصري يتقدم في موجات بعد موجات . وكنا نطلق عليه النار وهو يتقدم ، نحيل ما حوله الى جحيم ويظل يتقدم ، وكان لون القناة مخضباً بلون الدم ومع ذلك ظل يتقدم » – هكذا تكلم جونين مهندس الهزيمة المباشر . اما من خلف الخطوط فقد جاء صوت الجنرال أوزى ناركيس المشهور بتعليقاته العسكرية ليسلم بأن « لا مفر من أن نشهد لجهاز التخطيط المصري بالبراعة . لقد كانت خططهم دقيقة ، وتنفيذها أكثر دقة . ولقد حاولنا جهدنا اعاقة عملية العبور وردها بالقوة على اعقابها ، غير أننا ما كدنا نتمثل ما حـدث الا وكانت نتائجه قد تحققت لهم ، كأنما أغمضنا أعيننا وفتحناها فاذا هم قد انتقلوا تحت النار من غرب القناة الى شرقهـا ، وفاجأونا صباح ٧ اكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الضفة

الشرقية من القناة » . وأخيراً هناك اعتراف آلون : « ليس هناك وجه للمقارنة بين المعارك التي خاضها المصريون في اكتوبر والمعارك التي خاضوها من قبل ، حيث كان واضحاً حرصهم على عدم تكرار الأخطاء السابقة الى حد ان كلمة «الانسحاب » اختفت تماماً من القاموس المصري » .

أما من المحايدين فان الجنرال بوفر يلخص لنا الموقف كله في جملة مركزة ولكنها جامعة : « لقد دخل العرب مدرسة الحرب الحديثة ، وبنجاح » . وفي مناسبة اخرى تراه يقول ، في شهادة واقعية بعد زيارة لميدان المعركة وما رآه حوله ، ان العرب قد حاربوا « بأكفأ مستوى يعرفه العصر » . والواقع ان تجربة المعركة اثبتت أن التفوق الكمي العربي آخذ في التحول تدريجياً الى تفوق كيفي أيضاً ، وان التفوقين ، هذا وذاك، هما بسبيلهما الى الانتقال نهائياً الى العرب . او كما قال ديفيد اليعازر « لقد فوجيء الجيش الاسرائيلي بأن الكم المصري قد تحول الى كيف » . وفي هذا أيضاً كتب آري يعري يقول ان التقدم العربي في الكيف يضاف الى المزايا الهائلة التي يتمتع بها العرب من حيث الكم ، ثم ينتهي الى أن هذا يدعو الى تغيير النظرية القائلة بأن اسرائيل يمكنها بتفوقها في الكيف أن تضرب العرب في كل جولة جديدة .

واخيراً يصل بنا احد المعلقين العسكريين البارزين في الغرب الى قمة الشهادة ، وكذلك منتهى النبوءة ، فيقول « ان الطريقة التي حارب بها الجندي العربي في ١٩٧٣ ضربت التفوق الاسرائيلي المطلق . وتلك كانت واحدة من كبرى حقائق الجولة الرابعة بين العرب واسرائيل . وهي على هذا الاساس نذير شؤم لاسرائيل في الجولة الخامسة ، ونذير كارثة في السادسة ، وقد تكون نهاية كل شيء في السابعة » .

والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من كل هذه الشهادات والمؤشرات هي أن المعركة قد أثبتت ، اول وآخر واخطر ما اثبتت ، الروح القتالية العالية المندفعة والكامنة في الجندي العربي ، واكدت فدائية المقاتل العربي واستبساله واقدامه بلا تردد ، لاينكص ولا يتراجع عن تحقيق هدفه مهما كان السلاح الذي يواجهه . ليس هذا فحسب ، اذ اثبتت المعركة ايضاً قدرة المقاتل العربي على استيعاب أعقد الاسلحة الحديثة والمتطورة والسيطرة عليها بكل كفاءة واقتدار وتطويع التكنولوجيا وتكييفها والتكيف معها والتعامل بها على كل المستويات . كذلك الأمر مع فنون القتال ، التخطيط ، التنفيذ ، المناورة والحركة .. الخ . فعلى سبيل المثال ، اثبتت المعركة خطأ الاتهام الذي روجه

العدو عنا من أن العرب لايجيدون القتال إلا من المواقع الثابتة ، فأكدت للعالم تقدمهم بنجاح تام من القتال الثابت الى القتال المتحرك . كذلك أثبتت قدرة الدبابات المصرية والسورية المتفوقة على القتال الليلي ، على عكس الجولات السابقة ، وبالمثل سلاح المشاة المصري، بينما يشترك مشاة اسرائيل في اي قتال ليلي تقريباً رغم تدريبهم عليه .

وفي هـذا كله وغيره نسخت الحرب ونسفت الى الابد كل الاساطير والدعايات الشوهاء ، الظالمة والكاذبة ، التي ركز العدو عليها كل جهوده وأبواقه لالصاقها بالمقاتل العربي ونوعيته ، اولا لتثبيتها في نفسيتـه هو ثم ثانياً لترسيخها في عقلية العالم . (أو كما عبر كاتب أوربي كبير بقلق أكـبر « ان ما هو خطير في تدمير خط بارليف وحصون الجولان ليس تحرير جزء من التراب العربي المحتل ، وانما هو في تدمير صورة ثابتة عن الانسان العربي كانت رائجة عندنا ») فتلك الاساطير والاكاذيب ، التي خرجها العدو من تجارب الماضي ودلل عليها بها ، لم تكن تقوم على أي اساس من الحقيقة أو الواقع كما يدرك هو في قرارة نفسه . فكل تجـارب الماضي لم تكن اختبـاراً لقدرة وطبيعة المقاتل العربي كفرد او كمجموعة بقدر ما كانت سجلا لاخطاء القيادات المهزوزة غير الناضجة أو غير المؤهلة .

فمن الثابت المقرر ، كما عبر احد كبار العسكريين المصريين اثناء اكتوبر ، ان « حرب ١٩٤٨ كان فيها فقط بعض المواجهة ، وحرب ١٩٥٦ قليل من المواجهة ، وحرب ١٩٦٧ لا مواجهة تقريباً » . الحرب الرابعة ، وحدها ، كانت اول اختبـار حقيقي ميداني حاسم لنوعية المقاتل المصري والسوري كجندي محارب . وفي هـذا الاختبار الأول، بقدر ما تحطمت خرافة العسكرية الاسرائيلية وانكشفت حقيقة المقاتل الصهيوني ، بقدر ما أثبت هو نفسه ووجوده وتفوقه بـلا حدود . أو كما قال معلق عسكري غربي ، استرد اعتباره وشرفه العسكري ، وهذا تطور بالغ الخطورة والدلالة، له ما بعده في المستقبل ، مستقبل الشرق الاوسط كله .

حتى العدو نفسه تغيرت نظرته الى الانسان العربي والمقاتل العربي ، واعترف . أو كما ذكر تيرنس سميث « اصبح الاسرائيليون من الجندي الذي يقف على خط النار الى الوزير في الحكومة ينظرون الى العرب نظرة مختلفة بعد حرب رمضان » . أو كما كتب أريك رولو،ان الاسرائيليين ما عادوا يستخدمون التعبير العبري الشائع« أرافيت زي أرافيت » (أي العربي لايعدو أن يكون عربياً) والذي يمثل قمة التهوين من شأن

العرب بل والتحقير لهم . واصبحوا الآن يقولون « لقد اجبرنا العرب بالقوة على احترامهم ! اننا نعرف الآن ان في استطاعتهم ان يكونوا على نفس القدر من الشجاعة ، وان في امكانهم استيعاب الفنون العسكرية الحديثة » .

بل الواقع أن من أطرف نتائج أكتوبر وأكثرها مدعاة للتفكير أن العدو نفسه لم يعترف فقط بكفاءة وندية المحارب العربي في تلك الحرب ، ولكن أيضاً « بأثر رجعي » عام على حروب الماضي ! لقد « أعاد اكتشاف » حقيقة معدن المقاتل والانسان العربي — فقط متأخراً ربع قرن ! انظر مثلاً ما كتبه الجنرال متتياهو بيليد في معاريف: « من الواضح حتى الآن أن الجندي المصري يظهر روحاً قتالية قوية ، ولم يفقد إرادته على مواصلة القتال . اننا نعرف هذه الظاهرة جيداً، منذ حرب ١٩٤٨ ، وخلال حرب سيناء كذلك في ١٩٥٦ . لم تكن قليلة الحالات التي حارب فيها الجندي المصري حرباً عنيدة . في المعارك الدفاعية وفي جميع الحالات كان المصري موجوداً في تجهيزات محمية يعرفها ، ولم يفاجأ بالهجوم عليه . واذا لم يحدث انهيار في الجيش ، ولم تتولد ظروف جديدة لا يلم بها الماماً تاماً ، فانه سيستمر في تنفيذ مهمته بإخلاص . وهذا ما يحدث الآن في جبهة القناة » .

أو انظر الى ما كتبه المدعو ثيدي برديس في دافار : ان الثغرة بين التوقعات والواقع الذي نشأ هذه المرة تكمن في الحقيقة التي نسيناها ، وهي أن العربي لم يكن خلال الاعوام الخمسة والعشرين الماضية مقاتلاً رديئاً ، بل قاتل بشجاعة وتصميم . الا أن اصحاب شعار « هذه ليست لعبتهم » طمسوا هذه الحقيقة وشوهوها . كذلك فانهم تناسوا نتائج الأبحاث السيكولوجية على الأسرى المصريين ١٩٦٧ ، تلك التي كانت بعيدة تماماً عن الاستهتار بالجندي المصري ، الذي وجد أنه يتمتع بقوة تحمل كبيرة وكفاية جسمية جيدة وروح هجومية . ثم عدد الكاتب حالات من الصمود المصري النادر نسيت بسبب « الاقوال المجرفة والتعالي التي كانت تصدر عن القادة والسياسيين » جيب الفالوجا ١٩٤٨ ، نموذجاً لقوة صمود المصري المحاصر ؛ صمود أبو عجيلة ١٩٥٦ ، حيث اضطر الجيش الاسرائيلي الى العمل ٣ أيام لاختراقهم (« ١٠٠ ساعة في الوحل ») ؛ شجاعة ومهارة المصريين في الاغلاق المتتالي للثغرات التي كانت قوة اسرائيلية مختارة تحاول شقها على مفترق طرق رفح في ١٩٦٧ .. الخ .

الدولة والسياسة العربية

ذلك كله عن الانسان العربي كرجل محارب بين انسان العالم . أمـــا من الناحية السياسية العالمية فان الانقلاب لايقل خطراً ولا مغزى . وهو في الواقع مترتب مباشرة على الانقلاب الحربي . فلأول مرة تخرج عرب ٦ اكتوبر وهم صنعة التاريخ بعد أن ظلوا طويلاً لعبة التاريخ ، وتحولت المنطقة من منخفض سياسي الى منطقة ضغط سياسي مرتفع مؤثر وفعال ، ومن اقليم جيوبوليتيكي سالب الى اقليم موجب يسام اليوم جدياً في تشكيل التوازن العالمي وتضاريس السياسة الدولية . باختصار ، اصبح العالم العربي فاعلاً بعد ان كان مفعولاً به بانتظام أو مجرد رد فعل على أفضل تقدير . ولأول مرة في تاريخها الحديث تقريباً ، اصبح العالم العربي عاملاً هاماً في تحقيق التوازن السياسي في المنطقة ، ان لم يكن الاساسي ، ولا نقول الوحيد . ولأول مرة يصبح مصير المنطقة معلقاً بقواها الداخلية وارادتها الذاتية أكثر مما هو متعلق أو مرتبط بعوامل وقوى من خارجها . ولاول مرة كف العالم العربي عن أن يكون لعبة السياسة الدولية المفضلة ، بما في ذلك الاستقطاب أو الوفاق . وعدا ذلك تم تصحيح ميزان القوة الذي كان قد اختل بوضوح في غرب آسيا وتم وضع حد للاستراتيجيات الاقليمية المضادة بها ، بل لقد غيرت المعركة ميزان القوة في قارة آسيا عموماً .

ليست اسرائيل وحدها اذن التي ردت الى حجمها الطبيعي ، العرب أيضاً ، بل العرب أكثر ، والاكثر في المستقبل . لقد انقلبت كفتا الميزان بينها ، أو بالاصح عادتا فاعتدلتا وصححتا . وكما قالت جريدة انجليزية مؤخراً « شيء واحد مؤكد الآن ، ان العرب اصبحوا في الوقت الحاضر في مركز تفاوضي أقوى بكثير مما كانوا عليه ..وان اسرائيل قد اصبحت في مركز أسوأ بكثير مما كان العرب أو أحد يعتقده ممكناً قبـل بداية الحرب » . وحتى اولئك الذين يشككون في النصر العسكري العربي او يقللون منه ، لايملكون ان يشككوا في نتائجه العالمية السياسية والنفسية او ان يقللوا منها . مثلاً كتبت مجلة تايم في حديث لها مع الرئيس المصري « ان المؤرخين سوف يتجادلون طويلاً حول ما اذا كانت الجيوش المصرية قد احرزت بالفعل انتصاراً عسكرياً في حرب اكتوبر . ولكنهم ــ على الأرجح ــ لن يختلفوا حول الرأي القائل بأن نتائج الحرب قد أعادت للعالم العربي قدراً من الثقة بالنفس كانوا في أشد الحاجة اليه وكان غائباً عنهم منذ الهزيمة المهينة في عام ١٩٦٧ » .

وليس أدل على الهيبة الدولية الجديدة والمكانة المرموقة التي حققها عرب اكتوبر من نظرة العالم الجديدة اليهم . فبدل الاشفاق والرثاء الممزوج بالاستخفاف ان لم يكن ماهو أسوأ ، حل الاحترام والتقدير الذي لايخلو ايضا من اعجاب . أو كما ذكرت ورقة أكتوبر « لقد رفعت حرب اكتوبر من شأن العرب جميعا ، وأصبح العالم كله يعترف بالوجود العربي وبدور العرب ويعمل على كسب ودهم » . أو كما كتبت النيوزويك «الزمن تغير فجأة . تبدلت نظرة العالم الى العرب ، وأصبح ينظر اليهم بكل الجدية ، بعد طول معاملة لهم على أنهم شعوب همجية ودول متخلفة. وبالمثل بدأ العرب ينظرون الى انفسهم على ضوء جديد » . بل ان قطاعا كبيرا من العالم ، وخاصة من العالم الثالث ، أصبح يتطلع الى العرب ويرنو ساعيا الى التقارب معهم .

وعدا هذا فلا يكاد يمضي يوم منذ اكتوبر دون أن يزور سياسي قيادي او وفد كبير من دولة ما من دول العالم دولة عربية او اخرى ، بينما تتجول الوفود العربية بدورها بكثافة على اتساع العالم لتقابل بالترحيب والاحترام . أما عروض القروض والمعونات ومشاريع التنمية والمشاركة في التعمير فلا تكف عن التدفق تباعا من كل الجهات . وهذا كله صورة مرآوية مقلوبة أخرى لما حدث في اعقاب يوليو ، حين كان الكل في « زيارة للمنتصرين » وكانت الاموال تنهال على اسرائيل بغير حساب . . لقد اصبح العالم العربي بوضوح بؤرة اهتمام العالم ومحط انظاره كقوة ضاغطة مؤثرة فيه لها وزنها وتقديرها . وورث العرب مكان اسرائيل السابق في قلب العالم وعقله .

وحسبنا في هذا الصدد ان نشير مثلاً الى مؤتمر القمة الاسلامي الثاني الذي عقد في لاهور اخيراً تقديراً ومساندة من العالم الاسلامي لقلبه العربي . فعلى العكس من المؤتمر الاول الذي عقد في الرباط منذ ٤ سنوات في ظل الهزيمة ، جاء المؤتمر في ظل النصر فكان نجاحاً كاملاً . وكما جاء المؤتمر دفعة معنوية كبيرة للعرب ، كان تأكيداً لانتصارهم ولنفوذهم المتعاظم في العالم بعد النصر . وبالمثل كان دور العرب وخاصة مصر في تحقيق التصالح والتقارب بين الباكستان وبانجلادهش داخل المؤتمر دليلاً على مكانتهم المرموقة في العالم الاسلامي .

وعلى الجانب الآخر ، جانب العدو ، جاء المؤتمر ضربة سياسية أخرى ومزيداً من الحصار . اقرأ مثلاً ما كتبته هاتسوفيه صحيفة الحزب القومي الديني في اسرائيل

« ان نداء تحرير القدس الذي وجهه مؤتمر لاهور يأتي في وقت اصبح العالم الاسلامي فيه اقوى من الناحيتين السياسية والاقتصادية بصورة لم تحدث منذ أربع سنوات » (حين عقد مؤتمر الرباط) . أو اقرأ ما كتبته معاريف : « لقد أوضح مؤتمر لاهور تماماً التناقض بين الواقع الذي يحيط بنا والواقع الذي نعيش فيه وبين الوحدة المتزايدة للعالم العربي والفرقة التي تنهكنا » .

ليس هذا فحسب . بل ان العالم العربي نفسه « يتوسع » الآن بصورة لافتة ولا يمكن أن تكون بلا مغزى . فليس من الصدفة وحدها على الارجح أن يتم انضمام دولتين من افريقيا ، موريتانيا والصومال ، الى الجامعة العربية في وقت واحد تقريباً قبيل وبعد انتصار اكتوبر مباشرة ، كأنها جميعاً على ميعاد . لقد اتسعت جغرافية العروبة كما ارتفعت قامتها .

ويسترعي الانتباه هنا ، كما يستدعي التفسير بالحاح ، ان تنبثق كل هذه الانطلاقة والطفرة الايجابية من امة قيل عنها بالامس فقط انها قد اصيبت بتصلب الشرايين ، ان لم يكن بالشيخوخة المبكرة او القديمة . فكيف نعلل هذه المتناقضة اذا كانت صحيحة ، وان صحت فالى اي حد ؟ وما هو التشخيص او التكييف العلمي الدقيق لهذا التطور ؟ الاجابة تكمن في دورة حياة الجيوبوليتكية كما وضعها العالم الجغرافي فان فالكنبرج ، تلك التي تحدد مراحل تطور الدولة كجسم سياسي وككائن عضوي بمعنى ما في أربع :مرحلة النشأة أو الطفولة التي تنطوي فيها الدولة على نفسها ترتب بيتها من الداخل وتحمي حدودها في الخارج ، ثم مرحلة الشباب أو التوسع وفيها تنطلق الى دور خارجي ايجابي اما من التوسع او فرض النفوذ ، ثم مرحلة النضج او الاستقرار حين تكون قد وصلت الى أوج القوة ولا تريد إلا المحافظة على الوضع الراهن والتوازنات القائمة ، ثم أخيراً مرحلة الشيخوخة او الانهيار التي تعجز فيها عن المحافظة على نفوذها أو حدودها فتبدأ تفقد منها تدريجياً حتى تنكمش وتتقلص وربما سقطت لتقوم دولة جديدة تبدأ دورة جديدة ، وهكذا .

والدول العربية كنظم سياسية معاصرة تعتبر ، ابتداء ، دولا حديثة في مرحلة النشأة ، لأنها رغم عراقتها التاريخية الألفية انما بدأت دورة جيوبوليتيكية جديدة

بالأمس القريب فقط حين تحررت من الاستعمار الأوربي واستكملت استقلالها النهائي منذ ٢٠ سنة أو ١٠ سنوات على الاكثر أو في المتوسط . وبعض هذه الدول كمصر وسوريا والعراق كانت تزحف حثيثا نحو مرحلة الشباب وقد انطلقت بالثورة والتنمية ، والبعض الآخر كان على الطريق بفضل ثورة البترول وثروته الدافقة كالسعودية وربما الجزائر وليبيا . . . الخ . ولكن هزيمة يونيو ردت اكثر هذه الدول الى الخلف كثيرا ، رغم انه كان وضعا الوقتا معلقاً بالضرورة . وهنا يأتي دور اكتوبر : انه بالدقة والتحديد قد « جدد شباب » العرب جميعا ، وبدأ مرحلة جديدة من « تجديد شباب » الدول العربية Political rejuvenation ، وخاصة منها دول المواجهة والطليعة . وهذا هو المعنى الاول والمباشر لاكتوبر في الكيان الدولي العربي . انه بداية مرحلة جديدة في المورفولوجيا السياسية للدول العربية .

ومن هذا المنطق والمنطلق بالتحديد فرض العرب على العالم واحدة بل سلسلة من اكبر واخطر « المتغيرات » في السياسة الدولية بعد أن كانت مصايرهم رهنا بالمتغيرات الدولية تتقاذفها وتعصف بها دون ان تملك هي من أمرها شيئا . لقد كان الجميع يتحدثون طويلا وكثيرا عن المتغيرات الدولية قبل اكتوبر ، فأصبح اكتوبر هو أبرز المتغيرات الدولية وأقواها أثراً . وكان أوضح تعبير عن هذا هو بروز « شخصية دولية عربية » على المسرح العالمي .

رمضان

رؤية أم رؤيا ؟!

الدكتور شكري فيصل

- ١ -

ماذا بين رمضان ورمضان ؟.. ما الذي تحقق وما الذي أخفق ؟. وما الذي كان يجب أن يتصل ، وما الذي كان يجب ان ينقطع ؟.. أنحن على الطريق أم نحن على حواشي الطريق ؟.. أكان رمضان حلم الحالم وخلسة المختلس ؟. هل توقف « رمضان » في حياة الجماعة العربية ؟.. هل استطاع أن يعمق مجراه ؟.. أكان نبعة ماء ثم جف النبع ؟.. أكان دفقة ضوء ثم أخذ يصطرع الضوء والظلام ؟..

ما هو هذا الحديث عن رمضان والحنين اليه واقعاً ، والحنين اليه أملاً ؟.. وهل كان رمضان ، في عقولنا واذهاننا في حجمه الطبيعي ، أم كان دون ذلك ، أم كان فوق ذلك ؟.. واذا نحن تجاوزنا الماضي فأين نحن من رمضان الذي اتخذ في حياتنا صورة الرمز الذي تعلق عليه الاشياء وتتعلق به الاشياء ؟

ما الذي يدور في ضمير الركب العربي وحركته ؟ وما الذي يقع في سيرته ومسيرته؟.. أهو رمضان جديد أم هو محاولة اعتصار رمضان السابق؟.. وكيف تتكيف الحياة العربية المعاصرة ؟.. أهي تسير في اكتناز القوة الجديدة أم هي تسير في عرق ما بقي على العظم ؟

وبتعبير آخر ، ما هي هذه الصلات بين رمضان ورمضان ؟.. أهذه الصلات نسيج متصل ينمو وينمو ، تقوى خيوطه وتبرز أصباغه وألوانه .. أم هي نسيج يستل منه الخيط بعد الخيط حتى ينتهي ؟.

ما هو طريقنا إلى أن تتشابك من جديد هذه الخيوط لترسم العلم الواحد الذي يخفق على الأفق العربي كله ؟.. كيف نستثمر البداية الصالحة حتى تكون بداية حقاً .. لها قدراتها المتدفقة على أن تتتابع وتتصل في تواتر فتزايد ؟.

عشرات ومئات من الاسئلة ، كانت خلال عام كامل تتوارد على الأذهنة وتلوب على الشفاه .. على طول هذا الوطن العربي وعرضه .. في مثل تعداد سكانه عدداً ، وفي مثل هموم أبنائه تنوعاً ، وفي مثل ذبول واقعه خفوتاً ، وفي مثل سطوع أمدجبارة .. انها أسئلة تتنوع أشكالاً وصوراً وألواناً .. ولكنها تظل ، على تنوعها الذي لا ينتهي ، تدور حول محور واحد ينتظمها .. هذا المحور هو جملة الاهتمامات العربية كلها في مجالات الحياة كلها : من الكرامة إلى الخبز ، ومن المثل الأعلى الواقع ، ومن الحضارة التي كانت إلى الاسهام الحضاري الذي نتوقع .. من أعماق الماضي إلى آفاق المستقبل .

فهل عجب إذن أن تتنوع الأسئلة وأن تتكاثر؟.. هل عجب إذن أن تلح وأن تلج؟

- ٢ -

لعله لم يكن هنالك في خلال السنوات الخمسين الأخيرة موقف آخر في الحياة العربية له مثل هذا الخطر الكبير ، وله مثل هذا الاثر البعيد ، وله مثل هذا التفتح اليقظ ، وحوله مثل هذه الأخطار المتكاثرة .. ويعود الامر الى سببين اثنين :

أحدهما أن رمضان كان منعطف طريق ، أو كان مفترق طرق .

والآخر أنه كان جادة المنطق النظري إلى المنطق العملي ، وأتاح للعرب ـ في شكل هو أقرب الأشكال الناقصة الى الكمال ـ أن يمتحنوا قدرتهم ، وان يبعث عندهم هذا الامتحان قدراً من الثقة بالنفس هو أقل الأقدار التي يجب أن تعمر نفوسهم .

أ – أما أنه منعطف الطريق فذلك لأن العرب تجاوزوا فيه طريق الاحزان ، والدم الذي لم يثأر له ، والأصوات التي تملأ أسماعهم وقلوبهم تقول : اسقوني ، اسقوني.. وخرجوا من أفق الشكوى والبكاء واستجداء القرارات التي لاجدوى منها . . وارتعشت فيهم عروق من عروق صلابة أبي بكر ، ومن الكبرياء الحق : كبرياء عمر الذي كان يهوي بالدرة على ظهور الذي يمشون ورؤوسهم محنية وأكتافهم متهدلة إلى أمام كغصن ميت.. ونبضت فيهم دماء خالد وأبي عبيدة ، وتلامحت لأعينهم عبقريات من عبقريات جيل الصحابة الأول ، ونظرت سيوفهم نظرة انتساب وانتماء إلى ذي الفقار سيفه والصمصامة.

ولكن منعطف الطريق لم يضعهم على طريق مستقيمة ، وانما وضعهم أمام مفترق طرق .، كأنما كان هناك شياطين فرعت من أمامهم السبل .. فاذا هم ، مرة اخرى ، أمام امتحان جديد .. هل يحسنون اختيار الطريق أم يتفرقون حوله في هذه المسارب الكثيرة كما كانوا يتفرقون ؟ ..

ب – وأما السبب الآخر فذلك في تجاوز المنطق النظري الى منطقة العمل .. في تجاوز الحدث إلى المعرفة ، وفي التخلي عن الفراسة الى اليقين ، وفي تجاوز الافتراض الى أداء الفريضة .. في كل ذلك وجد العرب أنفسهم مرة اخرى – أو وضعوا – أمام الفروض والتقديرات ومجالات الحدس والتفرس .. فانصرفوا من جديد الى النقاش حول ، والتبدد في تيهها .

من أجل هذين السببين ، يبدو الوضع العربي أشد ما تكون الأوضاع حراجة .. في الماضي كان لهذا الوضع العربي هدف واحد مارسه هو التخلص من الاستعمار ، وأمل واحد تلامح أمامه ودفعه هو الوحدة .

وعلى أن قادته ـ وهذه كبرى خطيئاتهم ـ لم يستطيعوا التوحيد بين هذين ،

وانهم نسوا الوطن الكبير وهم يظنون انهم يبنون الأوطان الصغرى ـ على هذافقد كان هناك نوع من الالتقاء على الحركة الواحدة .

اما الآن فان الحركة الواحدة تقتضي قدراً كبيراً جداً من تجاوز الذات ومن استبعاد الانظار الخاصة ، ومن تمزيق كل القيود التي تربطنا بالمصالح الضيقة والرغبات القريبة .. فما مدى اقتدارنا على ذلك ؟ . لقد قادنا رمضان الى حد ادنى من هذه الحركة الواحدة ... فهل نستطيع تنمية هذا الحد الادنى . كيف نستطيع في البداية ان نحافظ عليه ثم نمضي ننميه ونغنيه .

من هنا حرج هذه المرحلة ومن هنا خطر هذا الموقف .. إنه ـ في شيء من تعميم ـ إما ان يكون بداية حقاً، وإما ان يكون بداية النهاية .

أفلا يكون من الحق اذن ان تكون التساؤلات هي علامة هذه الفترة وهي عنوانها ؟ .. سواء في ذلك هذه التساؤلات التي يغلب عليها التفاؤل ، أو تلك التي يغلب عليها التشاؤم .. اليس التساؤل هو التعبير الطبيعي عن كل ما يزدحم في الواقع ، نحسه ولا نراه ، على نحو ما يزدحم في الذهن ، نعرفه ولا نحسن التعبير عنه ؟ .. ألا يثير عندنا كل هذا الذي نراه ونسمعه مثل هذه التساؤلات التي لا نهاية لها ؟ .

- ٣ -

ولكن التساؤل ليس هدفاً في ذاته مها تشتد الحيرة .. انه طريق الى الجواب .. فأين نعثر على هذه الإجابات التي تبعث على الاطمئنان او على شيء يشبه الاطمئنان ؟ ..

اين نجد ملامح اليقين .. وكيف نتصرف الى العمل بهذا اليقين ، في ترفع عن النزعات او النزاعات التي توشك ان تغتالنا ؟ ..

كيف نرتفع برمضان عن ان يكون رؤيا عابرة إلى ان يكون رؤية واضحة ، وطريقاً مطروقة ، وسلوكاً مسلوكاً ؟ .

- ٤ -

ما من شك في اننا ـ حين نطرح هذا السؤال ـ نجد انفسنا امام وجهات نظر ، يختلف بعضها عن بعض ويتلاقى بعضها مع بعض .. وقد يقوى اللقاء فيكون تطابقاً . وقد يشتد الخلاف فيكون تناقضاً .. وأنه لا بد من اجل ان تكون هنالك وجهة نظر موحـــدة تتلاقى حولها ، من ان يكون هنالك معيار واحد نأخذ فيه في تقييم هـــذه الوجهات . في ارتضاء ما نرتضي منها وفي استبعاد ما نستبعد ..

وهذا المعيار يؤلف – في الواقع – بالنسبة الى الحركة العربية تطبيقها : يؤلف المنطلق الذي تصدر عنه ، ويؤلف الهدف الذي تسعى اليه .. هو المنطلق وهو الهدف .. هو البداية وهو النهاية .. هو الماضي وهو الحاضر.. هذا المنطلقهو الوحدة .

فالوحدة في الحياة العربية هي القيمةوهي المعيار ،إليها ينتهون ، وبها يأخذون ويقيسون ،وهذهالوحدة ليست نظراً من النظر ولا فكرة من الفكر .. ليست نظرية من نظريات التاريخ الحديث ،ولا تجربة من تجارب الشعوب الأخرى .. وانما هي نظريتهم وتجربتهم .. هي فكرهم وهي واقعهم الذي ينشدونه ، بل هي قدرهم وهي مصيرهم.. أريد أن أقول بدايتهم ومصيرهم .. ما عـرفهم التاريخ – حين كان يعرفهم – الا متوحدين أو عاملين لهذه الوحدة .. وعلى طول التاريخ أو امتداد الرقعة وتنوع الدويلات .. وعلى الاحداث المفرحة ، والمحزنة ، على الانتصارات والنكسات، كانت الوحدة هي وجودهم ، الوحـــدة الهزيلة وجود هزيل ، والوحدة القوية هي الوجود القوي .. وحدتهم في الفكر ووحدتهم في الحركة هي التي ربطت بينهم وبين التاريخ فصنعوه ، وهي التي ربطت بينهم وبين الحضارة فأسهموا فيها وأثروها ، وهي الـتي ربطت بينهم وبين مكانتهم في حركة الانسانية التي شاركوا في صياغتها .

ومن المؤكد أنه ما من حقيقة أخرى أقوى وأصدق وأدق من هذه الحقيقة في الوجود العربي .. في أبعد أبعاده الماضية وفي أبعد أبعاده المستقبلة .

وإذا كان ذلك كذلك فاننا نسلم عملنا كله وفكرنا كله لهذا المعيار .. ونجعل منه هذا الحكم الذي نرتضي حكومته حين تكون هذه الخلافات بين أوجه النظر المختلفـة.. فنقبل من هذه الأوجه ما كان أكثر اتساقاً مع الوحدة ونرفض ما كان بعيداً عنها .

- ٥ -

ولعل قائلا أن يقول : مثل هذا الأصل النظري في الوحدة ليس موضع شك .. كلنا يقول به . وكلنا يتحدث عنه ، وكلنا يجعل منه جوازاً إلى قلوب الناس وضمائرهم، أو الى سيادتهم وحكمهم .

إنك تجد هذه الوحدة في كل نظام ، وترى النص عليها في كل برنامج ، ويقوم التعامل بين الحكومات العربية – فيما يبدو من أقوال هذه الحكومات – على أساس منه.

ومع ذلك فان سير الحركة العربية لا يزال يتعثر أشد التعثر وأقواه .. وان الوحدة لم تستطع أن تتخذ طريقها الى أي من التشكيلات الصادقة الجادة ، وأن تعاملنا أقرب الى الخصومة منه الى التعامل بين شعوب تأخذ طريقها الى أن تكون أمة واحدة ووطنا واحداً .. وأن القدر من الصلات التي تومىء من بعيد الى الألفة هو هذا القدر الضئيل الذي تجد مثله او فوقه في هذا العالم الدولي بين أشد الأنظمة تعادياً وأكثر الشعوب والأمم تباعداً .

- ٦ -

ذلك الذي يقال حق لا سبيل إلى انكاره .. وصورة الوطن العربي في هذه الايام صورة لا تبعث على شيء كثير من الاطمئنان .

ولكن الامر لا يعود الى هذا الاصل النظري بقدر ما يعود الى السلوك الذي لا يتلاءم بحال مع هذا الاصل النظري ، بل لعله يتناقض معه الى أبعد حدود التناقض .

ذلك لان الايمان بالوحدة يقتضي معه ايماناً آخر يلازمه ويكون جزءاً منه .. هو الايمان بأن هذا الجيل من الناس ـ وهو العرب ـ جيل له جوهره الخاص والمتفرد .. وان جوهره الخاص المتفرد هذا هو الذي كفل له ، على يدي التاريخ ، ـ ومن الممكن ان يكفل له بعد ذلك ـ عناصر الحياة السليمة المتقدمة .. وانه ما لم يظل هذا الايمان ملازماً لنا جميعاً في ساعات الشدة والرخاء ، فإن الوحدة تصبح وكأنها لا تعني شيئاً .. اذ ماذا تعني وحدتي مع العربي في الرباط

او في موريتانيا اذا كنت لا أؤلف معه - في الحركة الانسانية المشتركة - هذا الجوهر الخاص الذي يكفل لي ان اكون شيئاً في الموكب الانساني ؟ ! ..

- ٧ -

من المؤسف ان هذا الايمان بجوهر الامة المتفرد او الخاص عانى في السنوات الثلاثين الاخيرة كثيراً من سوء الفهم له ، ومن التحريف المخطط له ، ومن العدول به عن معانيه الاول من الثقة بالنفس ، والاستعلاء على الخطوب ، والايمان العميق بالذات ، والاعتداد الصلب الفعال بها ، الى اشكال متميعة لا قوام لها ..

لم يعد الانسان العربي يعرف فضائله ولم يعد يفكر بها .. غمس في هذا الجو العام ، والقي به في هذه الأحواض التي تتسع له وتتسع لغيره على السواء .. فلم يعد يدرك خصيصة من خصائصه .. حتى هذه الخصائص التي كانت علامة من علاماته على طريق التاريخ ، كالشجاعة والكرم والاباء ، تعرضت للتحليل ، ثم تعرضت للتمييع ، ثم تعرضت لتفسيرات جديدة لذويها .. فلم يعد يحمل وجوده انتصاراً لفضائله ولم يعد على ارتباطاً بتله ، وانما هو هذا الانسان « النامي » في القافلة الانسانية المشتركة .

- ٨ -

ان معركة لتجريد الانسان العربي وتعريته من رسالته ومن خصوصية هذه الرسالة ومن عقيدته ومن سبق هذه العقيدة في الوضوح والشمول او في التجريد والتسامي ، وفي بناء مجتمع انساني اساسه الفكر ، ثم تخدير احساسه بعد ذلك بخلقيته المتفردة تمهيداً لاقتلاع العصب الذي يجعله يحس بها ، ان كل ذلك ترك اثره على الوجود العربي .. اي انه ترك اثره على الوحدة .. فلم يعد هناك ما يدعو الى الوحدة .. واضحى العمل لهذه الوحدة محوطاً بكل الشكوك والتعميات .. واذا كانت هذه الوحدة قد بقيت جملة من من العوامل الاقتصادية ، فان هذه العوامل موجودة على نحو ما في الاشكال الاخرى التي طرحت لاستلاب الوحدة الحقيقية (الشرق الاوسط — حوض المتوسط — العالم الثالث — الصلات بالعالم الشرقي او العالم الغربي) ، واذا كانت الوحدة خلاصاً من الاستعمار ، فقداتنى (هكذا يقولون) عهد الاستعمار .. واذا كانت الوحدة نوعاً من التجمع فان التجمعات الكبرى قد تعوق حركة الاقطار الصغرى .. ومن الخير ان تبدأ بنفسك ،

والوطن الصغير هو الذي يقود الى الوطن الكبير .. والاصفار لا تؤلف رقماً .. هذا ، الى عشرات اخرى من هـذه المقولات التي انغرست أظافرها في الضمير العربي خلال السنوات الثلاثين الاخيرة بخاصة ، وخلال الثلاثين التي قبلها او تزيد .

- ٩ -

تجريد الفكر العربي عن الايمان بالذاتية العربية والجوهر العربي المتفرد لم يترك أثره على الفكر الوحدوي فحسب .. ولكنه ترك أثره بالتالي على الأنظمة والحكومات التي كانت تقود الشعب العربي .

إنها تركت هذا الأثر في اتجاهين :

أ – في اتجاه التعاون فيما بين هذه الأنظمة للعمل المشترك ..

فقد قـاد ذلك الى الاكتفاء بالحدود الدنيا « التي يمثلها قيام الجامعة العربية وطبيعة تركيبها وقضية الاجماع التي تؤلف كبرى قضاياها » .. كما قاد إلى غياب كل صور المستقبل المشترك والتخطيط له .

ب – في اتجاه الحكم داخل الانظمة ..

فقد افتقدت هذه الأنظمة أو كثرتها صلاتها بالجماهير ، وقعدت عن تنمية الحس بالذاتية العربيـة .. انها تناولت هـذه الجماهير على أنهـا أفواه مفتوحـة أو بطون جائعة .

لقـد كان ذلك من حقها .. ولكن كان من حقها ، قبل ذلك أو مـع ذلك ، أن تنظر الى هذه الجماهير على أنها تحمل في ضميرها ، الذي صاغه تاريخ حركة حضارية هي أكبر الحركات لاشك – أياً كان التقدم الحضاري المعاصر المذهل – فضائل ومثـلاً هي الاحرى بأن تصقل في نفوس الجماهير ، وهي الأجدى في عملية البناء .. وانها – هـذه الجماهير – وارثة ثقافة وفكر وفن .. وانها اكتسبت في تجربة الزمن خصائص وأخلاقاً تجعل مثلها عندها مقدمة على كل ما شغلوها به ومنوها من طعام وشراب .

جملة هذه الأنظمة أو كثرتها غلبت على هـذا الاتجاه ودفعت اليه .. ولذلك لم يعد الفرد العربي عندها هذا السلوك المتميز ، ولا هذا الخلق المصقول ، ولا هذه القيم المثلى .. وانمـا هو في أحسن الحـالات ، عند أفضل هـذه النظم ، هذا المزيج من الفم المفتوح والعقل المفتوح .

وكذلك غابت أعداد كبيرة من الشعب العربي .. غابت كجماهير وارثة لحضارة ومختزنة لانسانية ، ومؤهلة لمهمات تاريخية كبرى . . وغابت كأفراد يختزنون تطلعها ، ويقيمون التفاعل بين معطياتها ومعطيات العصر الحاضر، ويتمتعون بالقدرة على الافادة من هذا التفاعل في سبيل انبعاث جديد .

-١٠-

مثل هذه الأوضاع كلها ، في نطاق الجماعات وفي نطاق الافراد لا تساعد الحاكم الصالح على الحكم الصالح .. انها تغمره بجملة من الاتجاهات وتجعله أسيراً لها ، وتؤكد عنده فروع القضايا محاولة ان تدفعه الى تجاهل أصولها .. بل لعلها لا تترك له وقتاً للتفكير في هذه الأصول .. فاذا هو مصروف عنها ، واذا هو مصروف الى هذه القضايا اليومية .. ثم اذا هو بعد ذلك بعيد أو مبعد عن النظرة الأصيلة ، والاتجاه الموحد ، والقضايا الكلية الاصيلة التي عليها يتوقف المصير .

-١١-

من هنا العودة الى حيث كان الابتداء .. من هنا محاولة الاجابة عن هذه الاسئلة الكثيرة التي تخامر وجداننا وتتثال على السنتنا ، وتهجس بها في كل لحظة خاطرنا ، ويفرضها علينا هذا الجو العربي القلق .

من هنا نريد أن نبدأ ، وإلى هنا نريد ان نعود ..

كان رمضان تجربة رائدة ، علمتنا خلال اسابيع ، بعيداً عن كل جدل نظري ، ان الوحدة هي الطريق .

ولكننا ننظر فنرى ان تعثر الوحدة لايرتد إليها هي، من حيث هي منطلق ومصير ومعيار ، ولكنه يعود الى أن الوحدة أضحت ألفاظاً وعناوين .. وأنها توشك ان تفقد أصولها النفسية في حياة الافراد والجماعات وفي سلوك النظم والحكومات .. منذ أخذت تفقد الايمان بالتفرد الذاتي والجوهر الاصيل للامة العربية . وأن ذلك هو مصدر من مصادر تعثر العمل الوحدوي .. وانه لا بد لذلك من إحياء هذا الايمان من جديد في نفوس الجماهير .

قد يقتضي ذلك أعمالاً جريئة في غاية الجرأة .. انه يقتضي ان نناقش خطواتنا وأعمالنا .. بل انه يقتضي ان نجاوز ، في النقد الذاتي ، تصرفاتنا وسلوكنا الى نقد تفكيرنا .. والى كل ما يقود اليه ذلك من الاعتراف بأخطائنا .. وما يضطر اليه الاعتراف بالخطأ من رجولة هي في صميم تقاليدنا ومثلنا وأصالتنا .

★ ★ ★

لعله لم يكن عبثاً ان كانت احداث رمضان في رمضان .. انها جاءت في فترة من العام هي فترة قهر النفس ، واستعلائها على ذاتها وشهواتها ، وتحقيق هذه الذات عن طريق الظمأ الصلب لا عن طريق الارواء المسترخي .

وسيظل طريق الظمأ أدعى الى كبح الجماح .. وسيظل طريق الاداء أدعى إلى الاستزادة من طلب الري .. واحرى بنا ان نفجر طاقاتنا على طريق تجاوز الصعوبات من ان نفجر عندنا الرغبات العاجلة والدعة الكاذبة .

نجاح ذلك كله مرهون بأمرين :

ان نجدد ايماننا بالذات العربية عن طريق الاثرة كل فضائلها وخصائصها في طريق تقشف طويل .

وان تكون مشاركتنا مشاركة كاملة في الاعباء ، حتى لا يتكرر معجم دول المواجهة ودول المشاركة ودول المساندة ، والتعابير الاخرى .

ذلك وحده يقطع طريق التساؤلات التي تصب ملوحة البحر في فمنا .

ذلك وحده هو الذي يجرد رمضان من ان يكون رؤيا متألقة ، ويجيله ليكون رؤية مكتملة الجوانب في حياة شعب ذي رسالة وخصائص وحضارة وتاريخ ومستقبل ..

الآفاق الاقتصادية لحرب تشرين

يحيى عرودكي

العلاقة بين الحرب والاقتصاد كالعلاقة بين الحرب والسياسة ، أو بين السياسة والاقتصاد ، من حيث كونها علاقة سببية . واذا كانت الحرب تعتبر امتداداً للسياسة ، أو هي السياسة بلغة المدفع والطائرة والصاروخ . . عندما لا تتوصل الديبلوماسية لتحقيق أغراضها بالكلمة ، وكانت السياسة تعمل أحياناً كثيرة في خدمة الاقتصاد ، وكان هذا الاخير يعمل في بعض الاحيان في خدمة الاغراض السياسية ، فان الحرب غالباً ما تكون بهدف معالجة بعض المشكلات الاقتصادية التي لم تتمكن لغة الاقتصاد وأرقامها ، ولغة السياسة وأساليب الديبلوماسية أن تتوصل للحلول الملائمة لها .

غير أن حرب تشرين التحريرية كشفت عن ان الاقتصاد قد لعب دوراً هاماً في خدمتها . وان لغة المدفع وأزيز الميغ ووميض صواريخ سام والتحركات السياسية في انحاء الكرة الارضية لم تكن مجدية بالقدر الكافي للحصول على التأييد الدولي اللازم للحق العربي . قبل ان تستخدم الدول العربية امكاناتها الاقتصادية لهذه الغاية ، ويؤدي هذا الانعطاف في الوسائل لزعزعة الاقتصاد العالمي . ويكون سبباً في تحول المشكلة نحو الحل ، وفي ذوبان الجليد بعد أن أصبح صلداً أو اشد من الصخر .

وسواء أكان بعض الاقتصاديين يرون ان اساس كل مشكلة دولية ذو طابع اقتصادي ، وبالتالي فان المشكلة الفلسطينية ، من سلب الارض وانتزاعها من أهلها الشرعيين الى تشريدهم وتحويلهم لشعب من اللاجئين ، هي في جذورها مشكلة اقتصادية ، لأنها تتعلق بالأرض المنتجة وبالشعب المنتج المستهلك بآن واحد .

أو سواء أكانت المشكلة الفلسطينية ، مشكلة اجتماعية ، انسانية ، لها جانبها الاقتصادي ، وجوانب عديدة أخرى ، اجتماعية وسياسية . فان حرب تشرين التحريرية لم تستهدف في الواقع ، وبالاصل ، ان تحقق أغراضاً اقتصادية على حساب اقتصاديات الدول الاخرى ، ولا أن تلحق أضراراً مالية بهذه الدول ، وخصوصاً دول العالم الثالث، والدول الصديقة ، وانما كانت تستهدف كسر شوكة العدو الصهيوني ، وتحطيم غروره وصلفه .

ولم يكن هنالك بد ، والدول العربية تواجه عدواً شرساً ، مراوغاً ، ومزوداً بأحدث الأسلحة وتؤيده بعض الدول الكبرى ، التي لم تستطع أن تتحرر من سيطرة الصهيونية العالمية على أجهزتها ومؤسساتها ، الا أن تحزم أمرها ، هذه المرة ، وتقرر استخدام إمكاناتها الاقتصادية لخدمة أغراض المعركة التي أجبرت على خوضها ، دفاعاً عن الأرض والعرض ، ومن أجل تخليص مئات الألوف من الشعب العربي من العيش تحت الخيام ومن خلال شروط صحية واقتصادية سيئة . كما هو ثابت لجميع الذين يزورون تلك المخيمات .

واذا كانت الآثار والنتائج التي تترتب على استخدام العرب لمواردهم الاقتصادية في حرب تشرين التحريرية لم يكن من الميسور تقديرها على حقيقتها ، قبل اللجوء لهذا الاجراء ، أو أثناءه ، لان غبار المعارك قد حجب لبعض الوقت الصورة الصحيحة لتلك الآثار والنتائج ، فان الاوضاع بدأت تتغير بعد أن توقف القتال في سيناء والجولان ،

وأصبح من الميسور . بعد عام من بدء تلك الحرب دراسة الآفاق الاقتصادية لهذه الحرب .

حرب .. ولكن ليست كبقية الحروب الحديثة :

لقد شهد العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية مشكلات عديدة نجمت عن الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، أو بين حلفاء الامس ، وأدى تصعيد هذه الحرب الباردة لاندلاع حروب اقليمية عديدة ، كان أولها الحرب الكورية ، ولن تكون آخرها حرب قبرص . واذا كانت الحرب الفيتنامية أطول تلك الحروب وأعتاها ، وكانت مشاركة القوات الامريكية الفعلية فيها واصابتها بأضرار بالغة الارواح والعتاد ، بحيث انعكست هذه الآثار على الاقتصاد الامريكي ،وكان من شأن ذلك زعزعة الثقة بالدولار .وانخفاض قيمته ، وزحزحته عن مكانته السابقة التي كان قد نعم بها حقبة طويلة من الزمن كأقوى عملة دولية ،وكمنافس لمعدن الذهب في الادخار لدى العديد من البشر ،وفي التغطية لدى المصارف المركزية في بلدان العالم . وكانت الحرب الكورية من قبل قد أدت لاشتراك قوات دولية فيها ، وعلى رأسها قوات الولايات المتحدة الامريكية دون أن تحقق أغراضها بابقاء كورية موحدة تحت ظل نظام (سيؤول) . وكذلك اذا كانت الحرب مؤخراً في جزيرة قبرص قد أدت لنزول القوات التركية فيها لمنع سقوطها تحت سيطرة الحكم اليوناني ، وكان من نتيجة ذلك تصدع حلف الأطلسي نتيجة اعلان اليونان انسحابها منه ، والطلب من حلفائها ومن بينهم تركيا والولايات المتحدة الامريكية ، سحب قواتها ، من أراضيها وعدم استخدام القواعد الموجودة فيها ، مما اعتبر معه هذا الاجراء ضربة قوية توجه لهذا الحلف الكبير ، الذي تبني عليه أوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية أهمية كبرى في خططها الدفاعية تجاه حلف وارسو والمعسكر الاشتراكي ، نقول ، اذا كانت هذه الحروب الحديثة التي وقعت في انحاء عديدة من العالم قد سببت بعض القلق على المستوى الدولي ،نتيجة الخوف من تطور احداثها وتحولها الى حرب عالمية جديدة ، وألحقت بالقوات المتحاربة أضرارا مادية وبشرية ،انعكست على الاوضاع الاقتصادية لبلدان هذه القوى المتصارعة ، فان حرب تشرين التحريرية قد تسببت أيضاً بهذا كله ، يضاف اليه تعريض الاقتصاد العالمي ، وخصوصا سير حركة الانتاج في الدول الصناعية الكبرى وغيرها لخطر التوقف ، بعد أن اصيبت بما يشبه الشلل ، نتيجة وقف ضخ النفط العربي بعض الوقت ، ثم تخفيض حجم الانتاج منه وقطع تموينه عن بعض

البلدان (الولايات المتحدة الامريكية ، هولندا . . .) الى جانب الارتفاع الكبير في اسعاره ، مما لم يقتصر أثره على الانتاج الصناعي ، وانما تجاوزه الى الحياة اليومية الملايين من البشر في غرب الكرة الارضيةوشرقها ، وكان من نتيجة ذلك، اللجوءلنظام التعتيم ، ووقف سيرالسيارات بعض أيام الاسبوع ،أووفق لنظام خاص. والى جانب ذلك، ماحدث من اضطراب في عمليات الشحن وأجوره ، بمختلف الوسائط ، البرية والبحرية والجوية ، مما كان له أثر بالغ على نفقات الانتاج ،وعلى تكاليف العديدمن وجوه النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية .

لقد كانت حرب تشرين التحريرية في ظاهرها حرباً اقليمية بين العرب واسرائيل ولكنها في الواقع كانت اكثر من ذلك بكثير . ولو لم يلعب النفط العربي والارصدة العربية دورهما لبقيت هذه الحرب في حدود غيرها من الحروب الحديثة الاخرى ، ولما حمل نيكسون نفسه عبء استخدام خط الهاتف الخاص مع موسكو ، كما لم يحمل وزير خارجيته كيسنجر نفسه عبء التنقل المتواصل بين كل من القاهرة ودمشق وتل ابيب وواشنطن ، حتى تم التوصل الى اتفاقيي الفصل بين القوات على جبهتي سيناء والجولان .

معنى استخدام النفط العربي في حرب التحرير :

حقائق اوضاع النفط العربي التي تتبدل منذ حرب ١٩٤٨ وانسحاب القوات البريطانية من فلسطين وافساح المجال للعصابات الصهيونية لتشن هجماتها الصاعقة على العرب فتشردهم وتعلن قيام دولة اسرائيل بعد ذلك ، كما لم تتبدل في حرب السويس ١٩٥٦ التي حدثت نتيجة التآمر بين حكومات العدوان (في لندن وباريز وتل ابيب) او في حرب الغدر في عام ١٩٦٧ . نقول : هذه الحقائق عن اوضاع النفط العربي لم تتبدل ، وانما ازدادت وضوحاً وتأكيداً على اهمية هذه الثروة ، والدور البالغ الذي يمكنها ان ان تلعبه لصالح الحق العربي بمواجهة العدو الصهيوني والدول المناصرة له .

في السابق وحتى اليوم ، من الثابت ان مخزون النفط العربي يصل الى نحو ٦٠٪ من المخزون العالمي ، وذلك على الرغم من مختلف الجهود التي تبذل لاكتشاف مصادر جديدة في انحاء اخرى من العالم . وعلى الرغم مما يعلن بين حين وآخر عن ظهور الغاز الطبيعي في بحر الشمال اوغيره من بحار العالم او عن التوصل لاكتشاف مصادر جديدة للطاقة بديلة للنفط .

ومن الثابت أيضاً ، أن العالم العربي يزود بقية بلدان العالم الأخرى بنحو ٣٢ ٪ من الانتاج العالمي من النفط ، وأن معظم بلدان أوربا الغربية واليابان وبعض الدول الافريقية ، وحتى الولايات المتحدة الامريكية تحتاج الى النفط العربي ، وتعتمد عليه في انتاجها والحياة اليومية لشعوبها .

ومعروف كذلك ، أن المواصفات الفنية للنفط العربي هي مواصفات جيدة ، وفي بعض أنواعه ممتازة . وأن الموقع الجغرافي لبلدان العالم العربي وامتدادها من الخليج العربي حتى شواطيء البحر الابيض المتوسط في شرقه ، أو على امتداد ساحله الجنوبي في القارة الافريقية يمنح النفط العربي مركزاً ممتازاً بمواجهة النفط الذي تنتجه البلدان الاخرى .

واذا كانت هذه الحقائق غير جديدة ، سواء بالنسبة للبلدان العربية ،أو بالنسبة لبلدان العالم الاخرى فان الجديد في نطاق النفط العربي كان الآتي :

١ - ادراك أهمية استخدام هذه الثروة لصالح الحق العربي بمواجهة العدو الصهيوني والدول المناصرة له ، وتقدير هذه الاهمية التقدير الصحيح .

٢ - اجماع الدول العربية على استخدام النفط العربي سلاحاً في المعركة والخلاص من حالة التهيب التي كانت تسيطر على بعض حكوماتها في الماضي .

هذه الأمور الجديدة التي تكشفت عنها حرب تشرين التحريرية ، قد أعطت النفط العربي أهمية أكبر مما كان له في السابق ، ليس بالنسبة للبلدان التي تحتاج اليه في انتاجها وحياتها اليومية ، وانما بالنسبة للبلدان العربية نفسها المنتجة للنفط ، وتلك التي تقف على خط المواجهة مع العدو الصهيوني .

وما كان ميسوراً من قبل لجميع البلدان المنتجة أو المستهلكة للنفط العربي أن تلمس بشكل عملي ومادي الآثار البالغة الأهمية لاستخدام هذه الثروة في صالح المعركة . فلقد كانت دعاية العدو تزرع الشك في نفوس العرب حول الجدوى التي يمكن أن يحققها مثل هذا الاجراء ، وبنفس الوقت تطمئن البلدان المستهلكة للنفط العربي حول توفير حاجتها من هذه المادة ، سواء من حيث عدم تجرؤ العرب على قطع النفط العربي عنها ، أو قيام الولايات المتحدة الأمريكية بتوفير الكميات التي تحتاجها من مخزونها وانتاجها في أراضيها

أو في البلدان التي تسيطر عليها احتكاراتها ، أو من الكميات التي كانت الدعاية تروج عن اكتشافها في مناطق مختلفة من العالم .

حرب تشرين التحريرية والاقتصاد :

الذين نادوا قبل حرب تشرين التحريرية بوجوب استخـدام الموارد الاقتصادية العربية لصالح المعركة ضد اسرائيل والدول المساندة لها ، توخوا من هذا التكتيك أو من خلال الاستراتيجية التي طالبوا بوضعها لهذه الغاية ، أن تحقق الدول العربية الآتي :

١ – اشعار العالم ، وخاصة فياوربا والولايات المتحدة الامريكية بأهمية استخدام الموارد الاقتصادية العربية وفي مقدمتها النفط والارصدة العربية ، وكذلك بأهمية الدور الذي تلعبه في خدمة الاقتصاد العالمي ونموه وتطوره ، وفي خدمة المصالح الاقتصادية للدول الصناعية .

٢ – أن تعدل الدول المساندة لاسرائيل من سياستها هذه ، تحت ضغط شعوبها وشعوب البلدان الأخرى التي تتأثر من التدابير العربية ، وأن تبادر لاتخاذ موقف جديد يسهم في اقتلاع جذور الود مع اسرائيل ، وبما يكون سبباً حملها على التراجع عن تطلعاتها العدوانية على الأرض العربية .

ولقد كان هذان الهدفان يخفيان خلفها غايات أخرى أهمها الآتي :

آ – التأثير على الصناعات الكبرى التي تعتمد على النفط العربي في سير حركة الانتاج لدى الدول التي تملكها بما يؤدي لضغط مالكي هذه المشروعات والجهات الأخرى التي تتأثر من تردي تلك الحركة ، ووقوع خلل في الانتاج والعمالة ، بما يعجل في الوصول الى حل عادل للقضية الفلسطينية .

ب – التأثير على بيوت المال والمصارف الكبرى التي تعتمد على رؤوس الأموال العربية في نشاطاتها المختلفة في أنحاء العالم بما يؤدي لضغط مالكي هذه البيوتات والجهات الأخرى التي تستفيد من تلك النشاطات على السلطات في بلدانها للمساهمة في تحقيق سلام عادل في الشرق الأوسط .

ج – أن تتحمل الدول العربية المنتجة للنفط والتي تودع رؤوس أموالها في المصارف أو تثمرها في المشروعات المتنوعة في اوربا والولايات المتحدة الامريكية ،

مايمكن أن ينجم من اضرار مادية نتيجة اللجوء لاستخدام النفط والارصدة العربية لصالح المعركة .

والذي يبدو ؛ أنه لم تكن هنالك دراسات كاملة حول المضاعفات التي يمكن أن تنجم عن اللجوء لاستخدام الموارد الاقتصادية العربية لصالح المعركة ، وعن النتائج التي تترتب على هذا الاجراء .

ومن ناحية أخرى ، فانه على الرغم من أن الامر اقتصر على استخدام النفط العربي دون استخدام سلاح رؤوس الاموال العربية الا بقدر ضئيل ، فلقد اتضح أن آثاره والمضاعفات التي ترتبت نتيجة ذلك ، كانت أبعد بكثير من الاهداف المتوخاة ، سواء أكان ذلك على الصعيد العربي ، أو على الصعيد العالمي ، وكما كانت هناك آثار ايجابية فانه كانت هنالك آثار سلبية لابد من ادخالها في الحساب .

● ● على الصعيد العالمي ، يأتي في مقدمة ماواجهه الاقتصاد العالمي من مضاعفات الآتي :

١ — عدم حصول المعامل والمؤسسات الانتاجية على كامل احتياجها من النفط بعد خفض انتاج النفط العربي ، مما أدى لتقليص حجم البضائع الواردة في البرامج الانتاجية لتلك المعامل والمؤسسات .

٢ — ارتفاع تكاليف الانتاج بالنسبة للصناعات التي تعتمد على النفط ، سواء كمادة أولية ، كالصناعات البتروكيميائية ، أو كمادة مساعدة التي تعتمد عليه كمصدر للطاقة الصناعات الأخرى . ولم يكن ارتفاع التكاليف نتيجة لتقليص حجم الانتاج لدى هذه الصناعات المختلفة فحسب وانما جاء أيضاً نتيجة لزيادة أسعار النفط التي بلغت أكثر من اربعة اضعاف ما كانت عليه في ايلول ١٩٧٣ .

٣ — ارتفاع تكاليف الشحن نتيجة ارتفاع أسعار النفط وانخفاض انتاجه ، ولجوء بعض شركات الشحن البحرية لاشتراط تأمين املاء خزانات بواخرها بالنفط في مرافىء التفريغ حتى تتمكن من متابعة رحلاتها البحرية .

٤ — تقليص حركة وسائل النقل الداخلية لدى العديد من بلدان العالم ، وتوقيف حركة استخدامها في بعض أيام الاسبوع توفيراً لكميات النفط التي تحصل عليها هذه

البلدان بصعوبة ، وذلك من أجل استخدامها في الانتاج والتنوير . وقد أدى هذا التقليص الى شل الحركة في البلدان المذكورة خلال الفترات المذكورة ، وكانت من نتيجة ذلك انخفاض في انتاج بعض السلع التي تأثرت من شل تلك الحركة .

٥ ـ اتباع نظام التعتيم لدى العديد من البلدات ، الذي أدى بدوره لتقليص ساعات العمل في العديد من الصناعات الكبرى ، أو حتى الصناعات الصغيرة والمنزلية التي توفر بعض الأدوات والمعدات والمواد المساعدة للصناعات الأخرى . ومن ناحية أخرى ، أدى اتباع هذا النظام الى الحد من نشاطات كثير من المؤسسات غير الصناعية التي تستهلك منتجات صناعية أو تساعد الانتاج الصناعي على التطور والنمو .

٦ ـ تزايد الاقبال على شراء العديد من السلع بهدف التخزين خوفاً من ازدياد ارتفاع الاسعار من جهة ، أو من فقدانها من جهة أخرى نتيجة انخفاض الانتاج ، أو اضطرار بعض المعامل للتوقف عن الانتاج ، نتيجة عدم كفاية الكميات المستوردة من النفط أو انخفاض حجم الطاقة الكهربائية ، وزيادة فترات التعتيم .

٧ ـ انخفاض أسعار عدد من العملات الأجنبية (الدولار ، الاسترليني ، الفرنك الفرنسي ..) نتيجة الخلل الذي أصاب الدورة الاقتصادية لبلدان هذه العملات او غيرها من البلدان الاخرى التي لها علاقات تجارية واسعة معها . ومن جهة ثانية ، انخفاض حجم التسهيلات النقدية لدى عدد منها بسبب سحب جانب من الأرصدة العربية من المصارف المودعة لديها .

٨ ـ حدوث انشقاق بين دول المعسكر الغربي (أوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية) نتيجة وقف شحن النفط العربي لبعض هذه الدول ، والتهديد بامتداد هذا الاجراء الى الدول الاخرى التي تساند العدو الصهيوني ، وما نجم نتيجة ذلك من خلل في العلاقات الاقتصادية ، والمبادلات التجارية ، سواء بين بلدان المعسكر نفسها أو بين بعضها والبلدان العربية ، أو بين هذا البعض واسرائيل .

٩ ـ قطع العديد من الدول الافريقية علاقاتها الديبلوماسية مع اسرائيل ، واعلانها وقوفها مع الحق العربي . وتأثر العلاقات الاقتصادية والتجارية لهذه الدول ، نتيجة ذلك سواء مع البلدان العربية ، أومع البلدان المساندة لاسرائيل اومع اسرائيل نفسها .

• • على الصعيد العربي ، تتلخص النتائج والآثار التي ترتبت من جراء التحرك الاقتصادي على هذا الصعيد بالآتي :

١ – ازدياد موارد الاقطار العربية المنتجة للنفط نتيجة ارتفاع اسعار النفط بشكل أصبحت هذه الموارد احدى المشكلات التي تتطلب من حكومات هذه الاقطار ايجاد الحلول الناجعة بشأن سبل استخدامها لمصلحة الشعب العربي .

٢ – امتداد الفترة المقدرة لاستغلال النفط العربي مما كانت عليه من قبل وذلك نتيجة تخفيض انتاجها من هذه الثروة وتقليص الكميات المصدرة منها بعد وقف التصدير لبعض الدول .

٣ – مسارعة العديد من دول العالم لمد خطوط الصداقة والتعاون الاقتصادي مع الاقطار العربية ، خاصة المنتجة للنفط ، وتقديمها العروض المغرية لتزويد هذه البلدان بما تحتاجه من المواد والسلع الضرورية ، وخاصة التكنيكية الحديثة والاسلحة المتطورة مما كانت تجد صعوبات عديدة في السابق للحصول عليها .

٤ – اتجاه معظم الدول العربية المنتجة للنفط لوضع خطط ومشروعات انمائية كبيرة لتنفيذها في بلدانها ، وفي البلدان التي تضررت نتيجة العدوان الصهيوني .

٥ – انفتاح القارة الافريقية بمعظم بلدانها ، وكذلك بعض البلدان في آسيا أمام رؤوس الاموال العربية والانتاج العربي والخبرات العربية ، بعد أن كان العدو الصهيوني في السابق يكاد يحتكر هذه المجالات ويعمل على ايصاد أبواب هذه البلدان أمامها .

٦ – مسارعة الدول الكبرى لمعاونة مصر العربية على اعادة فتح قناة السويس، وعلى اعادة اعمار المدن الممتدة على طول القناة ، مما سيكون له نتائج طيبة ، سواء بالنسبة للاقتصاد العالمي أو للاقتصاد العربي ، وبصورة خاصة الاقتصاد المصري .

على أنه من ناحية ثانية ، لا بد من ملاحظة الجوانب الاخرى للآثار التي نجمت عن حرب تشرين التحريرية في نطاق الاقتصاد العالمي والعربي والتي يأتي في مقدمتها الآتي :

١ – ارتفاع أسعار المواد الأولية المستعملة في الزراعة والصناعة والانشاء والمواد الغذائية مما انعكس على الانتاج الزراعي والصناعي وعلى الوضع التمويني في مختلف بلدان العالم ، ومنها البلدان العربية ، وتتبدى أهمية هذه الزيادة في الاسعار

بالنسبة للبلدان النامية التي لم تتمكن من أن تحقق التوازن بين ما تحصل عليه لقاء صادراتها من المواد الأولية ، وبين ما تؤديه للدول الصناعية لقاء مستورداتها منها من المواد المصنوعة . وإن كان هذا الوضع أقل حدة بالنسبة للبلدان النامية المنتجة للنفط التي استطاعت لقاء ارتفاع أسعار النفط المصدر من قبلها أن تواجه الضغوط التي نجمت عن ارتفاع أسعار المواد والسلع التي تستوردها .

٢ – أدى قرار البلدان العربية بتخفيض انتاجها من النفط ، ووقف التصدير من هذه المادة الى أمريكا وهولندا ، وكذلك ارتفاع أسعار النفط العربي الى استفادة بلدان العالم الأخرى المنتجة للنفط وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية من هذا الوضع الجديد للثروات النفطية لديها ، بحيث اشتد الاقبال على الشراء منها لتدارك النقص الحاصل . وحصلت على نفس الزيادة في أسعار النفط الذي تنتجه وتبيعه .

وقد ساعدها هذا الوضع الجديد على تحسين وضع ميزانها التجاري وميزان مدفوعاتها ، وتحسن سعر الدولار ، بعد أن تعرض لهزات خطرة قبل حرب تشرين التحريرية .

٣ – اتجاه الدول الافريقية التي قامت بقطع علاقاتها السياسية مع اسرائيل وحدت من مبادلاتها التجارية وتعاونها الاقتصادي مع العدو الصهيوني ، نحو البلدان العربية ، وخاصة المنتجة للنفط لتمنحها المعونات اللازمة وتعوضها ما كانت تحصل عليه من قبل من مساعدات بصورة مباشرة أو غير مباشرة من الدول المساندة للعدوان أو اسرائيل .

ومن الواضح أن المساعدات التي بدأت الدول العربية بتقديمها للبلدان الافريقية لم تكن قبل حرب تشرين بنفس الحجم والتنوع ، مما باتت تشكل التزامات على موازين مدفوعاتها .

٤ – ألحقت حرب تشرين التحريرية أضراراً مادية كبيرة في بلدان المواجهة ، سورية ومصر ، وكانت معظم هذه الاضرار في نطاق المشروعات الاقتصادية الهامة بالاضافة الى الاضرار في العتاد والتجهيزات ، حيث كان حرص العدو الصهيوني شديداً على احداث الاضرار في تلك المشروعات، بهدف شل قدرة هذين البلدين على الدفاع وصد العدوان ، وعدم تمكينهما من تحرير الأرض العربية المغتصبة .

٥ - كان من نتيجة الاضرار التي تسببت بها حرب تشرين، أن ازدادت مشتريات الدول العربية من مختلف السلع والمنتجات من الدول الاجنبية، ومنها نفس الدول الغربية التي تعاطفت مع الحق العربي ، او تلك التي وقفت في الطرف الآخر . ولم يكن هنالك مجال للتحول عنها لبلدان اخرى ، لاعتبارات فنية أو اقتصادية .

٦ - استغلت شركات الشحن البحري فرصة اندلاع حرب تشرين لرفع أجور الشحن بنسب عالية ، تفوق ماهو مقدر لها ، وذلك تحت تسميات مختلفة وخلف أعذار شتى ، وقد حققت تلك الشركات ارباحاً كبيرة نتيجة هذه الزيادات . وما من شك أن الانتاج العربي قد تحمل وطأة الزيادات المذكورة أكثر من غيره من البلدان الاخرى ، لان معظم هذه الزيادات كانت بالنسبة البضائع التي تشحن الى بلدان شرقي البحر المتوسط.

آفاق مابعد حرب تشرين التحريرية على الصعيد الاقتصادي :

لقد كانت حرب تشرين التحريرية حدثاً بالغ الاهمية في العالم كله، وليس في المنطقة العربية ، وعلى الصعيد الاقتصادي ، وليس على الصعيدين السياسي والعسكري ، ما في ذلك شك ، كما أكدت ذلك النتائج وسير الامور خلال تلك الحرب او بعدها .

ولقد فتحت هذه الحرب عيون العالم على واقع جديد ، او واقع كان قائماً ولكن كانت تتجاهله معظم الدول في العالم ، وخصوصاً الكبرى منها ، ويتمثل بالآتي :

- أهمية النفط العربي .
- أهمية رؤوس الأموال العربية .
- أهمية الموقع الجغرافي والستراتيجي للوطن العربي .
- أهمية استمرار التعامل والتعاون مع البلدان العربية .
- أهمية التضامن العربي .

ان ادراك هذا الواقع ، من حيث امكاناته ، على المدى القريب والبعيد ، ومن قبل الدول العربية والجماهير العربية بالدرجة الاولى ، وكذلك من دول وشعوب العالم الاخرى ، من شأنه ان يحدث تطورات على جانب بالغ الاهمية في المستقبل ، ليس لصالح الامة العربية فحسب، وانما لصالح العالم كله، ولمصلحة السلام والازدهار الاقتصادي في العالم .

- فلقد زعزع وقف تصدير النفط العربي بصورة محدودة ولفترة وجيزة

الاقتصاد العالمي ، وهذا يعني من ناحية اخرى أنه قادر ايضاً على أن يكون سبيلاً لنمو هذا الاقتصاد واستمرار سيره دون خلل ، اذا ما توفر بشكل دائم وبأسعار مقبولة .

• كان الحديث عن قيام الدول العربية باستخدام ارصدتها المودعة في المصارف الامريكية والاوربية أو المستثمرة في المشروعات العديدة في بلدان العالم المختلفة ، عندما كانت تقدر هذه الارصدة قبل حرب تشرين بنحو (١٥ — ١٨) مليار دولار، يبعث على القلق لدى بيوتات المال والاقتصاد العالمية ، فاذا ما اقدمت الدول العربية على مثل هذا الاجراء في المستقبل ، حيث تقدر تلك الارصدة بنحو /٧٠/ مليار دولار، فان ذلك سوف يثير الهلع بدلاً من القلق ، نظراً للنتائج البالغة الخطورة التي يمكن أن يسببها اللجوء لمثل هذا الاجراء على سير الحياة الاقتصادية في البلدان التي تتعرض للاجراء المذكور .

• لقد أدى اندلاع الحرب في بقعة واحدة من بقاع العالم العربي لاحداث الخلل في حركة المبادلات التجارية والاقتصادية الدولية المتجهة على طرفي تلك البقعة الى انحاء العالم الاخرى . وغني عن البيان أن هذه الآثار سوف تكون اوسع مدى اذا ما امتدت الحرب الى بقاع اخرى من بقاع العالم العربي ، وأن النتائج سوف تكون اخطر على الاقتصاد العالمي .

• كان وقف تصدير النفط العربي الى بعض البلدان واستمرار تدفقه الى بلدان اخرى دليلاً ذا مغزى عميق ، حول ما يمكن أن تحصل عليه من فوائد كبيرة وعميمة، الدول التي تحرص على استمرار التعاون مع الأقطار العربيــة ، ليس فقط في نطاق الحصول على النفط لدوران آلاتها واستمرار الانتاج لديها بشكل منتظم ، وانما في نطاق تصدير كثير من منتجاتها الى تلك الاقطار ، وكذلك في نطاق الاقتصاد في الجهود التي يتوجب عليها أن تبذلها لتصريفها في بلدان اخرى . هذا بالاضافة الى التسهيلات التي يمكن أن تحصل عليها من الدول العربية ، سواء في نطاق النقل أو التعاون الاقتصادي والفني والثقافي .

• التضامن العربي الذي تجلى اثناء حرب تشرين التحريرية ولا يزال قائماً في بعض صوره وأبعاده ، كان من أهم التطورات التي استطاعت الدول العربية تحقيقها في اطار العمل المشترك لتحرير الأرض العربية المغتصبة والتصدي للعدوان ، وقطع الطريق أمام المخططات الصهيونيــة والاستعمارية للابقاء على حالة التخلف في الفكر والمرض

والجهل ، التي تعاني منها الاقطار العربية ، وتحد من انطلاقها نحو اللحاق بمجموعة الامم المتطورة .

ولم يكن ممكناً بدون هذا التضامن استخدام الموارد الاقتصادية العربية لصالح المعركة ، وبكلمة أدق ، اتخاذ موقف موحد بشأن وقف تصدير النفط العربي الى البلدان المساندة للعدوان ، وتخفيض حجم انتاجه ، والاتجاه نحو سحب الارصدة العربية من المصارف في الولايات المتحدة الامريكية واوربا .

كما لم يكن متوقعاً بدون هذا التضامن أن تسعى الدول الكبرى لطلب ود الاقطار العربية ، وأن تتقاطر الوفود من أقصى الشرق وأقصى الغرب الى العواصم العربية حاملة العروض السخية للتعاون الاقتصادي والفني والتأييد المعنوي للقضية المشكلة مع العدو الاسرائيلي .

ومن المؤكد أن استمرار هذا التعاون وتعميقه وتوسيع مجالاته وابعاده بين الدول العربية ، وخصوصاً في النطاقين الاقتصادي والتجاري ، ليس من شأنه الابقاء على الاحترام الدولي الذي حصلت عليه الاقطار العربية حتى الآن ، وانما ازدياد هذا الاحترام واتساع قاعدته ، وتجاوزه الى التأييد المادي والدعم المعنوي بأشكال وصور مختلفة ، مما يساعد على تقدم الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي ، وبما يتيح للامة العربية أن تختصر سنوات عديدة من رحلة اللهاث والجري نحو تحقيق المستقبل الافضل لجماهيرها ، والازدهار والقوة والمنعة التي تنشدها منذ زمن بعيد ، وتعمل على بلوغها دون أن تحقق الا النذر اليسير نتيجة الفرقة وفقدان التعاون في الماضي فيما بين حكوماتها، حتى جاءت حرب تشرين التحريرية وأبرزت اهمية مثل هذا التعاون وقيمته بصورة عملية .

وبعد .. فان في حياة الامم والشعوب فترات ، بل ظروفاً مصيرية ، تنتقلها من الامنيات الى الواقع ، ومن العدم الى الحياة ، أو بالعكس . ولقد كانت حرب تشرين التحريرية من هذه الفترات والظروف في حياة الامة العربية .

ويبقى على الدول العربية ، والجماهير العربية ، أن تدرك من خلال آفاق تلك الحرب وما بعدها أية مسؤوليات ومهمات يقتضيها النهوض بها قبل فوات الأوان .

نحو تحديد للحق العربي في فلسطين

الدكتور جورج طعمة

قضية الحقوق العربية في فلسطين قضية مطروحة بقوة وشدة الآن على الصعيدين السياسي والفكري وفي الساحتين القومية والدولية . لكن طرحها بشدة الآن لايعني انها لم تطرح من قبل . فمنذ أن بدأت الهجمة الاستعمارية على الوطن العربي ورافقتها الغزوة الاستيطانية الصهيونية في فلسطين منذ اكثر من نصف قرن قامت من اجل الدفاع عن هذه الحقوق وحفاظاً عليها أو لاستردادها ثورات وحروب دامية قدم العرب من اجلها وفي مختلف اقطارهم عشرات الألوف من الضحايا واهرقت دماء عربية نبيلة في سبيلها وكانت قبلة تطلعات الجهاد والفكر العربيين . وبعد حرب تشرين المجيدة اتخذت ابعاداً لم تتخذها من قبل . فقد اصبح الاعلان عن هذه الحقوق ودعمها مطلباً أساسياً نادى

وينادي به الزعماء العرب كاحد الشروط الثابتة لاحلال السلام واقر الكثير من قادة العالم باولويتها ومشروعيتها . واعطيت صفات مختلفة لهذه الحقوق نذكر على سبيل المثال « المشروعة » و « الوطنية » و « التاريخية » و « الطبيعية » و « السياسية » و « الثابتة التي لايمكن التنازل عنها » — وهذا الوصف الاخير يرد في ميثاق الامم المتحدة — والاعلان العالمي لحقوق الانسان .

وهذا الموضوع المطروح الآن سيظل مطروحاً ولعدة سنوات مقبلة ، لعلها أكثر مما نتصور بكثير ، طالما ستظل هنالك مجابهة عربية مع الاستعمار الاستيطاني في فلسطين وطالما سيظل هنالك جشع امبريالي لالتهام الثروات العربية . وقد صدرت عن رجال الفكر والسياسة العرب وغير العرب أبحاث وتعليقات تناولت هذه الحقوق بشكل أو بآخر . ولكن المجال مازال كبيراً المزيد منها . وعندمانقال الكلمة الأخيرة في هذه الحقوق فقد يكتب لها أن تدخل في عداد المساهمات الفكرية الكبرى .

لقد وضعت عنوانا لهذا المقال « نحو تحديد » واقصد ماتعنيه هاتان الكلمتان . فهو بمثابة خطوة أولى فقط لولوج بحث واسع الابعاد وله شروط عدة يجب أن تستوفى لاعطائه حقه كما أن له عدة زوايا نظر ونقاط انطلاق ومستويات اذكر منها : أولاً : الوثائق او القاعدة الوثائقية : لابد لأي باحث في هذه الحقوق من ان يجمع ويحصي احصاءً علمياً دقيقاً جميع الوثائق المتضمنة للبيانات والعهود والتصريحات والمعاهدات القومية والدولية مانشر منها وما لم ينشر بعد . وهو كثير منذ فجر النهضة العربية في الربع الاخير من القرن الماضي حتى يومنا هذا .

ثانياً — المستوى التاريخي : المعالجة التاريخية للحقوق العربية في فلسطين أو « تاريخية » هذه الحقوق خطوة اساسية في توضيحها . صحيح ان الوثائق جزء لايتجزأ من التاريخ ولكنها ليست التاريخ كله ويهمنا بالاضافة اليها امران : الوعي التاريخي والتفكير التاريخي . وفي اطار السعي لتحديد الحق العربي تاريخياً او تحديد الحقوق « التاريخية » لابد ان تكون لنا نقطة بداية وانطلاق نرتكز اليها . فهل هي النتائج التي ترتبت على حرب تشرين (اوكتوبر) المجيدة او ماترتب عن نكسة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ؟ هل نعود لعام ١٩٤٧ او ١٩٣٩ او ١٩٢٠ او ١٩١٧ ، او ١٩١٥ او ١٩١٣ او ١٩٠٨ . ذلك ان كل سنة من هذه السنوات ارتبطت بتطورات ايجابية احيانا وسلبية احيانا أخرى وذات صلة وثيقة ومباشرة بالحقوق العربية .

ماذا كان تصور الحقوق العربية عند اعلان الثورة العربية او في العهود البريطانية التي قطعها مكماهون للعرب او عند اعلان الكتاب الابيض للحكومة البريطانية لعام ١٩٣٩ او غيرها من العديد في منعطفات التاريخ الكبرى . وتصبح البداية ذات أهمية أكبر عندما ننظر اليها من خلال صراع الاجيال اذ ينسى جيل ناشىء ذاكرة الجيل أو الاجيال التي سبقته وما انطوت عليه من فهم للحقوق . فالزمن ينزل حجباً على حقوق فتنسى وتسدل ستائر على مظالم وفواجع فتغفل . ففي ذاكرة اي جيل نعيش . وفي صراع الاجيال هذا الا يمكن لجيل لاحق أن يطرح اسئلة مقلقة محرجة على جيل سابق حول حقوقه والحفاظ عليها أو التفريط بها ؟ هل ما كان حقاً ثابتاً قبل عشرة أو عشرين عاماً يصبح حقاً ثانوياً أو مهملاً لمرور السنين عليه ؟ وهل ثمة علاقة جدلية بين الزمن والحقوق ؟ هل تعطى الحقوق ام لا بد ان تنتزع انتزاعاً ؟ وهل يعرف التاريخ حقاً واحداً داسه الطغاة ولم يسترد الا من خلال صراع الانسان وبذل الدماء ؟ وان قلنا ببداية لننطلق منها فلا بد ان تكون هناك نقطة لنتوقف عليها . فهل هذا وقوف منهجي او مرحلي أو توقف قسري . ثم الثورات التحررية الجارفة التي عرفها الوطن العربي قبل بداية أية حركة او ثورة تحررية في أية قارة فهل هذا محض صدفة ام انه يتضمن مشيرات صوب حقائق اعمق في الكيان العربي . ولئن كان الانسان هو ابن التاريخ اليس هو ايضاً صانع التاريخ . والتاريخ ليس مجرد تطلع الى الوراء بل هو ايضاً تطلع الى الامام وهو يشمل المستقبل ويحتويه .

ثالثاً : المستوى القانوني، القانون يقرر الحق من حيث هو حق ويحدده من حيث ما فيه من صفات ذاتية وما له من تطبيق شامل كلي . ثم يضيع ذلك في أحكام وانظمة ومواثيق .

ثمة اسئلة عدة تثار على هذا المستوى . هل يجيز القانون ان يصبح الحق نسبياً ويتراجع امام حكم السيف وسياسة الامر الواقع بحيث ان ما هو حق بذاته وله تطبيق شامل كلي يصبح جزءاً من حق فقط اليوم أو غداً أو بعد غد ؟ من هو وما هو الحكم الاخير ؟ هل هو القانون الدولي كما يتجسم في المنظمات الدولية ؟ وهل له صفة الزامية ام ان شريعة القوة مازالت تتحكم في تقرير الحقوق وتقول الكلمة الاخيرة فيها ؟ واذا وصفنا الحقوق العربية بانها حقوق مشروعة فما هي حدود الشرعية واللاشرعية . أين تبتدىء واين تنتهي ؟ هل الحقوق « التاريخية » للشعب العربي الفلسطيني حقوق مشروعة اوغير

مشروعة . ومن الذي يقرر مشروعيتها أو عدم مشروعيتها ؟ هل هو الظالم الطاغي الذي احتــل الارض وداس كل حق أم هو المظلوم الذي لم يتنازل عن حقه ؟ هل هو منتزع الحق أو مموهه او المساوم عليه ؟ أم هو فرد أو هيأة او منظمة او محكمة دولية ، هذه الاسئلة وغيرها مما يمكن ان يثار على المستوى القانوني لابد ان تكون لنا أجوبة عليها . .

رابعاً – المستوى السياسي : عندما يصل تحديد الحقوق الى الجابهة السياسية يقع الحق الذي هو فوق الجدل في مواطن الجدل . ولما كانت علاقات المجتمعات البشرية بعضها مع بعض علاقة حتمية الزامية وهي في الانسان من حيث هو كائن اجتماعي فان ذلك كله يدخل في صلب السياسة وهي علم قائم بذاته ، وهي أيضاً فن الممكن في السعي للتوصل الى ما هو واجب . والسياسة كأي فن يمكن ان ترتفع وتهبط تبعاً لمن يمارسها . فقد تكون لعبة ماهرة لعبة ترضي اطماع رجل السياسة وترفه وطموحه .وقد يرتفع بها رجل الدولة الى اعلى واسمى ما يجب ان ترتفع اليه قوة النضال . وان كان حساب الربح والخسارة يدخل كعنصر اساسي في الممارسات السياسية فالامكان قائم ان يصبح الربح خسارة والخسارة ربحاً. وعلى هذا المستوى تثير قضية تحديد الحقوق العربية اسئلة مصيرية قلقة ملحة .

خامساً المستوى الفكري والعقائدي. الفكر والعقيدة يلعبان دورهما الحاسم بصورة شعورية او لاشعورية في تحديد الحقوق انطلاقاً من المواقف النهائية الأخيرة حول الانسان ومصيره . ولا بد ان يكون لنا موقف وان تكون لنا عقيدة في القضايا الانسانية الكبرى لحقوق الانسان التي ادت الاستهانة بها الى حربين عالميتين جارفتين كما اقر بذلك ميثاق الأمم المتحدة . والموقف من هذه القضايا الاساسية الأخيرة يفرض منهجاً في السلوك والسياسة والاخلاق . واذا لم تكن هناك قاعدة صلبة ثابتة من العقيدة والفكر تحول البحث في الحقوق والجهد لتثبيتها والوصول اليها الى مجرد ممارسات دبلوماسية احتفالية.

لكن هذه المستويات المختلفة وزوايا النظر المتعددة لتحديد الحقوق العربية ليست سوى تجريد للواقع وتجزئة له يعكسان عجز العقل البشري ان يحيط برؤيا كلية الحق الواحد بوجوهه المتعددة . فما هو واحد بذاته يصبح مجزءاً . ونفرض على الواقع حدوداً ليست في النهاية سوى حدود ذاتية فينا . ولنأخذ مثالاً على ذلك احد الحقوق التي

سأعالجها في موقع لاحق مستبقا بحثها للتدليل على ما اقول . وهو حق الفلسطينيين في الجنسية الفلسطينية . فالوثائق تثبتها . والتاريخ يؤكد قيامها . والقانون كان ضامنا وضمانة لها لما كان القانون معمولا به . والاجرام الارهابي اغتالها كما اغتال فلسطين والسياسة تآمرت عليها لطمسها ومحوها . والفكر والعقيدة يقضيان بالذود عنها والعودة اليها . لكن هذه الوجوه الخمس ليست سوى زوايا نظر متعددة لحق واحد ثابت وقس على ذلك ما يمكن ان نعالج من حقوق اخرى .

ونحن ننطلق في هذا البحث من التركيز لا على الاعتبارات القانونية الأساسية فحسب بل وحيث تعتبر هذه القضايا أيضاً ، امتحاناً للقانون الدولي ذاته . ذلك لو أن المبادىء القانونية الأساسية قد احترمت خلال السنوات الخمسين أو حتى خلال السنوات العشرين الماضية – كاحترام حقوق الشعوب ، وتنفيذ واجبات الدول ومسؤولياتها ، والتقيد بحرمة التعهدات والمواثيق الدولية – لما كان التاريخ الحديث للشرق الأوسط حافلاً بهذه السلسلة المأساوية من الاحداث التي شهدناها ونشهدها . والآن ، في هذه المرحلة من القلق والترقب ، التي تعيشها الدول العربية ، فمن البديهي أن يطالب العرب باستمرار بحقوقهم المغتصبة . انهم يتوقعون أن يوجهوا هذه النداءات في مناخ يسهل تفهم قضايا الانسانية الكبرى ، قضايا الحرب والسلام ، والعدالة والحقوق الانسانية والسيادة ، انه مناخ عالمنا الذي يسير بخطى مضطربة ، متعثرة نحو القانون الدولي وفي ظل هذا القانون .

١ – الحقوق العربية :

الحقوق الانسانية الأساسية :

منذ احداث حرب « حزيران العدوانية » ، والتي ما تزال حية في أذهاننا ، حددت حقوق اللاجئين الجدد ، فقد تبنى مجلس الامن في ١٤ حزيران ١٩٦٧ القرار رقم ٢٣٧ « ١ » ، وأعادت الجمعية العمومية تأكيده في قرار آخر في ١٤ تموز « ٢ » . ويطلب مجلس الامن بصورة جازمة من حكومة اسرائيل « تأمين سلامة وأمن وحسن معيشة سكان المناطق التي جرت فيها عمليات عسكرية وتسهيل عودة اولئك السكان الذين هربوا من المناطق المذكورة منذ اندلاع الحرب » .

وقد دعا كل من القرارين ، الامين العام . الى متابعة تطبيق بنودهما عملياً ومن ثم

وضع تقرير عن ذلك . وقدم الامين العام تقريراً أولاً في ١٥ ايلول ١٩٦٨ ، بعدما ارسل مبعوثه الخاص نلسن غاسينغ الى الشرق الاوسط «٣» وكما ورد في ذلك التقرير وفي تقارير اخرى حتى هذه الساعة ، رفضت اسرائيل باصرار تطبيق القرارين ، واتخذت المزيد من الاجراءات غير الشرعية ضد السكان المدنيين الباقين في الاراضي المحتلة . وما زالت مستمرة في رفضها رغم ان مجلس الامن والجمعية العامة اكدا القرارين السابقين حتى نشر هذه الدراسة اليوم .

واننا نؤكد ثانية ان اللاجئين الفلسطينيين العرب حقوقاً لا يمكن التنازل عنها وهي التالية :

١ ــ حق السيادة على فلسطين .

٢ ــ حق الجنسية الفلسطينية .

٣ ــ الحق في الملكية الفردية ، مع الحق في التعويض على الممتلكات التي صودرت بصورة اعتباطية او اخذت بالقوة .

٤ ــ حق العودة .

٥ ــ الحقوق المدنية والدينية .

٦ ــ حقوق الفلسطينيين داخل فلسطين .

٧ ــ الحقوق الثابتة التي لا يمكن التنازل عنها وفقاً لميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان .

وليست هذه الحقوق مجرد ادعاءات . فهنالك وثائق دولية تثبت شرعيتها ، من معاهدات وبيانات وتصريحات وتعهدات والعشرات من قرارات الامم المتحدة . ونكران هذه الحقوق يشكل جوهريا ما يشار اليه بمشكلة اللاجئين العرب الفلسطينيين ، التي كانت ولا تزال من اسباب الانفجار في الشرق الاوسط . لقد كان اول انكار للحق العربي وعد بلفور «٤» الذي وصفه القانوني الدولي المعروف الاستاذ هنري كاتن بقوله :

ان وعد بلفور الصادر عام ١٩١٧ والذي استخدمه الصهيونيون كوثيقة تملك لانشاء وطن قومي في فلسطين لم يتخذ مطلقاً اية قيمة قانونية . ان هذا الوعد الصادر عن الحكومة البريطانية والتي لم يكن لها في اي وقت اي حق في السيادة على فلسطين ، لايستطيع ان يقر حق السيادة لصالح اليهود لأن المتبرع لايستطيع ان يتبرع بما لايملك «٥».

لقد كانت سورية ، تاريخياً ، جزءاً لا يتجزأ من العـالم العربي ، ممتدة من جبال طوروس في الشمال الى مصر في الجنوب ، دون اي فاصل لغوي او طبيعي أو حـدود عرقية ذات اهمية ، ولم تجزئها خلال القرن التاسع عشر اية حدود قومية . كان يوحدها البحر في الغرب والجبال في الشمال والصحراء في الجنوب والشرق . غير انها جزئت عام ١٩٢٢ تحقيقاً لمصالح الدول العظمى .

على انه بالرغم من هذه الانتهاكات فان تعهدات اعطيت من الدول الكبرى حينذاك لضمان الحقوق العربية . وباستطاعة المرء الاستشهاد :

١ — بالفقرة المتعلقة بهذه الضمانات في وعد بلفور ، فهو بعد ان وعد بانشـاء (وطن قومي لليهود) اشترط بشكل حازم « عدم الحاق الاذى بالحقوق المدنية والدينية لغير اليهود في فلسطين » .

٢ — التصريح الانكلو - فرنسي لعرب سورية (غير المجزأة) والعراق في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ وهو واضح جداً فقد نص : « ان هدف فرنسا وبريطانية العظمى هو انشاء حكومات قومية وادارات تستمد سلطتها من ارادة الشعوب واختيارها الحر » (٦) .

٣ — اوصت لجنة كينغ - كرين التي ارسلها الرئيس ولسن الى المنطقة كي يتأكد من رغبات السكان في تقريرها المنشور في ٢٩ حزيران (يوليو) ١٩١٩ . « بأن تحفظ وحدة سورية وفاقاً مـع رغبة الاكثرية الساحقة من شعبها » . وجاء في التقرير نفسه : « بدأ المفوضون اعضاء اللجنة دراستهم للصهيونية وهم محبذون لها . غير أن حقائق الواقع في فلسطين ، ومضافاً اليها قوة المبادىء العامة التي أعلنها الحلفاء وقبـل بها السوريون ، قد حملتهم على اعطاء التوصية الآتية :

« ان القول بوطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين لا يعني جعل فلسطين دولة يهودية . وليس من الممكن ان يتم انشاء هذه الدولة دون ارتكاب اخطر الانتهاكات ضد الحقوق المدنية والدينية لغير اليهود في فلسطين » (٧) .

٤ — ان المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم الذي وقـع في ٢٢ حزيران ١٩١٩ لها اهمية خاصة لانها كانت الاساس لما عرف بعـد بالانتداب (١) على فلسطين وشرق الاردن والعراق ولبنان وسورية ، وهي تنص انه « يجب تطبيق المبدأ القاضي بضمان

تطوير وخير مثل هذه الشعوب وأن ذلك يشكل أمانة مقدسة في عنق الحضارة البشرية وان الضمانات لتأدية هذه الامانة يجب ان تدخل في صلب هذا الميثاق»(٨) واننا اذ نعود لبحث حقوق الفلسطينيين العرب التي عددناها سابقاً فحق علينا ان نلقي نظرة على صك الانتداب على فلسطين نفسه . ان المادة ٥ منه تنص « ان الدولة المنتدبة تضمن بأن اية قطعة ارض من فلسطين لن تفصل اوتؤجر او توضع بأي شكل تحت سيطرة حكومة اي دولة اجنبية » وتنص المادة ٧ أن « حكومة فلسطين ستكون مسؤولة عن وضع قانون الجنسية وان هذا القانون سوف يتضمن احكاماً موضوعة بشكل يسهل حصول اليهود الذين يختارون فلسطين مسكناً دائماً لهم على الجنسية الفلسطينية » (٩) .

ويجب اعطاء انتباه خاص للمادة ٧ من صك الانتداب لاسيما ونحن نبحث حق اللاجئين بالجنسية الفلسطينية ، ان هذه المادة تبين جدياً ان الجنسية الفلسطينية وان اليهود الذين يتخذون من فلسطين مقر إقامة دائمة يمكنهم الحصول على هذه الجنسية . والآن تنكر هذه الجنسية ذاتها على الشعب الذي كان يشكل ، عندما وضعت هذه المادة ، ٩٨٪ بالمئة من مجموع سكان فلسطين ، اي العرب .

كان تاريخ فلسطين منذ الانتداب حتى عام ١٩٣٩ تاريخ شعب عربي في ثورة مسلحة مستمرة ، وهو يرى نفسه يخضع لغزو تدريجي أصبح غزوا كاملا عام ١٩٤٧ . ولقد راى هذا الشعب ان حقه في تقرير المصير ينكر عليه ويفرض عليه بدلا من ذلك « وضع الاقليات » . وفي الوقت نفسه ايقنت الحكومة البريطانية مدى التنازع في المصالح بين العرب واليهود في فلسطين . وانه لمن المرهق البحث في جميع الوثائق الرسمية البريطانية التي نشرت بعد هذه الفترة ، وهي تؤكد مرة بعد اخرى ، حقوق العرب في ظل الانتداب . وسوف نذكر هنا وثيقتين فقط الاولى مذكرة تشرشل التي عرفت « بالكتاب الابيض » لعام ١٩٢٢ وقد جاء فيها :

« لقد صدرت تصريحات غير مسموح بها مؤداها ان الهدف البعيد هو تهويد فلسطين كلياً . وثمة من استخدم تعابير تقول ان فلسطين « ستصبح يهودية بقدر ما ان انكلترا انكليزية » . ان حكومة صاحب الجلالة تنظر الى اية اهداف كهذه على انها غير واقعية وليس لها مثل هذا الهدف . ولم تفكر في اي وقت ، كما يخشى الوفد العربي على ما يبدو ، بازالة السكان العرب والحضارة واللغة العربية في فلسطين ، وهي تلفت

الانتباه الى ان البيان المشار اليه (وعد بلفور) لا يقول بأن تحول فلسطين كلياً الى وطن قومي يهودي ، بل بأن مثل هذا الوطن يجب ان يؤسس في فلسطين » (١٠) .

ثانياً هنـاك التصريح البريطاني الصادر في ايار (مايو) ١٩٣٩ المعروف ايضاً « بالكتاب الابيض » والذي يحمـل اسم مكدونالد ، وقد عـاد واكد واجب الحكومة البريطانية في ظل الانتداب ، بضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين ، كما اكد ان « حكومة صاحب الجلالة تعتقد ان واضعي صك الانتداب الذي من ضمنه وعد بلفور لا يمكن ان يدخل في قصدهم ابداً ان تحول فلسطين الى دولة يهودية رغم ارادة السكان العرب لذلك البلد » (١١) .

هذه الوثائق والتعهدات ليست ملغاة أو معطلة ، وليست ذات فائدة أكاديمية فقط انها حقائق يتعذر استئصالها ويجب الاقرار بها في اي تقييم لما وقع من احداث بعد وخاصة نكران حق تقرير المصير على شعب فلسطين العربي ، عبر دعم الدول الكبرى للمؤسسات الصهيونية ومزاعمها العرقية . لقد كانت هذه هي الخطيئة الاصلية وعلى المرء أن يتذكر أن سوريا ولبنان وشرق الاردن والعراق أصبحت جميعها دولاً مستقلة، وان فلسطين وحدها ، من بين دول الانتداب لم تستقل ، وان هذا لم يكن مجرد صدفة من صدف التاريخ . إلا أنه بالرغم من ذلك قبل خمسين عاماً ووفقاً لبيانات الدول الكبرى حين ذاك، لم يكن لفعل أي انسان أن ينتقص من الصفة الاساسية والثابتة لحقوق الانسانية أو مفهوم ما هو حق بذاته . وواجب علينا أن نلاحظ أنه لولا انتهاك حرمه الشرعية والأخلاق فان الدولة الصهيونية (اسرائيل) المعتدية صبيحة الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كان لها حقوق مشبوهة مزيفة في أن تكون في فلسطين بادىء الامر . ولهذا فليس مما يثير العجب أن تكون قضية فلسطين أولاً ثم المشاكل المتفرعة عنها ثانياً قد أدرجت على جدول أعمال الامم المتحدة باستمرار كما ادرجت من قبل على أعمال عصبة الامم .

ب ـ الحقوق كما تعترف بها الامم المتحدة ١٩٤٨ - ١٩٦٧

لننتقل الآن الى الحاضر لنرى باية طريقة تصرفت وتتصرف اسرائيل حين تحاول الامم المتحدة ،عبر المناقشات وبالاعتماد على سلطة القانون ان تحكم في النزاعات المتفرعة عن قضية فلسطين .

ان شهادة ميلاد اسرائيل كانت قرار الجمعية العامة رقم ١٨١ تاريخ ١٩٤٧/١١/٢٩ (نوفمبر) الذي أوصى بالتقسيم مع الابقاء على الوحدة الاقتصادية . وكانت القوى السياسية تبذل مجهوداً كبيراً آنذاك لكي تضمن تصويتاً لصالحها على التقسيم ، بأي ثمن وبجميع الوسائل ، وطالبت الوفود العربية بأن تحال النواحي القانونية من المشكلة الفلسطينية على محكمة العدل الدولية وهو اجراء نصت عليه المادة / ٣٦ / من ميثاق الأمم المتحدة كما قررته المادة ٢٦ من صك الانتداب التي تنص.

« توافق الدولة المنتدبة عند حدوث اي نزاع بينها وبين اي عضو آخر في عصبة الامم ، يتعلق بتفسير تطبيق بنود الانتداب ان يحال مثل هذا الخلاف ، اذا لم يكن من تسويته بالمفاوضة الى المحكمة الدائمة للعدل الدولي البت فيه »

ويجب الملاحظة هنا بأن مصر والعراق ، اللتين كانتا بين الدول التي تبنت هـذا الطلب ، كانتا عضوان في عصبة الامم وهذا يعني ان المادة المذكورة اعلاه لا تحتمل تفسيرين في تطبيقها . ولكن عندما جرى التصويت على التحكيم لدى المحكمة الدولية كانت النتيجة ٢٠ صوتاً معه و ٢١ صوتاً ضده ، وهكذا قرر صوت واحد مصير فلسطين وهو تصويت سياسي يخضع للاهواء والمصالح لا لحكم قانوني .

وشهادة الميلاد هذه نفسها ، هي التي حددت بنود اعلان استقلال اسرائيل . فالمادة ١٠ من القسم الاول من مشروع التقسيم تقضي بأن « تضع الجمعية التأسيسية لكل دولة (أي الدولة اليهودية المقترحة والدول العربية) دستوراً ديمقراطياً لدولتها وان تختار حكومة مؤقتة تخلف مجلس الحكومة المؤقتة الذي عينته اللجنة (اللجنة الدولية لفلسطين). وكان على الدستور ، كما تنص الفقرة « ب » من هذه المادة ، ان يضمن حقوقاً متساوية لافريق بينها في القضايا المدنية والسياسية والاقتصادية والدينية وفي التمتع بالحقوق الانسانية والحريات الاساسية » .

في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ عين الكونت فولك برنادوت وسيطاً وقد ذكر في في تقريره للدورة الثالثة للجمعية العامة ما يلي :

« ان اية تسوية لا يمكن ان تكون عادلة وكاملة ما لم يتم الاعتراف بحق اللاجيء العربي في العودة الى المنزل الذي طرد منه نتيجة استراتيجية النزاع المسلح بين العرب واليهود في فلسطين . ان اكثرية اللاجئين قد جاءت من ارض سوف تضم ، وفقاً لقرار الجمعية العامة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) الى الدولة اليهودية وانه لاستهتار ضد مبادىء

العدالة ان ينكر على ضحايا النزاع البريئين هؤلاء ، الحق في العودة الى منازلهم في وقت يتدفق المهاجرون اليهود على فلسطين ويشكلون في الواقع ، وعلى الاقل ، خطر استبدال دائم للاجئين العرب الذين لهم جذورهم في الارض منذ قرون٣» .

ومن الواضح ان الصهيونيين ، الذين ارادوا دولة تكون يهودية بقدر ما هي انكلترا انكليزية ، لم يكن بامكانهم ان يبقوا على العرب في دولتهم ، لانهم كانوا سيشكلون اكثرية حتى في تلك الدولة . ويمضي الكونت برنادوت ليؤكد ما اقترفه اليهود من اعمال النهب والسلب والسرقة وتدمير القرى العربية دون اية ضرورة عسكرية ظاهرة . ويقول ان « مسؤلية الحكومة الاسرائيلية المؤقتة في اعادة الممتلكات الخاصة لمالكيها العرب وفي التعويض لاولئك المالكين على الممتلكات التي دمرت عمداً ، هي واضحة تماماً بصرف النظر عن التعويضات التي قد تطالب بها الحكومة المؤقتة من الدول العربية ١٤ » .

غير ان الكونت برنادوت قد اغتيل مع احد مساعديه ، في القدس في ١٨ ايلول (سبتمبر) تحت اعين السلطة الاسرائيلية وهو يسعى حثيثا للسلام ، واعرب مجلس الامن في قرار صوت عليه « عن الصدمة من جراء العمل النذل » الذي قامت به « مجموعة اجرامية من الارهابيين اليهود ١٥ » . وبعد ذلك بشهر واحد صوت مجلس الامن على قرار جاء فيه ان « حكومة اسرائيل المؤقتة لم تقدم حتى هذا التاريخ اي تقرير لمجلس الامن او للوسيط بالوكالة . فيما يتعلق بالتقدم في التحقيق بعملية الاغتيال » . وذكر « ... الحكومة والسلطات المعنية بان جميع الالتزامات والمسؤوليات التي تترتب عليها يجب ان تنفذ كاملة وبنية حسنة ١٦ » .

في ١١ كانون الاول (ديسمبر) صوتت الجمعية العامة على القرار ١٩٤ الذي عالج النواحي القانونية لوضع اللاجئين وحدد حقوقهم . وقد تضمن الفقرة ١١ التي اصبحت اساسا لكل قرار اتخذ بشأن اللاجئين ابتداءا من عام ١٩٤٩ وفيما يلي نصها الكامل :

« ان اللاجئين الذين يرغبون في العودة الى منازلهم وأن يعيشوا بسلام مع جيرانهم يجب ان يسمح لهم بذلك في اقرب فرصة ممكنة ويجب ان يدفع تعويضا لاولئك الذين لا يختارون العودة كما يجب أن يعوض على الخسائر او الاضرار بالممتلكات وفقا لمبادىء القانون الدولي او العدالة من قبل السلطات او الحكومات المعنية ١٧ »

وانشأ القرار نفسه لجنة توفيق هدفها تطبيق الفقرة المذكورة اعلاه . وفي ١١ أيار (مايو) ١٩٤٩ صوتت الجمعية العامة على قبول إسرائيل عضوا في الامم المتحدة .

وجاء في الفقرة /٤/ من القرار انها «اخذت بعين الاعتبار تصريح حكومة اسرائيل بانها تقبل دون تحفظ التزامات ميثاق الامم المتحدة وتلتزم بالمحافظة عليها منذ اليوم الذي تصبح فيه عضواً في الامم المتحدة (١٨)

في ١٢ أيار (مايو) ٩٤٩ ، تم توقيع اتفاق لوزان (١٩) تحت اشراف لجنة التوفيق . وقد نص الاتفاق على مايلي « ان لجنة التوفيق من أجل فلسطين التابعة للامم المتحدة حرصاً منها على أن تحقق بأسرع وقت ممكن أهداف قرار الجمعية العامة الصادر في ١١ أيار ١٩٤٨ ، بشأن مسائل الحدود وغيرها ، قد اقترحت على وفد اسرائيل وعلى وفود الدول العربية ، ان يصار الى اتخاذ « وثائق العمل » المربوطة طيه ، كأساس للمباحثات مع اللجنة ٢٠ » .

وقد ربطت الى هذه الوثيقة خريطة لفلسطين تضمنت الحدود التي رسمها قرار التقسيم للجمعية العامة رقم ١٨١ (دورة ٢) الصادر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ أو الذي اتخذ كأساس للمباحثات مع اللجنة ٢١ .

وماحدث بعد ذلك وصفته لجنة التوفيق في الفقرة ٢٣ من التقرير الثالث حول تقدم أعمالها قالت : « لقد وفر اتفاق ١٢ أيار ١٩٤٩ نقطة انطلاق واطاراً للبحث في مسائل الحدود ٢٢ وقد تقدم وفد اسرائيل بمقترحات حولها ، طالباً اعتبار الحدود الدولية لفلسطين الواقعة تحت الانتداب حدوداً لاسرائيل ، وعندما احتجت الوفود العربية على أساس ان هذا الاقتراح يشكل خرقاً من اسرائيل لشروط الاتفاق الموقع في ١٢ أيار أجاب الوفد الاسرائيلي بأنه لا يمكنه قبول توزيع معين للأرض اتفق عليه في ١٩٤٧ كقياس لتسوية مسألة الحدود في الظروف الحاضرة ٢٣ .

والآن عندما يقف الجيش الاسرائيلي حيث هو اليوم ، في أراض محتلة لثلاث دول عربية أعضاء في الامم المتحدة ، ويجعل من انسحاب قواته شرطاً للحصول على « حدود آمنة ومتفق عليها » يستطيع المرء أن يرى بسخرية كيف أن التاريخ يعيد نفسه .

النتائج القانونية المترتبة عن الفقرة ١١ من القرار رقم ١٩٤ (الدورة ٣) :

نصت جميع القرارات التي صدرت بعد عام ١٩٤٨ سواء في ما يتعلق بحقوق اللاجئين في العودة او التعويض او بصلاحيات لجنة التوفيق ومهامها وتمديد ولايتها

أو ولاية الاونروا اوالمشاريع الاقتصاديةلتشغيل اللاجئين قد نصت كلها على عدم المساس بالفقرة ١١ من القرار ١٩٤ (الدورة ٣) اي بحقوق اللاجئين في العودة او التعويض المترتبة عنهـا . وكل قرار صدر بشأن حقوق اللاجئين حق السنة التي تتوقف عليها عاد فأكد الفقرة ١١ نصاً وروحاً . وليس من مبالغة القول انه ما من فقرة استشهد بها كل سنة عند مناقشة قضية اللاجئين كهذه الفقرة. وبالتخصيص فقد صدر بين ١٩٤٩ و ١٩٦٨ عن الجمعية العامة اثناوعشرون قراراً اكدت كلها الفقرة ١١ من القرار ١٩٤ . ووضعت الدائرة القانونية التابعة للمنظمة بين ١٩٤٩ و ١٩٥١ ست دراسـات حول تفسير الفقرة ١١ وتطبيقها والسوابق في القانون والعرف الدولي لهـا وذلك من اجل مساعدة لجنة التوفيق في سعيها من اجـل تطبيقها (٢٤) . كل ذلك يستدعي ان نتوقف على هذه الفقرة التي مازالت قائمة كتشريع دولي لا سيما على ضـوء الكثير مما يقال عن حقوق العرب « المشروعة » في فلسطين .

من العودة لنص الفقرة ١١ نجد انها تؤكد حق اللاجئين في العودة لمنازلهم وحقهم في التعويض مصنفا الى صنفين أ – التعويض على اللاجئين الذين لا يرغبون العـودة ب – التعويض على اللاجئين الذين خسروا ممتلكاتهم والحقت أضرار بها .

وجميع هذه الحقوق كما تنص الفقرة ١١ يجب ان تطبق « وفقا لمبادىء القانون الدولي او بالعدالة » فماذا يعني ذلك ؟

عالجت احدى الدراسات الست التي أشرنا اليها مبادىء العودة والتعويض والسوابق والشواهد التاريخية بأسهاب قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها . وتشير هذه الدراسة الى ما تم في دول المحور السابقة والدول التي كانت محتلة من قبل دول المحور – فرنسا ، رومانيا ، ايطاليا ، بلغاريا ، تشيكوسلوفاكيا هولندا ويوغوسلافيا – من سن وتنفيذ عدة قوانين بين تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ (مايو) ١٩٤٥ بشأن التعويض عـلى اللاجئين أو اعادة ملكيتهم لهم . وتم مثل ذلك أيضاً للاحتلال الامـيركي من المانيا إذ أقر عـام ١٩٤٩ قانون عام لدفـع التعويضات لضحايا النازية الذين عانوا من أضرار الحياة أو لحقهم اذى في الصحة أو الحرية او ممتلكاتهم أو في نموهم الاقتصادي (٢٥)

وتشير الدراسة ذاتها أيضاً الى أن مؤسسة الشؤون اليهودية التابعة « للكونغرس اليهودي العالمي World Jewish Congress عالجت خلال الحرب العالمية الثانية مسألة

التعويض على اللاجئين اليهود ونشرت عام ١٩٤٤ كتاباً الفه نيهيايا روبنسون عنوانه « تعويضات وجزاءات » Indemnities and Repations . والنظرية الاساسية التي استند اليها صاحب هذا الكتاب هي أن ظلماً فادحاً سينجم من جراء اتباع القاعدة العامة وهي أن تطالب الدول تعويضات من حكومات اجنبية لمواطنيها فقط الذين كانوا مواطني تلك الدولة نفسها حين لحقتهم الاضرار. وذهب الكاتب الى أنه لا يجوز استثناء ضحايا دول المحور الذين اكتسبوا في مابعد جنسية دول أخرى اصبحوا مجرد مقيمين فيها أو لاجئين اليها — ودعا بشدة الى التدخل لصالح الضحايا الذين لم يغادروا بلدهم الاصلي او الذين بقوا فيه .

وتشير الدراسة نفسها الى مشكلة لاجئين حديثة التاريخ نسبياً وفيها بعض وجوه الشبه مع مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وهي ماوقع بين الهند وباكستان . « فقد اتفقت حكومتا الهند وباكستان على مبدأ يقضي بان املاك اللاجئين المنقولة منها وغير المنقولة يجب أن تبقى للاجئين . وقد تم تعيين حراس Custodians لعناية بمثل هذه الممتلكات وإدارتها لصالح المالكين . وفي الوقت نفسه تم تعيين دائرة تسجيل الطلبات التي يتقدم بها اللاجئون وأعطيت تعليمات لتسجيل الاملاك التي يخلفونها وراءهم » .

وبالاضافة الى أن المنظمات الاسرائيلية واليهودية والصهيونية واليهود والافرادقد تلقوا أكثر من مليار دولار كتعويضات من ألمانيا الغربية نجد التشريع الاسرائيلي يذهب عكس ذلك يقضي بمصادرة الاراضي العربية التي هي ملك شخصي للاجئين العرب « المنفيين » . فقد استصدرت حكومة اسرائيل بين ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ثلاثة قوانين : قانون المناطق المتروكة ، انظمة أملاك الغائبين وأنظمة الطوارىء للاراضي المبورة . وعرف الغائب بموجب هذه القوانين بان أي عربي كان في ٢٩ تشرين ثاني نوفمبر ١٩٤٧ — وهو تاريخ صدور قرار التقسيم — واحداً من الفئات الاربع : أ — مواطناً في أية دولة عربية او من رعايا تلك الدولة (ب) كان يقيم في أية دولة عربية لأية فترة من الوقت (ج) كان في أي جزء من فلسطين خارج المنطقة التي تحتلها اسرائيل (د) كان في أي مكان غير مسكنه المعتاد حتى اذا كان مثل هذا المكان أو مسكنه المعتاد يقعان داخل المنطقة التي تحتلها اسرائيل .

وقد أعلنت كل منطقة تم احتلالها او استلامها او افراغها من قبل اصحابها

بالقوة منطقة متروكة ومباعة من « الحارس القضائي الاسرائيلي » الى « سلطة التنمية الاسرائيلية »(٢٦) .

ان بحث مشكلة اللاجئين من زاوية ملكية العرب للاراضي في فلسطين يكشف عن الابعاد الكبيرة للمشكلة والظلم الفادح الذي أدى لتصفية الحق العربي في فلسطين. فالاحصاءات الرسمية التي قدمتها الحكومة البريطانية بوصفها الحكومة المنتدبة على فلسطين لمنظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ تثبت ان ملكية اليهود في فلسطين تبلغ فقط ٥٫٦٪ بالمائة من مجموع مساحة فلسطين . ويضم التقرير خريطة تظهر ملكية العرب واليهود في كل منطقة من المناطق وتقسيماتها .

وفي عام ١٩٤٨، خرقاً لقرار التقسيم وللحدود التي رسمها القرار، وفي عام ١٩٤٩ خرقاً لاتفاقيات الهدنة التي عقدتها اسرائيل مع البلاد العربية المجاورة ، استولت اسرائيل على ١٤٠٠ ميل مربع اضافية زيادة على ماخصصه لها قرار التقسيم واصبحت تسيطر بذلك على أكثر من ٧٩ بالمئة من مجموع مساحة فلسطين . وبموجب التشريع الاسرائيلي المشار اليه أجازت اسرائيل لنفسها الاستيلاء على أملاك اللاجئين العرب المنقولة وغير المنقولة كما استباحت مصادرة واستملاك أراض عربية أخرى سواء كان أصحابها لاجئين أو غير لاجئين . والأرقام التالية تظهر فداحة الظلم الذي لحق باللاجئين . فمن أصل ٣٧٠ مستوطنة اسرائيلية جديدة أقامها اليهود بين ١٩٤٨ و١٩٥٣ ٣٥٠ منها أقيمت على أملاك « الغائبين » . وفي عام ١٩٥٤ كان أكثر من ثلث سكان اسرائيل يعيشون على أراضي « الغائبين » العرب وفي املاكهم . واستقر ثلث اللاجئين الجدد الذين بلغ عددهم حتى هذه السنة ٢٥٠ الفاً في مدن تركها العرب كيافا وعكا واللد والرملة وبيسان ومجدل . ويدخل في ذلك ٣٨٨ بلدة وقرية تركها العرب وأقسام كبيرة من ٩٤ بلدة ومدينة أخرى تتضمن تقريباً ربع جميع الابنية في اسرائيل . وهنالك أكثر من عشرة آلاف مخزن ومتجر ومحل عمل تركت في أياد يهودية . وفي عام ١٩٥١—١٩٥٢ أنتجت المزارع العربية التي استولت عليها اسرائيل مليون وربع مليون صندوق فواكه صدرت اسرائيل منها ٤٠٠٠٠٠ الف صندوق . وبلغ مجموع دخل ماصدر من الفواكه فقط من الممتلكات العربية ١٠ بالمئة من النقد الاجنبي الذي حصلت عليه اسرائيل . وفي عام ١٩٥١ شملت الاراضي المتروكة « للغائبين » ٩٥ بالمئة من جميع مزارع الزيتون في

اسرائيل و ٤٠ الف دونم من الكرمة و ١٠٠٠٠٠ دونم من بساتين فواكه اخرى ماعدا الحمضيات (٢٧) .

والسؤال الذي ينشأ هو التالي : هل يمكن لحكم القوة أو لحكم قائم على القوة ان يعطل حقاً ؟ هل يعطي الغزو الغازي صك تملك شرعي للأرض التي احتلها ؟ أجاب العالم القانوني فيليب مارشال على هذا السؤال بما يلي : « ان الاحتلال العسكري بذاته لايعطي صك تملك شرعي او يزيل أمة ... وطالما ان الشعب لايقبل الغزو العسكري وطالما يستطيع التعبير بشكل أو بآخر عن ارادته الثابتة باستعادة حريته فان سيادته تستمر حتى اذا انتقص منها أو انحطت الى حين (٢٨) .

٣ ـ مسؤولية المبادرة بالعدوان

يعتقد الكثيرون الآن وخاصة اولئك الذين غسلت أدمغتهم الدعاية الصهيونية أن العرب مسؤولون عن المآسي التي حلت بهم لأنهم تحدوا قرار التقسيم وان الامور سارت في مجراها الطبيعي في فلسطين من ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩ تاريخ التقسيم حتى ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ ، يوم اعلان انشاء اسرائيل ، وانتهى بهجوم العرب على الدولة الجديدة. وثمة من استنتج بأن العرب جلبوا على أنفسهم خسارة حقوقهم، لقيامهم بعدوانهم. لكن هذه ليست هي الحقيقة . ان التشديد على الوقائع الحقيقية في تاريخ هذه المرحلة ليس فقط وثيق الصلة بالموضوع الذي نبحثه بل هو ضروري أيضاً لتقييم المطالب العربية .

ولوضع هذه المرحلة التاريخية في اطارها الصحيح ، أذكر هنا شهادتين رسميتين، الاولى رسالة بعث بها البريغادير جنرال باتريك ج . هورلي ، الممثل الشخصي للرئيس روزفلت الى الرئيس من القاهرة في ٥ أيار ١٩٤٣ قال : « ان المنظمة الصهيونية في فلسطين قد أشارت من جهتها الى التزامها ببرنامج لتنفيذ مايلي (١) اقامة دولة يهودية تضم فلسطين وربما شرق الاردن و (٢) نقل السكان العرب في النهاية من فلسطين الى العراق. و (٣) الزعامة اليهودية للشرق الأوسط كله في حقول التنمية الاقتصادية والاشراف عليها » (٢٨) .

أما الشهادة الثانية ، فكانت برقية من القاهرة أرسلها الوزير الاميركي المفوض كيرك الى وزير الخارجية في ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣ قال :

« بالنسبة الى الجانب اليهودي لقد وجدت أن المسؤولين الصهيونيين في الوكالة اليهودية لايترددون في تصريحهم علناً بعزمهم على ان تصبح فلسطين في نهاية هذه الحرب، ليس فقط مجرد وطن قومي لليهود بل دولة يهودية برغم اية معارضة تصدر عن مليون عربي يعيشون هناك. ويبدوان نتيجة محاولاتهم في كثير من الحالات هي حمل الفلسطينيين العرب على خرق الهدنة الغير رسمية التي وجدت منذ بدء الحرب » .

« وليس سراً أن الهاغانا ، وهي منظمتهم اليهودية العسكرية السرية ، لديها خطط مجهزة كاملة ، وهي مجهزة جيداً ليس فقط بأسلحة صغيرة بل برشاشات اشترت اكثرها من قوات فيشي في سوريا وتم تهريبها الى فلسطين خلال السنتين الماضيتين ٢٩ » .

أما بالنسبة لما حدث فعلاً ، لا وفقاً الرواية التي روجتها الدعاية الاسرائيلية ، فاننا نعتمد الكاتب اليهودي ا . ف . ستون ، الاميركي مؤلف « الهجرة اليهودية السرية لفلسطين » و « هذه هي اسرائيل » والذي كان صهيونياً حتى عام ١٩٦٧ وانقلب ضدها فقد كتب يقول :

« وصلت الى فلسطين في ذكرى وعد بلفور ، في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥ ، وهو اليوم الذي نسفت فيه الهاغانا الجسور وابراج المراقبة لتبدأ صراعها ضد القيود البريطانية وقيود الهجرة ، وفي الربيع التالي كنت أول صحافي يسافر مع مهاجرين يهود بصورة غير شرعية من الحدود البولونية – التشيكية عبرالمطار البريطاني وفي ١٩٤٧ احتفلت بعيد الفصح اليهودي في معسكر احتجاز بريطاني في قبرص وفي ١٩٤٨ ، غطيت ، صحافياً ، الحرب العربية – الاسرائيلية(١) » .

ويقول في مقال نشر في ٣ آب (اغسطس) ١٩٦٧ :

« ان الارهاب اليهودي ، ليس فقط على أيدي الارغون ، كما حدث في مذابح وحشية مثل مذبحة دير ياسين ، بل وبأشكال اكثر اعتدالاً على ايدي الهاغانا نفسها قد « شجع » العرب على مغادرة مناطق رغب اليهود في الإستيلاء عليها لاسباب ديموغرافية واستراتيجية . لقد حاولوا ان يجعلوا اسرائيل محررة من العرب الى ابعدحد يستطيعون تحقيقه »(٣١) ويقول ايضاً :

« الخرافة القائلة ان اللاجئين العرب قد فروا لان الاذاعات العربية حثتهم على ذلك قد حللها ارسكين ب . تشالدرز في مجلة (سبكتيتر) اللندنية في ١٢ آيار

(مايو) ١٩٦١ . ان التدقيق في تسجيلات الاذاعات الاميركية والبريطانية لم تظهر أنه كان هناك أية نداءات من هذا النوع بل على العكس صدرت أوامر لعرب فلسطين بالبقاء في امكنتهم »(٣٢) .

والدليل الذي لايرقى اليه الشك بان الصهيونيين كانوا البادئين في العدوان في حرب ١٩٤٧ الى ١٩٤٨ قد قدمه مناحم بغن بطل مذبحة دير ياسين ، في كتابه«الثورة»(٣٣) فهو يروي كيف ان الهاغانا القوة العسكرية المعترف بها للمؤسسة الصهيونية في فلسطين بعدما التزمت مبدأ « الهجوم الدفاعي » ، ضمت قواها الى جماعة (الارغون) الارهابية وتم توقيع اتفاق سري بين الوكالة اليهودية بوصفها السلطة العليا للهاغانا وبين « الارغون تسفاي لومي » للهجوم على العرب . لقد كان هذا في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ ، عندما كانت اللجنة الدولية المشكلة قانونياً بسلطة من الجمعية العامة ماتزال تسعى الى تطبيق سلمي للتوصية التي صوتت عليها الجمعية العامة للتقسيم . وهو يقول في فصل عنوانه « غزو يافا » مايأتي :

« في الشهور التي سبقت الغزو العربي (....) استمرينا في القيام بهجمات داخل المنطقة العربية . غير أننا في الايام الاولى من ١٩٤٨ كنا نشرح لضباطنا ورجالنا ان هذا لم يكن كافياً . وكانت الهجمات من هذا النوع التي تقوم بها القوات اليهودية في الواقع ذات اهمية نفسية ، كما ان تأثيرها من حيث انها كانت توسع الجبهة العربية وترغم الاعداء للانتقال الى الدفاع لم يكن دون قيمة . لكنه كان واضحاً لنا أنه حتى اكثر الهجمات جرأة التي تقوم بها قواتنا لم تكن قادرة على حسم المسألة . كان املنا يكمن في السيطرة على الارض العربية » (٣٤) .

« وفي نهاية كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ ، وفي اجتماع لقيادة الارغون اشترك فيه قسم التخطيط ، حددنا أربعة اهداف استراتيجية : ١ — القدس ٢ — يافا ٣— سهل اللد — الرملة ٤ — المثلث »(٣٥) .

وكانت خطة التقسيم تقضي بان تكون القدس قسماً دولياً قائماً بذاته ويافا جزءاً من الدولة العربية . وفي ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٤٨ قبل ثلاثة اسابيع من بدء العرب بعملياتهم العسكرية خاطب بيغن قواته وهي في طريقها الى يافا « يارجال الارغون ؟ اننا ذاهبون للاستيلاء على يافا . اننا ذاهبون الى واحدة من المعارك الحاسمة في تاريخ

إسرائيل »(٣٦) . وبعد ان يعطي وصف المعركة يؤكد لنا ان غزو يافا كان أحد المعارك الحاسمة في الحرب العبرية من أجل الاستقلال .

وهكذا بدأت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، لان سكان يافا عملياً كانوا جميعهم من العرب . وقبل ان تطأ قدم أي جندي عربي أرض فلسطين كان اكثر من (٤٠٠ الف عربي فلسطيني) قد هربوا من منازلهم خوفاً من القتل .

طبعاً كان للصهيونيين وجهة نظرهم حول مثل هذا النشاط العسكري ، اعرب عنها أحد قادة الهاغانا مونيا ماردور « الذي اصبح في وقت لاحق المدير العام لهيئة الابحاث وتطوير الاسلحة في اسرائيل) في كتاب اسماه « الهاغانا »(٣٧) . فهو يروي لنا خبر صفقات الاسلحة السرية في الدول الاجنبية وطريقة تهريبها الى ان يقول : « لقد كنا متآمرين خارجين على القانون ولكن كنا نطيع ماكان بالنسبة الينا قانونا اعلى »(٣٨) .

والآن يطلب الى العرب ، باسم التسوية والواقعية والامر الواقع ان يعترفوا بهذه الانجازات « الخارجة على القانون » وأن يقبلوا الارهابيين المتآمرين » على انهم ورثاء شرعيون لهم في حقوقهم وارضهم .

النتائج المترتبة على هذا القسم

يجب ان يكون قد اصبح واضحاً ان الاسانيد القانونية والتاريخية ، القديمة منها والحديث، التي تؤكد الحقوق العربية في فلسطين ثابتة وواضحة. لكن اسرائيل والصهيونية استطاعتا خرقها كما استطاعتا تجاهل الضمانات الدولية بل وأيضاً عشرات القرارات للامم المتحدة المؤكدة لحقوق العرب .

ولقد قيل أكثر من مرة ان على العرب أن يقبلوا بالأمر الواقع الذي حققته اسرائيل ، ولكن بين ١٩٤٧ واليوم ليس هناك « أمر واقع » واحد بل أكثر من « أمر واقع » في طمس الحقوق العربية . ويفضل العرب لا أن يستكينوا للامر الواقع بل يتفقون مع وزير العمل الاميركي في بيان القاه في مؤتمر وزراء العمل في فنزويلا قال فيه « التغيير هو حليفنا ونحن نجابه بشدة أولئك الذين يحاربون التغيير لأن الامر الواقع في مصلحتهم . ان الحق الالهي الذي يمنحه الناجحون لأنفسهم هو مبدأ معادل في الفساد لمبدأ الحق الالهي للملوك(٣٨) .

ولنتساءل الآن ونحن نبحث الاسس القانونية ان كان الامر الواقع يشكل قاعدة القانون الدولي واساساً للتعامل بين الشعوب . ونتفق بالرأي مع سياسيين اميركيين — بأن أي امر واقع لا يمكن أن يشكل سابقة تقبل في القانون الدولي طالما ان ضحايا الامر الواقع لا يسلمون به ويعترضون عليه ، الاول مستشار وزارة الخارجية الاميركية هرمن فليفر الذي ادلى ببيان عام ١٩٥٤ قال فيه :

« لقد حدد القانون الدولي على أنه تلك القواعد في التعامل الدولي التي لاقت قبولا عاماً بين أسرة الامم » .

« لكن هناك شيئاً اسمه القانون الدولي . ولقد كانت له مهمة طويلة مشرفة وان تكن متعثرة أحياناً . وانني أتكهن بأنه سيلعب دوراً أكثر أهمية في المستقبل مما كان له في الماضي . واعتقد أن في هذا العالم الذي تتقلص حدوده بسرعة أصبح من الواضح أكثر فأكثر أن بقاءنا يتوقف على نجاحنا في احلال حكم القانون محل حكم القوة » ٣٩ .

ومن مؤسسة القانون الاميركي صدر « اعلان عن قانون العلاقات الخارجية الاميركية » يتضمن ما يلي :

الاعتراض على الممارسات كطريقة لمنعها من ان تصبح قاعدة في القانون :

ان نمو العرف لدرجة يصبح معها قاعدة في القانون الدولي يتوقف على درجة قبول الاسرة الدولية به . فاذا ما أقرت دولة عرفاً ما ، لا سابقة له في القانون الدولي ، فان عدم اعتراض الدول الأخرى عليه دليل على أنها لا تعتبره غير شرعي . واذا ما اتخذ هذا العرف صيغة أكثر عمومية دون اعتراض من دول أخرى فان هذا العرف قد يثير امكانية تحوله الى قاعدة في القانون الدولي . لأن الاخفاق في الاعتراض على العرف قد يرتقي الى اعتراف به . وان اعتراض دولة ما على عرف تمارسه دولة أخرى هو وسيلة مهمة لمنع تطور قواعد القانون الدولي » ٤٠ .

« ان الأمر الواقع » الذي أنشأته اسرائيل ، والذي يلغي الحقوق العربية ، لقي اعتراضاً ليس فقط من الدول العربية بل من أكثرية الدول الاعضاء في الامم المتحدة ، التي أكدت طوال السنوات العشرين الماضية وأعادت تأكيد حقوق اللاجئين العرب في العودة أو التعويض . ولقد صوتت حكومة الولايات المتحدة باستمرار على صالح هذه

القرارات ، في حين عارضت مشاريع القرارات الهادفة الى ضمان حقوق الملكية العربية بشكل فعال .

ان أكثر الاعتراضات ايجازاً واحكاماً على « الامر الواقع » الذي فرضته اسرائيل واضح فيما أورده الامين العام يوثانت ، في تقريره السنوي للدورة الثانيـــة والعشرين للجمعية العموميـــة قال : « اي شعب في أي مكان وهذا ينطبق بالتأكيد على اللاجئين الفلسطينيين لهم حق طبيعي في أن يكونوا في أرضهم الأم وان يكن لهم مستقبل »٤١.

الحقوق التي اعترفت بها الأمم المتحدة منذ عام ١٩٦٩

ان التطور الجديد البالـغ الأهمية الذي طرأ على معالجة حقوق العرب وقضيـة فلسطين ، هو ماوقع في دورة الجمعية العمومية الرابعة والعشرين للعام ١٩٦٩ مما كسر الطوق الروتيني الذي كانت تناقش قضية فلسطين من ضمنه بعد العام ١٩٥٢ وهو تطور عكس ضمن الامم المتحدة التطور الذي طرأ على قضية فلسطين خارجها . فقد أصبحت قضية فلسطين قضية ثورة ومقاومة وقضية شعب يطالب بحقوقه عن طريق الكفـــاح المسلح بعدما تحولت في الامم المتحدة الى قضية لاجئين واغاثة وتبدلت صورة الفلسطيني من لاجيء الى مناضل .

ففي ١٠/١٢/١٩٦٩ صوتت الجمعية العمومية على القرار ٢٥٣٥ ب الدورة ٢٤ نتيجة لمناقشة بند « التقرير السنوي لمدير وكالة الاونروا » وقد جاء في القرار أن « الجمعية العامة » اذ تقر بأن مشكلة اللاجئين العرب نشأت عن انكار حقوقهم الثابتة التي لايمكن التخلي عنها المقررة في ميثاق الأمم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان تعود فتؤكد الحقوق الثابتة لشعب فلسطين » .

وهذا هو أول اقرار صريح من الامم المتحدة بأن اللاجئين العرب شعب لامجرد كتلة من اللاجئين وان لهذا الشعب حقوقه بموجب ميثاق الامم المتحدة . فما هي هـذه « الحقوق الثابتة التي لايمكن انتزاعها » من أصحابها أو التخلي عنها؟

في العام ١٩٧٠ خطت الامم المتحدة خطوات أبعد في توضيح هـــذه الحقوق وتفصيلها حين صوتت على قرارها ٢٦٧٢ (الدورة ٢٥) في ٨/ ١٢/ ١٩٧٠ بعد مناقشة بند « التقرير السنوي لمدير وكالة الاونروا » .

وحدد هذا القرار وفي وضوح أكثر حقوق الشعب الفلسطيني . فالجمعية العامة بعدما استذكرت قرارها السابق ٢٥٣٥ ب (الدورة ٢٥) وما جاء فيه ، أكدت « ضرورة الاخذ بمبدأ تساوي الشعوب في الحقوق وحقها في تقرير المصير المكرس في المادتين ١ و ٥٥ من ميثاق الأمم المتحدة والذي أعيد تأكيده في الاعلان الخاص بمبادىء القانون الدولي المتعلقة بعلاقات الصداقة والتعاون بين الدول وفقاً الميثاق » و « اعترفت لشعب فلسطين بالتساوي في الحقوق وبحق تقرير المصير وفقاً لميثاق الامم المتحدة » .

واهمية الاشارة الى المادة ١ من الميثاق هي انها ترد في الفصل الاول منه الذي تضمن « مبادىء الهيئة ومقاصدها » والذي نص على أن « انماء العلاقات الودية بين الامم على اساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها حق تقرير مصيرها » ، فجعل المشترع في هذه المادة « المساواة في الحقوق بين الشعوب » و « حق تقرير المصير » دعامتين من دعائم السلم العالمي . وصوتت الجمعية العامة في السنة ذاتها على القرار رقم ٢٦٢٨ (الدورة ٢٥) في ١٩٧٠/١١/٤ نتيجة لمناقشة بند « الوضع في الشرق الاوسط » . وقد نصت الفقرة ٣ منه على أن الجمعية العامة « تعترف ان احترام حقوق الفلسطينيين هو عنصر لا غنى عنه من أجل اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط » . واهمية هذا الاعتراف أنه جاء ضمن تصور حل شامل لمشكلة الشرق الاوسط وان احترام حقوق الفلسطينيين « عنصر اساسي لا في التوصل الى السلام فحسب بل في اقامته وتوطيده » . وواضح أن الجمعية تخطت قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ .

يزيد من اهمية هذين القرارين قرار ثالث اتخذ في الدورة نفسها وهو القرار الرقم ٢٦٤٩ (الدورة ٢٥) تاريخ ١٩٧٠/١١/٣٠ والذي جعل قضية فلسطين قضية استعمارية واعتبر نضال شعبها من أجل تقرير المصير نضالاً مشروعاً ضد استعمار اجنبي. فقد أكدت الجمعية العامة في مقدمة هذا القرار « أهمية التحقق العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير وضرورة الاسراع في منح الاستقلال للشعوب والبلاد المستعمرة » واستذكرت القرارات الاساسية الصادرة عنها حول انهاء الاستعمار ولا سيما القرار الرقم ١٥١٤ (الدورة ١٥) الصادر في ١٤ كانون الاول ١٩٦٠ والمتضمن اعلان منح الاستقلال للشعوب والبلاد المستعمرة . واستناداً الى هذه المقدمات أكدت الجمعية العامة « شرعية نضال الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والاجنبية والمعترف بحقها في

تقرير المصير لكي تستعيد ذلك الحق بأية وسيلة في متناولها » و « حقها في البحث عن كل أنواع المعونة المعنوية والمادية وتلقيها » ودعوة « جميع الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير على الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والاجنبية الى الاعتراف بذلك الحق واحترامه » . وانتهى القرار الى النص على ان الجمعية العامة « تدين تلك الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير على الشعوب المعترف لها بذلك الحق خصوصاً شعوب افريقيا الجنوبية وفلسطين » .

وفي العام ١٩٧١ عادت الجمعية العامة فأكدت بقرارها الرقم ٢٧٨٧ (الدورة ٢٦) في ١٩٧٣/١٢/٦ «شرعية نضال الشعوب لتقرير المصير والتحرر من الاستعمار والسيطرة والتسلط الاجنبيين ولا سيما في جنوب أفريقيا خصوصاً نضال شعوب زيمبابوي وناميبيا وأنغولا وموزامبيك وغينيا (بيساو) وكذلك الشعب الفلسطيني بكل الوسائل المتوافرة والمنسجمة مع الميثاق » . كما أكدت كل القرارات المتخذة في السنوات السابقة . ونشير بصورة خاصة الى القرار الرقم ٢٧٩٢ ذ (الدورة ٢٦) في ١٩٧١/١٢/٦ الذي عبرت فيه عن « قلقها البالغ لعدم السماح لشعب فلسطين بالتمتع بحقوقه الثابتة التي لا يمكن التخلي عنها ولعدم ممارسته حق تقرير المصير » وبذلك تكون الجمعية العامة قد أكدت لشعب فلسطين الى جانب حق تقرير المصير حق النضال من أجل انتزاع هذا الحق من مغتصبيه وممارسته ، واستمرت الجمعية العامة في تأكيد هذه الحقوق حتى نهاية الدورة الاخيرة العادية لعام ١٩٧٣ .

قضية شعب متميز :

ولو نحن ألقينا الآن نظرة اجمالية على هذا التطور في تأكيد الحقوق «المشروعة» للشعب العربي الفلسطيني لوجدنا أنه سار وفقاً للخطوات الآتية :

١ – الانطلاق من الاعتراف ان اللاجئين العرب شعب ، وكشعب يتمتعون بعدد من الحقوق .

٢ – هذه الحقوق أساسية ثابتة لا يمكن التخلي عنها للآخرين ولا يمكن اغتصابها من قبل أي شعب آخر .

٣ – وهم متساوون في هذه الحقوق مع جميع الشعوب الاخرى .

٤ – أولها حق تقرير المصير وبالتالي حق السيادة على الارض العربية .

٥ – حق النضال من أجل استعادة هذا الحق من مغتصبيه وممارسته اسوة بجميع الشعوب الاخرى التي عانت من الاستعمار الاستيطاني .

٦ – حق العودة غير المشروط للنازحين .

٧ – الاقرار بأن الاعتراف بهذه الحقوق وممارستها شرط لازم ضروري لاقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط وتوطيد دعائمه .

ولكن لئن كان العامل الاساسي الذي أدى الى تثبيت هذه الحقوق واقرارها وتصنيفها كلها ضمن نطاق « الحقوق الثابتة التي لايمكن التنازل عنها » هو جهاد ابناء فلسطين والشهداء الذين قدموا أرواحهم من اجل وطنهم السليب والتضحيات والدماء التي بذلتها وما زالت تبذلها ثورتهم ، ووقوف البلاد العربية وخوضها أربع حروب من أجل عروبة فلسطين وتقديمها عشرات آلاف الضحايا من أبنائها ، فمن الحق أن نلاحظ أيضاً انه على رغم التآمر الشديد على قضية فلسطين وتجزيئها ومحاولة اغراقها تحت كل المشاكل الفرعية التي نشأت عنها ، وعلى الرغم من انها تحولت خلال عشرين سنة في نطاق الأمم المتحدة الى قضية لاجئين، فانها ظلت مع ذلك في تصور الدول الاعضاء في المنظمة قضية شعب متميز لم يتخل قط عن حقوقه. ويعود ذلك الى عوامل عدة داخل المنظمة الدولية نذكر منها :

أولاً : ان الوفود العربية لم تنقطع قط خلال مناقشات قضية فلسطين أولاً ثم كل القضايا الفرعية الناشئة عنها ، عن الاصرار سنة بعد سنة على ان قضية اللاجئين قضية شعب بكامله تعرض لهجمة استعمارية استيطانية شرسة وان اي قوة لاتستطيع ازالة هذا الشعب او حقوقه .

ثانياً : الاعتراف في التقارير السنوية التي يرفعها الى الجمعية العمومية مديرو وكالة الغوث بان اللاجئين العرب ما زالوا يشعرون بانتمائهم الى شعب حرم من حقوقه الطبيعية وانهم لم يتراجعوا قط عن تمسكهم بارضهم ووطنهم السليب فلسطين .

ويمكن أن نجد الكثير من ذلك . وكمثال نورد ماجاء في تقرير المدير العام لوكالة الغوث ميتشل مور المرفوع عن السنة ١ تموز ١٩٦٤ الى ٣٠ حزيران ١٩٦٥ ، فقد قال ما يأتي :

« يرى اللاجئون ان امة قد قضي عليها وان شعباً قد حرم من حقه الطبيعي .

وهذا الشعور الحاد بالظلم مازال حياً في اذهانهم ويعتبرون الامم المتحدة مسؤولة عما وقع لهم وعن مدهم بالاغاثة الى أن يوجد حل لهم . ان شوقهم الى ان يعودوا الى ارضهم، الذي يشجعه ويقويه اعلان الامم المتحدة عن حقهم في العودة او التعويض وفقاً لما نصت عليه الفقرة / ١١ / من القرار / ١٩٤ / والذي أكدته كل القرارات اللاحقة ، مــا زال متوقــداً في نفوسهم » . واضــاف « ان شعورهم هذا قــد ازداد بفعل التركيز الاضافي الذي نشأ إثر قيام منظمة التحرير الفلسطينية في حزيران ١٩٦٤ » (وثيقة الجمعية العمومية الرقم ٦٣١٣ الفقرة / ٤ / ٥) .

ثالثاً : تقارير الامين العام للمنظمة التي يرفعها سنوياً الى الجمعية العــامة والتي كان بعضهــا يؤكد حقيقة ان اللاجئين العرب « شعــب له حقـــوقه الطبيعية » . ففي تقرير يوثانت المرفوع الى الجمعية العامة في ايلول ١٩٦٧ جاء مايأتي : « لكل شعب في اي مكان حق طبيعي في أن يكون في وطنه وأن يبني مستقبله فيه . وهذا ينطبق من دون ريب على اللاجئين العرب في فلسطين » (الفقرة ٤٧ من التقرير) . وهذا الحكم من الامين العام للمنظمة في تأكيد حق شعب فلسطين بشكل وفضاً قوياً لسياسة الامر الواقع وجريمة الابادة ضد شعب فلسطين التي ارتكبتها وترتكبهــا اسرائيل خصوصاً انه يأتي في اعقاب الحرب الاسرائيلية التوسعية الثالثة ويقدم الى الجمعية العامة في دورة انعقادها العادية للعام ١٩٦٧ .

رابعاً : وردت عبارة « الحقوق الثابتــة » بقرار مجلس الامن الرقم ٢٣٧ الذي صوت عليه المجلس بالاجماع في ١٤ حزيران ١٩٦٧ عند البحث في مشكلة السكان العرب في المناطق التي وقعت تحت الاحتلال الاسرائيلي . فقد نصت فقرته التمهيدية الثانيــة على ما يأتي : « يعتبر مجلس الامن انه يجب احترام الحقوق الاساسية الثابتة التي لايمكن التنازل عنها خصوصاً في الظروف المفجعة الناشئة عن الحرب » . ثم كان قرار العــــام ١٩٦٩ والقرارات التي جاءت بعده حتى نهاية العام ١٩٧٣ والتي كانت كما رأينا تصعيداً مستمراً ومتكاملا للحقوق العربية .

الخلاصة والنتائج

اولاً ـــ الأحداث التاريخية التي جرفت المنطقة بكاملها وفي طليعتها حرب تشرين التي تعتبر بأي مقيــاس منعطفــاً تاريخياً كبيراً في قضيــــة فلسطين والصراع العربي

ـ الاسرائيلي ـ . ولا بد لأي قرار أن يعكس النصر العربي والوزن الجديد الذي اتخذته المنطقة العربية في التوازن الدولي . فقد شقت الامة العربية طريقها الى مركز قوة جديد ولا بد لهذا المركز أن يعبر عن ذاته بابعاد دولية جديدة .

ثانياً ـ الثورة الفلسطينية فرضت قضية الشعب الفلسطيني على العالم بأسره بحيث اصبح التأييد العالمي لها أعلى من اي مستوى سابق . ويكفي أن نستذكر عدد الدول التي اجتمعت في مؤتمر القمة الرابع لرؤساء البلدان الغير منحازة من ٥ الى ٩ ايلول ١٩٧٣ في الجزائر والتي بلغت ٧٦ دولة . هذا فضلاً عن الدول الصديقة الآخذ عددها في الازدياد . وهذا العدد من الدول كاف وحده ـ بل هو يشكل ضمانة للقيام بسعي في اطار الامم المتحدة لاعادة ادراج « قضية فلسطين » كبند مستقل في جدول أعمال الجمعية العامة في دورتها العادية المقبلة .

ثالثاً ـ قرارات الجمعية العامة ابتداءاً من العام ١٩٦٩ التي أكدت الحقوق الاساسية الثابتة لشعب فلسطين « التي لا يمكن التنازل عنها » وفي طليعتها حق تقرير المصير مما يجعل النظر في قضية فلسطين كقضية قائمة في ذاتها لا قضية تبحث على هامش قضايا تفرعت عنها امراً منطقياً ينسجم أكثر مع قرارات الجمعية العامة . والسابقة في الامم المتحدة لقضية فلسطين وثورة شعبها هي قضية الجزائر وثورة شعبها وهي السابقة التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار . فاذا أخذت القضية الفلسطينية المركز الذي يجب أن تأخذه في المنظمة الدولية ، عند ذلك يتغلب الواقع النابض بالحياة على الروتين الديبلوماسي وتجد المنظمة الدولية القرارات الملائمة التي يجب اتخاذها انطلاقاً من حقائق التاريخ .

المراجـع

(١) . (1967) الاجتماع رقم ١٣٦١ , U . N . Scoar , 22

(٢) قرار الجمعية العمومية رقم ٢٢٥٢ الدورة الطارئة الخامسة ، الملف رقم ١ ص ٣ . U . N . Doc . A / 6798 (1967)

(٣) الصادرة في ١٥ ايلول ١٩٦٧ . U . N . Doc . A / 6797

(٤) النص الاصلي موجود في Cmd . No . 5479 P . 22 (1967)

(٥) من يملك فلسطين بقلم هنري كتن ص ٢٥ (١٩٦٧) مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

(٦) البلاغ الفرنسي ـ البريطاني المشترك ، ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ . Cmd . No . 5479 at 25 (1937)

(٧) الديبلوماسية في الشرق الاوسط مجموعة وثائق ١٩١٤ ـ ١٩٥٦ بقلم G . Jhurewriz ص ٦٦ و ٦٩ و ٧٠ (١٩٥٦) .

(٨) Treaties , Convention , International Arts , Protocols And Agreements Between The U . S . And Other Poweres 1910 — 1923 At 3336 , 3342 (Redmoud Ed . 1923) .

(٩) الديبلوماسية في الشرق الاوسط Cmd . No . 1785 . (1922) مجموعة وثائق ـ ص ١٠٦ و ١٠٨ .

(١٠) سياسة بريطانيا في فلسطين ، ص ١٩١٨ ـ ١٩٢٢ . Cmd . No . 1700 والديبلوماسية في الشرق الاوسط ـ مجموعة وثائق . ص ١٠٣ و ١٠٤ .

(١١) Palestine : Statement of Policy — Cmd No . 6019 At 3 — 2 «1939» والديبلوماسية في الشرق الاوسط ـ مجموعة وثائق ، ص ٢١٨ و ٢٢٠ .

(١٢) U . N . G A O R , Resolutions , At 131 — « 1947 »

(١٣) Progress Report Of-The U . N . Mediator On Palestine , U . N , Gaor , Supp . 11 At 14 , U . N . Doc A / 648 « 1948 » .

(١٤) ذات المصدر .

(١٥) قرار مجلس الامن رقم ٥٧ (١٩٤٨).

(١٦) قرار مجلس الامن رقم ٥٩ (١٩٤٨).

(١٧) 3 . U , N . Gaor Resolutions At 21 — 24 «1948» .

(١٨) G.A. RBS. 27Ꜫ,3, U.N. Gaor pt ..2 , Resolutions at 18 « 1949 » .

3.U.N. Scor, Supp. DBC . 1948 AT 118 , U.N. Soc. S/1093«1648».

(١٩) Third Progress Report of The Palestine Conciliation Commis Sion, U.N. Gaor Ad, Hog. Pol . Comm, Annex, Vol , II. AT 6 , U.N. Dos . A/927 « 1949 « .

الكلمات المنقولة هي لوزير الخارجية قالها باسم مجلس الدولة الاسرائيلي .

(٢٠) ذات المصدر ص ٩ .

(٢١) قرار الجمعية العمومية رقم ١٨١ المرجع ١٧ ص ١٥٠ .

(٢٢) Third Progress Report of The Palestine Conciliation Commission المرجع رقم ٢٩ ص ٧ .

(٢٣) ذات المصدر ص ٨ .

(٢٤) Historical Survey of Efforts of The United Nations Conciliation Commission forPalestine To Secure Implementation ot Para II of G.A. Res . 194 « III » U.N. Doc . A/OAC 25/W 81 Rev . 2 « 1961 » .

(٢٥) Absentees,Property Law,«1950» Laws of The State of Israel vol , 4 , P . 68 .

(٢٦) راجع كتاب سامي مراوي : فلسطين ضباع التراث ص ٥٢ (١٩٦٣).

(٢٧) المصدر السابق .

(٢٨) Brown , « Sovereignty In Exile » 35 Am . I . Int ' L L . 666 667 , « 1941 » .

(٢٨) رسالة من البرغادية جنرال باتريك هورلي الى الرئيس روزفلت (١٩٤٣). 4 Foreign Rel . U . S . 776 , 777 «1964» .

(٢٩) رسالة من الوزير المفوض كيرك الى وزير الخارجية (١٩٤٣) . 4 Foreign Rel . U . S . 747 — 48 «1964» .

(٣٠) ا . ف ستون في عرض للعدد الخاص من مجلة « الازمنة الحديثة » بعنوان « النزاع الاسرائيلي العربي » في The Newyork Review of Books في ٣ آب ١٩٦٧ ص ١٢ عامود ٤ .

(٣١) ذات المصدر ص ١٠ عامود ٢ .

(٣٢) ذات المصدر ص ١٠ عامود ٢ .

(٣٣) منحايم بيغن « الثورة » « قصة الارغون » ١٩٥١ .

(٣٤) ذات المصدر ص ٣٤٨ .

(٣٥) ذات المصدر ص ٣٥٤ .

(٣٦) ذات المصدر ص ٣٧١ .

(٣٧) « كباغانا » بقلم ماردور (١٩٥٧)

(٣٨) النيويورك تايمس بتاريخ ١١ ايار ١٩٦٠ ص ١٨ عامود ٢ .

(٣٩) I.M.whiteman, Digel oF International Law 2 «1963» .

(٤٠) Statement «Second » of Foreign Relations Law of The United States «1» Comment E «1965» .

(٤١) 22 , U , N , Gaor , Supp . 1A , At 7 , U . N . Doc . A / 670 / Add « 1967 » .

تشرين وأدب الحرب

د. نجاح العطار

مرة أخرى(١) كما في الأزمات ، يطرح الأدب نفسه على المناقشة من خلال حرب تشرين وما أحدثت من انعطاف في مجرى الأمور، وتغيير لحق أو سيلحق بالمفاهيم.

قلت طرح الأدب نفسه على المناقشة ، وهذه عبارة لينة ، شدتها – ودقتها أيضاً – أنه فرض نفسه . فرضها على نحو ما ، كما فرضت نفسها أشياء اخرى كانت قبل تشرين موضع جدل ، ثم تبلورت خلاله ، وصارت بعده مادة درس ذي معطيات غنية وآفاق رحبة .

(١) فصل عن « أدب الحرب » بدأت كتابته غداة حرب تشرين .

والمناقشة هذه ينبغي لها أن تتعمق ، ولكن ينبغي لها قبل ذلك أن توضع على وجه صحيح لتكون لها في المحصلات نتائج صحيحة .

ومن صحة وضعها أن تظل قضية كبيرة على مستوى الهدف ، وبحجم حركة التحرير التي تطلبتها ، وأن يجري النقاش فيها حول المسائل الأدبية التي تسهم اسهاماً أكبر في تحقيق هدف التحرير الكامل. إنه من غير المقبول أن تتحول المناقشة الى قضية شخصية ، وأن ينبري طرفان : أحدهما يحكم بالاعدام على أدب ما قبل تشرين مثلاً ، والآخر يمنحه البراءة والبركة ، ولا أن يتصدى شاعر لزعم أن تشرين مناسبة ، وانه ليس شاعر مناسبات ، فيقوم آخر ليؤكد ان هذا الشاعر قد كان في كثير من مواقفه شاعر مناسبات ، أو تقعد المشاغل – والكسل بينها – بأديب عن الكتابة فيزعم أن ما كتب في القشور ، أو تختلط الصورة على آخر فلا يستطيع تبين ملامحها فيتعزى بالقول ان الصورة لم تكن لها ملامح ، فيندفع آخرون لتسفيه هذه الآراء من خلال التهجم الشخصي على أصحابها .

ان تحويل القضية الى حوار شخصي بحت يعني ببساطة تشتيتها ، تعتيمها ، اضاعتها ، بينما هي في الأساس قضية الرؤية الادبية للمشكلة المصيرية التي يواجهها العرب ، ومقدار ما في هذه الرؤية من صحة أو خطأ ، وما سيلحق بها ، نتيجة للتطورات الجارية ، من صحة أو خطأ ايضاً ، والتجاذب الذي في ساح هذه المشكلة ، لتفريغ النتائج من ايجابيتها ، أو لتطويق الايجابيات على الأقل ، وما ينبغي من جهد دؤوب لمنع هذا التفريغ والتطويق ، ولدرء خطر السلبيات على الايجابيات ، وبغية التمكين للايجاب أن يترسخ ويغدو خطاً رئيسياً في سير عملية التحرير التي بدأت من منطلق واضح ، هو انسحاب العدو الكامل من الأراضي العربية المحتلة ، وضمان الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني .

ذلك أن الرؤية الادبية تحتاج في ضوء الحرب التشرينية الى مناقشة تحليلية جادة ، بمثل ما تحتاجه هذه الحرب ذاتها ، والى صيانة هذه المناقشة من انحراف المنحرفين بها الى الذاتية والمهاترات الشخصية ، والنأي عن المماحكة في اطار ثنائي بين الشيء وضده . فالكلام على المناسبية يصبح في الطرح المماحك التجريبي ، مثل الكلام على الالتزام ، قابلاً للمكابرة والجدل البيزنطي الطويل .

الواقع ان حرب تشرين مناسبة وغير مناسبة في آن .. وكذلك هي جميع احداث التاريخ . واذا كانت هذه الحرب قصيرة في الزمن فانها طويلة في الآثار ، والمهم ان نضع أو نسهم في وضع هذه الآثار في صالح الهدف الذي قامت الحرب التحريرية من أجله، وأن نجعلها على طريق الاستقامة كلما حاول المحاولون جعلها على طريق الالتواء ، وان نجسم بالكلمات الدلائل والمعطيات ، لتتشكل منها اللوحة الواقعية لما صار في هذه الحرب، وما فرزته من نافع وضار ، وما تكشفت عنه من امكانات ونواقص، ومن اعداء واصدقاء، وما اكدته من حقيقة الانسان العربي الذي يعي قضيته ، ويملك الايمان بها ، وشرف التضحية لأجلها ، والبسالة في القتال ذوداً عنها ، ويضع كل ذلك موضع العمل حين تضعه قيادته موضع العمل ، أو حين تهيء له الفرصة والوسائل للعمل ، شأنه في ذلك شأن جميع الشعوب التي تناضل حين تتوفر لها القيادات المناضلة ، أو حين تعرف لنتيجة كفاحها من اجل قضاياها ، ان تفرز قياداتها المكافحة من اجل هذه القضايا .

والمهم ، اضافة الى النقاش حول أهمية الادب التشريني الذي عليه أن يبرز ويطور كل هذه المعطيات ، أن نكتب الادب التشريني الذي يكون وعاء لها ، ومجسداً لدلالاتها ، فالمسرحية – وكذلك القصيدة والقصة والدراسة – التي تحمل في ابداعها صورة أيام تشرين ، ووقائعها ، وحقائقها ، تجعل تلك الصورة حية في اذهان الناس ، وتتيح لهم أن يتبينوا ، بالمقارنة ، ما كانت عليه وما صارت اليه ، وما استهدفت من غايات ، وما تحقق من غاياتها ، وما عجزت عن تحقيقه ، وعوامل هذا العجز ، ومزالقه وأخطاره..

وباختصار ، علينا أن نبدع أدباً صحيحاً يطرح كل هذه الاشياء بشكل صحيح، وهذه مهمة الادباء في قلب الحياة واحداثها ، ثم هذه مهمتهم في توفير نماذج ادبية تساعد المتناقشين في توفير أدلة الاثبات او النفي لهم في موضوعة ادب الحرب ، وما في الحرب من مناسبية، وما في هذه من تلازم مع كل مصادر الابداع ، تاريخياً واجتماعياً ، مرحلياً وآنياً ،من خلال ظاهراتها المنسحبة والمتطاولة مع الايام .

وهذه الدراسة ، في العنوان الرئيسي الذي اخترته : « تشرين وأدب الحرب » قد تتخطى بنا تخوم الحرب التشرينية . تضعنا على أرض مطاوعة ، بمجال من حيث أن نبحث ، لا في وجوه أدب الحرب فقط ، بل في كيفية ايجاده اذا لم يكن موجوداً، وهذا هو المنطلق الصائب لبحثنا ، برغم اننا ندرك استحالة وضع مواصفات للأدب، لأنه عملية ابداعية لا تعليمية .

ان أدب الحرب – أدب المعركة ، لا فرق – كان موجوداً منذ بدأت الحروب والمعارك والى أن تزول . فالحرب متابعة للسياسة بوسائل أخرى ، والسياسة لاتنفصل عن الثقافة ، وهذه جماع التجربة الذهنية للانسانية . وبكلمة اخرى ، هي الحياة كاملة ، والأدب من الحياة يمتح ولها يعطي ، وبسبب من طبيعته هذه ، يرتبط بالأحداث ارتباطاً وثيقاً . انه أحد قطاعات النشاط الفكري ، ومن ثم العملي ، للبشرية ، القطاع الذي تتخلق فيه صورتها في مسارها التاريخي ، ويتأرخ فنياً أحداثها ، لتؤدي في وظيفة التوصيل وظيفة اخرى هي التغيير ، والا كانت صورة ساكنة ، تردها الى الذين منحوها ليروا فيها أنفسهم ليس الا ، والناس لا يحتاجون طبعاً الى أن نرد لهم صورتهم كما هي ، بل أن نضيف اليها رؤيتنا المستقبلية لها ، وبذلك نسهم معهم ، ومن خلال صورتهم ، في تغيير الصورة ذاتها ، في تلك العملية المعقدة جداً ، عملية الحضور والانتفاء ، وولادة الجديد من القديم ، أو ما هو أحسن مما هو أسوأ .

ثم ان الأدب ، وتلك وظيفته ، يظل يفتقر الى الوعي بتلك العملية، والى ممارستها اذا وعاها ، ويتحدد النجاح في الممارسة بفهم الظرف التي تتم فيه ، وبالقدرة على امتلاك الصيغة الأدبية الملائمة لهذا الظرف وليس سواه. ففي السلم يتفرغ الأدباء للفن، وفي الحرب يتفرغ الأدب نفسه للحرب ، يصير جزءاً منها وتعبيراً عنها ، أي يكون مقياسه الجمالي ليس في درجة فنيتهفقط ، بل في درجة صدقه وحرارته وقدرته على توصيل الحرارة ، بما تشتمل عليه من انفعال وعاطفة وحب وكره ورأفة وقسوة ، الى الذين يتوجه اليهم ، والى الذين يهدف التوصيل الأدبي تغيير صورتهم ، أو صورة ظروفهم على الأصح .

واذا كان ثمة اعتراض على هذا الكلام فمصدره الخشية . . بعض الادباء يخشى أن ينتهي مفعول الأدب المكتوب حول الحرب بانتهاء هذه الحرب ، وهي الذريعة نفسهاالتي يوردونها ، قديما وحديثا ، حول أدب المناسبات. ونحن نتساءل : لماذا لم تنته قصيدة أبي تمام في عمورية بانتهاء فتح عمورية ؟ ولماذا لم تنته قصائد المتنبي في حروب سيف الدولة بانتهاء هذه الحروب ؟ لأن فتح عمورية وحروب سيف الدولة كانت لها اضافة في التاريخ ، كما كانت لقصيدة أبي تمام وقصائد المتنبي اضافة في الأدب ، وليس هذا مجال تقرير من منهم الاضافة لمن . فالمهم والمهم يشترك كلاهما في صنع الالهام الذي يكون له اضافة في التراث الابداعي ، وقد كانت قصائد أبي تمام والمتنبي قصائد مناسبات ،ولم

يضار أي منها بسبب من ذلك ، بـل كانا في مناسباتها هذه أعظم شعراء عصرهمـا كما يجمع النقاد .

ولو سلمنا جدلا بخوف الخائفين من المناسبات ، وانتهى مايكتبون حـول الحرب بانتهاء الحرب بالنصر ، أفلا تكون الغاية مما كتبوه قد تحققت ؟ أم أنهم يبنون حساباتهم على خلود كتاباتهم باكثر مما يبنونها على انتصار أمتهم ؟ ان ادبا خارج الأحداث الكبيرة لايخلد ، لأنه لايكون صادقا كي يخلد ، وحين لايكون أدب زمن المعارك سلاحا في المعارك ذاتها يكون زائفا ، لأن اسلحة المعركة من معدنها ذاته ، والقارىء في الحرب لايكترث أبدا بالكاتب الذي يتجاهلها ، وحين يكـون القارىء في مرحلة معينة من الحـرب ، لايكترث بالكاتب الذي يكون في مرحلة متخلفةعنها ،فالقارىء يتطلب صورته في صورة قضاياه ، ويتطلب مساعفة كاتبه في تغيير صورته نحو الافضل ، واذا لم يفعـل الكاتب ذلك لايصل اليه . . يكون قد سقط في باطل مقولة الكتابة لذاته ، أو الكتابة لمن يأتي بعده ، وهو يعرف أنه لايستطيع أن يقرأ ذاته ، ولايستطيع أن يكتب للكتبة أمثاله، كما لايستطيع أن يكتب لمن يأتي بعده ، لأن الزمن يبدل الصور ، وكل عمل أدبي يتضمن صورة القارىء الموجه اليه أولا ، ومن خلال هذا القارىء يتوجه الادب الى جميع القراء، أي جميع البشر، أما التوجه الى الناس الذين لن نراهم أبدا ، فانه يجعلنا نخسر معاصرينا ومن يأتون بعدنا ، ولن يكون من نتيجة هذا اللهاث وراء الخلود في الآتي إلا الانتفاء في الحاضر ، ومن لايكون شيئا في عصره ،لايكون شيئا في العصور التي تليه ، فقيمتنا هي في تواجدنا في عصرنا ، في بيئتنا ، وكفاحنا في هذا العصر وهـذه البيئة ، وبذلك نكون جديرين بها ، ويكون أدبنا أدبها ، واضافته اضافتها ، وهـكذا نبرهن على اننا حقا ابناء عصرنا ، وأننا أحببناه بنكران ذات ، وافنينا انفسنا فيه ولأجله .

ان حرب تشرين لم تكن طويلة كما قلت ، ولئن توقفت في القتال لتتابـع في السياسة ، فان استئنافها قتاليا متوقـع دائما ، فالعدو الصهيوني يصعد كل يوم توتير الجو ، ويصعد معه استعداداته العسكرية والعدوانيـة ، ولعبة سحب البساط من تحت التزاماته الدولية في الانسحاب من الأراضي العربية التي احتلها واعادة الحقوق للشعب العربي الفلسطيني ، تمارس بخبث تارة ، ووقاحة طوراً ، وتشارك في هذه اللعبة القوى الامبريالية بدهاء ونشاط ، وعلى هذا فان حرب تشرين مستمرة ، وهي كذلك بوصفنا محاربين ضد عدو يحتل أرضنا ويغتصب حقوقنا ، ومحاربين في جبهة التحرر العالميـة

التي نحن جزء منها ، ومحاربين ضد التخلف لبناء مستقبل متقدم ، وهذا كله يجعلنا نعيش حالة كفاح متعدد الجوانب ، وعن هذا يمكن أن نكتب أشياء كثيرة ، أصيلة ، ناضجة ، وأشياء أخرى قيمتها أنها تأتي في وقتها ، وتخدم الظرف الذي لأجله كتبت ، ولانساله توجهت .

لقد كانت الكلمة منذ البدء تجسيداً للحياة واستشرافاً للمستقبل ، وهي ليست تعبيراً جمالياً صرفاً عن وجود الانسان ، بل هي وجوده ذاته ، وجوده كفعل متطور متجددعبر مسيرته كلها، وقد ارتسمت ملامح هذه المسيرة في كل فنون الشعر والنثر، هذه التي حفظت لنا وقائع تاريخ البشرية وتطلعاتها وتراثها الحضاري ، كما حفظت مثلاً أغاني هوميروس في الياذته ملامح حروب طروادة ، فكانت دلالة على عصره ، وعلى دور الأدب في ذلك العصر بما انعكست فيه وانعكس فيها .

وهذا تاريخنا الأدبي وثيقة باقية تشهد أن أدبنا العربي لم يكن معزولاً في الحرب والسلم في الماضي ، وأن « الأبراج العاجية » جاءته متأخرة ، ولعلها من بقايا مراحل الانحطاط ، حين صار الأدب تقليداً أو زخرفة أو تركيبات ذهنية خالية من نبض الحياة . ذلك أن الأديب فنان يمتاز بالحساسية والوعي ، ومن غير المعقول أن يكون في حالة انفصام عن الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه ، كما أنه من غير المعقول أن يعيش في مجتمع الاستبداد ولا يوظف أدبه للثورة ، وأن يكون الوطن محاصراً وينشغل هو بالغناء الذاتي بعيداً عن المشكلات الأساسية القائمة .

ان السؤال الذي تتفرع منه أسئلة هو : لماذا والعدو محيط بنا ، ونحن مهددون من أكثر من طرف ، والحرب على أرضنا مسلطة ، كان بعض أدبنا ، قبل تشرين ، يتقوقع على نفسه بعيداً عن المعركة ؟ وما السبب في أنه لم يحمل في رؤاه تباشير واقع نضالي يجاوز الندب الى الضرب، واكتفى بالانسراب عبر «اللابيرنثات» -المتاهات- المضيعة تجريحاً للذات ، وبكاء على واقع لم يفت أوان تبديله أو تطويره أو تخطيه ؟ ولماذا سقط بعض هذا الأدب في شكليات وتقليعات أقامت سوراً بينه وبين الواقع الذي نفترض أنه يجب أن ينبت منه ، ويتعمق في فهمه ، ويدفع بالتالي الى تغييره ؟ ولماذا فات الكثيرين أن القيمة الجمالية للأدب انما تتجلى في صدقه وفي مدى قدرته على التعبير عن هذا الصدق ، وأن الأدب المزيف ساقط حتى في المقاييس الجمالية ، وليس

قادراً على البقاء ، لأن زيفه انما يرجع أصلاً الى انفصامه عن قضايا البيئة التي يعبر عنها ؟

لقد كان طريفاً أن يتابع الانسان المناقشات التي دارت حول الالتزام ومعناه طوال عقدين كاملين ، وأن يجد من يتساءل حتى الآن عما اذا كان الكاتب ملتزماً بالضرورة أم أن له الحرية في أن يعيش على هواه ويكتب على هواه . هذه الموضوعة القديمة البالية التي صارت أقرب الى السفسطة ، مادام اللاموقف موقفاً في ذاته ، والذين يكتبون على هواهم يعبرون عن هوى في اللامسئولية كما يعبر الملتزمون عن هوى في المسئولية بالحجم ذاته ، ومادام الكاتب ، في أيام المحن والنضال ، لا يستطيع أن يعيش على هواه ، لأن عليه أن يلتزم كانسان بأمته ، وعليه بصفته كاتباً أن يتبنى قضاياها ، ويدع ما يرضيه لما يرضيها ، ويحمل الكلمة كما يحمل البندقية . . يريدها أن تكون النار التي تشعل الفتيل ، والمهاد الذي عليه يعيش المحارب في الخط الأول .

أما أن يلهو عن ذلك كله ، وباسم الفن ، بشكليات الفن وبدع التعبير ، متأثراً بتيارات نشأت في مجتمعات مخالفة ، وأن ينكفيء على الذات ويتنرجس حولها ، ويسير في طريق مسدود لا يحمل رؤى أصيلة ، ولا يرتبط بالخط النضالي ، فانه بذلك يحكم على نفسه بالتخلف والضمور ، وقد تخلف بعض أدبنا وضمر وشحب ، ولم يبق معافى من أدب ما بعد حزيران إلا ذاك الذي جاوز الأفق المسدود الى الآفاق المترامية ، وتتبع بؤرة الضوء عبر أكداس من الظلمة .

ثم ان حرية الأديب لا تتعارض أبداً مع ارتباطه الصميمي بأمته وقضاياها ، بل ان هذه الحرية تصبح أوسع وأعمق بالارتباط بهذه القضايا ، وبالتعبير عنها ، وتنقل شعلتها من ذاته لتتأجج في مواطنيه .. وله بعد ذلك أن يختار الاسلوب الذي يريدلقول ما يريد ، وبالأداة التي يختارها شعراً كانت أم نثراً ، مقالة أم قصة ، بحثاً أم رواية ، على أن يتسم عمله بقدرة كبيرة على التأثير في الآخرين ، ويشد أواصر المجتمع بخيط ملتهب قابل للانفجار عند الضرورة ، يعتمد ايقاظ الوعي والحماسة معاً ، ويكون فيه من العقلانية رصيد ، ومن اللهب رصيد ، وأن يغني الانسان ، وينمي ارادته في التحرر والتحرير وروح الفداء والتضحية ، ويجعل منه انساناً بناء ، حقيقياً . . ولعل هذا هو الهدف الذي يسعى اليه أدب الحرب أوأدب المعركة في مانفهمه من هذه التسمية .

الكلمة دورها .. وللرصاصة دورها

غير أن المسألة ليست بالبساطة التي نتوهم ..

أولاً لأننا شعب يتقدم ليقرع باب العصر الصناعي ، وهو يتقدم لقرعه وسط معوقات موروثة عن عقلية عصر ما قبل الصناعة ، وفي هذه الحال، لا يستطيع شعبنا مع كل طموحاته الى تجاوز ذاته ، أن يتجاوزها بالسهولة التي يتمناها ، وسيظل الى فترة طويلة ، قد تمتد عقوداً ، يحمل ارث العصر الزراعي ، بكل ما فيه من فردية وحماسة وطفرة في الاشتعال وأخرى في الانطفاء ، ناشئة بالأصل عن عاطفية هي من نبت الحياة الزراعية ، بما فيها من قبلية وعشائرية واقطاعية ، وعاطفية تخلي مكانها تدريجياً للعقلانية ، كما تخلي الزراعة مكانها للصناعة ، وبقدر ما نخرج من عصر الاقطاع ندخل عصر الصناعة ، لا في اقامة المصانع والورشات فقط ، بل في امتلاك عقلية هذا العصر ، والتخلص من ذلك الاحساس المفرط والعاطفة الملتهبة القابلة لكل تأثيرات الانفعال السريع .

ومعلوم أن التحولات المادية تسبق التحولات الفكرية ، فالمعمل الجديد الذي نبنيه في سنوات لا يأتينا بعامل جديد عقلاً وفكراً وطباعاً في المدة نفسها. ولهذا فان اقامتنا لبعض المصانع لا تعني أننا صرنا في العصر الصناعي ، وهذه العاطفية — التي لا نضيق بها ولا ندينها بل نسجل ظاهرتها — ما تزال تتحكم في تصرفاتنا افراداً وجماعات،فنحن قبل نكبة فلسطين ، كنا نقدر عدونا بأقل مما هو ، وبعد النكبة والهزائم التالية لها ، صرنا نقدره بأكثر مما هو ، والامل في كسب الحرب قبل ١٩٦٧ انقلب الى يأس من كسبها بعد ١٩٦٧ ، واعتقادنا ، في مطلع هذا القرن ، بأن الكلمة الحماسية هي الكلمة ، صار الى اعتقاد آخر بأن الكلمة الحماسية لا كلمة ، كما ان ايماننا بأن الكلمة كل شيء ، صار الى ايمان بأن الكلمة لا شيء ، وهكذا ، في العاطفية التي تحكم تصرفاتنا غالباً ، كنا ندور مئة وثمانين درجة ، وننتقل من الطرف الى الطرف المعاكس ، في نوبات الامل واليأس المتعاقبة .

هذا هو منشأ تلك الرسالة العاطفية التي أملت على الكاتب الكبير توفيق الحكيم ان يقول غداة حرب تشرين انه يطلب من حكومته ان تهيء له عملاً يدوياً يناسب سنه فيشارك به في معركة الشرف بدلاً من صناعة الكلمة التي لا مكان لها في ساحة القتال .

وهذا هو منشأ ذلك الشعور بالذنب الذي انتقل بشاعر من النعي على الادباء انهم يخرجون من جلود الأدب الى جلود السياسية ، الى النعي عليهم - بعد حرب تشرين - انهم يسكنون ابراج الأدب فلا ينزلون الى دنيا السياسة ؛ أو بعبارته ذاتها « نحن هاربون من الجندية ، وكل ادبائنا يصطنعون المرض ويقدمون التقارير الطبية ، ويتفرجون على المعركة من الطابق العاشر ، من شققهم المكيفة بالهواء والمفروشة بالموكيت . نحن لا نعرف شكل الموت الا في السينما ، ولا نعرف اللون الاحمر إلا في معارض الرسم ، أما المـوت الحقيقي والدم الحقيقي الذي يسقي كل ذرة أمل في صحراء سيناء ومرتفعات الجولان، فنحن نركبه تركيباً كيميائياً في مختبرات خيالنا .. ان مئات المراسلين الصحفيين ماتوا في الحروب بحثاً عن خبر جديد ، أو لقطـة فوتوغرافية نادرة ، لكننا لم نسمع ان شاعراً ، او كاتباً عربياً واحداً مات وهو يبحث عن لقطة شعرية أو روائية نادرة. »(١)

وهذا ايضاً منشأ الشعور الذي دفع بشاعر حب الى التصريح لاحدى المجلات بأنه « لم يكتب حرفاً واحـداً في حرب تشرين ، ولن يكتب حرفاً واحداً فيها ، لأن هذه الأيام ليست أيامه ، باعتباره شاعر غزل » (٢)

فماذا يعني كل هذا ، مضافاً الى الخلودية والمناسبية اللتين أشرت اليها آنفاً ؟

ان لدينا الآن خمسة محاور اعتراضية على أدب الحرب ، تتكشف لنـا بتحليل بسيط عن عدم استيعاب كاف لوظيفة الأدب من حيث هو تعبير عن الانسان في البيئة ، والانسان في العصر ، والانسان في الذات ، وعن دلالة هذا التعبير في الحياة الاجتماعية التي تحكمها قوانين الحتم في التغيير ، ودور الادب في المساعدة عليه والتسريع فيه ، من خلال الفكر الذي تكون له قوة المادة منذ دخوله الجماهير ، ويصبح عنصراً محرضاً ومحركاً في دفع عجلة الانتقال من شكل أدنى الى شكل أرقى في العلاقات الانتاجية والاجتماعية على السواء ، كما تتكشف هذه المحاور الاعتراضية عن عدم استيعاب كاف لمهمة الاديب نفسه من حيث هو انسان يعيش في بيئة وعصر تنعكس منها في ذاته قضـايا البيئة والعصر ، فإما ان يواجهها وبذلك يتخذ منها موقفاً ، واما ان يتهرب منها وبذلك يتخذ منها موقفاً ايضاً . ان له في الحالتين رؤية لهذه القضايا وموقفاً منها : أمامها أو وراءها ،

---

(١) نزار قباني ، « مجلة البلاغ » تشرين اول ١٩٧٣

(٢) مجلة البلاغ العدد ٩٥ - ١٩٧٣

معها او ضدها ، يدفع الى تغييرها أو يشد بها لارجاعها ، لا يبالي بها فيساعد بلامبالاته على ابقائها تراوح في مكانها ، أو يبالي ويكافح لنصرتها .

فاذا اتخذ منها موقفاً نتيجة رؤية ، فانه ليس مطالباً بأن يجد لها حلولاً .. يكفي ان يطرحها طرحاً صحيحاً ، ومن هـذا الطرح الصحيح يكون صدق الأدب . أو يطرحها طرحاً خاطئاً فيكون منه زيفه. وفي كل الأحوال ، ومها حسب انه يعزل عنها ، فان انعزاله نفسه يعتبر موقفاً منها ، ولكنه موقف سيء بل بالغ السوء .

لقد انفجرت في السادس من تشرين ١٩٧٣ حرب تحريرية في بـلادنا . وبصرف النظر عن موقفنا قبلها ، لا بد لنا ، خلالها أو بعدها ، من اتخاذ موقف منها . ان الحرب حدث تاريخي ، وعصرنا هو في الغالب عصر صنع التاريخ ، وقـد أصبح التفكير التاريخي ، أو التفكير بالأحداث الكبرى في التاريخ ، واتخاذ موقف منها ، شيئاً في ضمير الناس ، ونفذ الى جميع مجالات الوعي المعاصر ، وبذلـك صار التاريخ أساساً وشرطاً لا غنى عنها لكل معرفة تتطلع الى الاحاطة بالفن والفلسفة واستخدامها ، لا في تحليل الأحداث ، بل في تغييرها الى الأفضل .

ان كتاباً عظاماً مثل بلزاك وتولستوي وغوركي وشولوخوف وهمنجواي ومالرو وبريخت وفايس وغيرهم قد كانوا عظاماً لأنهم نقلوا اهتمام أدبهم ونشاطه الى أساس اجتماعي وسياسي ، ودافعوا بدرجات متفاوتة عن التقدم من خلال الامساك بالنقطة الجوهرية في كل ما عالجوه ، وقد عرفوا ان التاريخ أساس وشرط فلم يزوروا عن أحداثه الكبيرة . كان بلزاك في تعريته للبورجوازية يعطي أدبه أساساً اجتماعياً ، وكان تولستوي وغوركي ، من زاويتين مختلفتين ، يعطيان أدبها أساساً اجتماعياً وسياسياً ، وقـد كتب تولستوي ، مستنداً الى احداث التاريخ رائعته « الحرب والسلم » كما كتب شولوخوف « الدون الهادىء » وهمنجواي « وداع للسلاح » ومالرو « الشرط الانساني » وبريخت « الاجراء » وفايس « وحش أنغولا » .

وهؤلاء الذين أبدعوا أدباً على أعلى درجة من الفنية لم يعتبروا القضايا المعاصرة لهم مبتذلة يحسن بالفن ألا يتناولها ، وحتى الاشياء الصغيرة ، مثل الأطعمة والاشربة والأزياء والبورصة والاهتمامات العادية ، انعكست في أدبهم كما انعكست الأشياء الكبيرة ، وقد حفلت أعمالهم بأروع قصص الحب، لكنها الى جانبه حفلت بالأحداث الكبيرة والصغيرة التي يأتي الحب في صياغتها أسرة عضوية في النظام المتكامل لجسم العمل الفني .

لهذا فان الاراء التي أبديت حول دور الأدب والأدباء بالنسبة لحرب تشرين — وتنسحب أيضا على كل حرب وكل حادثة تاريخية أو اجتماعية — وحول دور الكلمة في أيام الرصاصة ، مردها الانفعال وعدم الاستيعاب ، وخلط الأمور والانتقال في طفرة مفاجئة الى الطرف المقابل للطرف الذي كنا فيه ، لأننا في التكوين الاجتماعي لانزال في إســار العاطفية التي ترتبـط جذورها بجذور البنية الاجتماعيـة التي نحن ، حياتنا ، جزء منها .

وليس خطرا كبيرا ان نقول كلمات انفعالية في مواقف انفعالية وننساهـا ، لو كان هذا يقتصر علينا ، بصفتنا متكلمين ، كما ليس خطرا ان تبلغ هذه الكلمات أولئك الذين يميزون ، بفعل تمرسهم ، بين مافيها منجدية ومافيها من انفعال . لكن الخطر أن تكون لنا ، بحكم وضعنا في الحياة الأدبية والاجتماعية هذه المكانة ، ثم لانقدر مسئولية الكلمات الانفعالية في التأثير علـى الناس من حولنا ، الذين سيصدقون — وهذا هـو المفترض — انه « لامكان للكلمة في ساحـة القتال » أو أن الادباء العرب « هاربون . . يتفرجون على المعركة من الطابق العاشر » أو « ان ايام الحروب ليست ايام الغزلين من الشعراء » .

بالنسبة للكلمة ودورها في المعركة ، لدينا أدب المقاومة في العالم العربي ، هذاالذي أتانا شعرا ونثرا من الأرض المحتلة ، وأتانا شعرا ونثرا من العالم العربي كله ، وكان قدأتانا قبل نكبة فلسطين من الثورات ضد الاحتلال الانتدابي الاستعماري لكافة أقطـار العالم العربي ، ومن حروب التحرر ومقاومة العـدوان في الجزائر وفيتنام وغيرهمـا ، و جاءنا من أدب المقاومة ضد المحتلين النازيين ابان الحرب العالمية الثانية ، وخاصة من فرنسا والاتحاد السوفييتي .

هل نامت الكلمة خلال كل تلك الأحداث ؟ أو هل أخلت دورها لأنه لامكان لها ؟ أو كانت فكان دورها لاشيء كما يقول الحكيم ؟

في الجواب يمكن ان نذكر مئات الوقائع والاسماء التي تدحض هذا الرأي ، ولكننا لسنا بحاجة لها ، والا كررنا الاشياء . غير أن شهادة واحدة حاسمة قدر ما هي مفيدة، لابأس من ايرادها هنا ، وتلك هي شهادة رجل كان يقف على رأس أكبر قوة مقاتلة في الحرب العالمية الثانية ، وهو ستالين ، الذي قـال عام ١٩٤٦ ، في خطـابه التقييمي

لنتائج الحرب : « ان الكاتب ايليا اهرنبورغ أسهم اسهاما كبيرا في ربح الحرب وسحق العدو » .

ويعلق الكاتب اللبناني خليل تقي الدين على ذلك بقوله : « اهرنبورغ لم يحمل بندقية ، ولا أطلق رصاصة ، بل شرع قلمه وعبأ شعبه بشحنات هائلة من الكراهية والحقد على العدو المغتصب ، وقاتل بمقالاته وقصصه وأخبار المعارك بمثل الضراوة التي كان يقاتل بها جنود بلاده الغازي البغيض » .

ولماذا الأمر كذلك ؟

لأن المعركة كل ذو أجزاء . والكلمة كالمدفع والطائرة والصاروخ والدبابة، جزء له في مجاله الأهمية نفسها التي للصاروخ في مجاله ، مادامت هذه الكلمة تصوغ وجدان الانسان، العامل الحاسم في استخدام الصاروخ .

ان توفيق الحكيم ، في هذه الرسالة العاطفية التي وجهها الى وزير الثقافة في جمهورية مصر العربية ، كان منفعلا ، وانفعاله ناجم عن دهشته أمام هذه الحرب التي كدنا نيأس من بدئها ، وقد أراد ، في الوجه الآخر لها ، أن يحرض الناس على العمل لأجلها ، وأن يكون هو القدوة العامة ، وهذا شعور مبرر ، لو كانت صياغة الرسالة قد تأنت فأوضحت .

لكن هذا استطراد قد يصرفنا عن جوهر المشكلة .. جوهرها، في الوجه الذي أراه ، يتناول الكلمة بذاتها ، سواء قيلت في قاعة أو على رصيف أو في معركة ، شيء أم لاشيء هي ؟ تقوم مقام الفعل أم تتعارض معه ؟ وما الفارق بين الكلمة والفعل في صيرورة كل منها دافع حركة ومادتها ؟

لقد ذهب بعض المفكرين الى أن الكلمة هي الفعل . والترجمة الدقيقة لعبارة « في البدء كانت الكلمة » هي « في البدء كان الفعل » ، وحتى لو لم تكن الكلمة فعلا ـ وهي فعل بالحدث الذي تصير اليه ـ فانها لا تتعارض مع الفعل ، مادام كل فعل قد كان حلما ومادام الحلم يصير الى فكرة ، تتصور في الخاطر ، ثم نترجمها الى كلمات ، ومن الكلمات نصوغها تطبيقا في حدث ، أي في فعل ، بنتيجة الدورة المتكاملة ، الدورة التي تعطي امكان نشوء الكلمات عن الأفعال كما تنشأ الأفعال عن الكلمات .

ان « المدينة الفاضلة » حلم بمدينة تختلف عن المدن القائمة ، تطمح لأن تكون

أكثر اتساقاً وعدلاً ورقياً ، وهي بهذه الصفة حلم يحول الى فكرة ، ونعبر عن هذه الفكرة بكلمات ، ثم نصوغ الكلمات في قوانين وبرامج ، ونناضل لتحقيق البرامج وفق القوانين ، وعندما نتوصل الى تحقيق « المدينة الفاضلة » نكون قد بدأنا من الكلمة وانتهينا بالفعل ولا تعارض ، لأن الفعل كان كلمة أصلاً .

على هذا فان الفكرة ، مسبوقة بالحلم ، مسبوقة بالكلمة ، هي فعل في الآتي ، مصاغة حدثاً بعد ان كانت كلاماً ، وكل كلام في الحلم الذي بني عليه هو كلام محكوم بأفعاله في النتائج التي يصير اليها ، ولهذا كتب المفكر بيساريف (١) حول الخلاف بين الحلم والواقع يقول : « ليست الخلافات كلها واحدة ، فقد يسبق حلمي مجرى الاحداث الطبيعي ، او قد يجنح الى اتجاه لا يمكن لسير الأحداث الطبيعي ان يفضي اليه . ففي الحالة الاولى لا يسبب الحلم أي ضرر ، بل قد يشجع الانسان الكادح ويشدد من عزيمته . وليس في الاحلام ما يمكن ان يفسد او يشل القوة العاملة ، بل العكس هو الصحيح ، فلو ان الانسان كان محروماً من ملكة الحلم بهذا الشكل ، ولو كان لا يستطيع أن يسبق مجرى الاحداث أحياناً ، وان يتخيل العمل الذي بدأه جاهزاً في صورته الكاملة والنهائية ، اعتقدئذ لا أستطيع ان أتصور بوجه من الوجوه الدافع الذي يحفز الانسان على الشروع في عمل جسيم ومضن في ميادين الفن والعلم والحياة العملية ، وعلى الدأب حتى انجازه . . ان الخلاف بين الحلم والواقع لا يسبب اي ضرر اذا كان الحالم يؤمن ايماناً صادقاً بحلمه ، واذا كان يتأمل الحياة بانتباه ، مقارنا بين ملاحظاته والقصور التي يبنيها في الهواء ، عاملاً بشكل وجداني على تحقيق حلمه . . فعندما يوجد تماس بين الحلم والحياة تسير الامور على ما يرام » .

ان الثورات وحروب التحرير والانظمة الاجتماعية قد كانت في البدء أحلاماً عبرنا عنها بكلمات محلومة ، كلمات صارت هي ذاتها ، عندما انتشرت بين الناس ، مادة تغيير منسوجة من عوامل الحفز والتحريض ، مستندة الى واقع ، متصرفة وفق قوانين ، تنفعل بها وتتفاعل معها ، وتصبح عملاً تغييرياً في التطبيق .

كتب غالي شكري يقول (٢) « لو صح رأي توفيق الحكيم وتصريح نزار قباني

---

(١) بيساريف .. « شطحات فكر غير ناضج » ، راجع لينين في الأدب والفن ، منشورات وزارة الثقافة .

(٢) مجلة البلاغ ، العدد ٩٦ ، ٥ تشرين الثاني ١٩٨٣ .

لكان ذلك معناه الوحيد ان حياتنا كذبة كبيرة ، ويتعين على جميع المثقفين العرب أن ينتحروا أو ينفذ فيهم حكم الاعدام الجماعي في الميادين العامة . . ومن ثم يتوجب طردهم من «الجمهورية» كما دعا افلاطون . . ان القضية ذات شقين ، أحدهما عام يخص الكتابة ذاتها ، قيمتها ودورها . والآخر خاص يتعلق بنا نحن الذين نمارس الكلمة في هذا الجزء من العالم وهذه المرحلة من التاريخ . . ان الخطأ كامن اصلاً في تصور « الكلمة » كمقابل « للفعل » . اننا بهذا الصدد مضطرون للعودة الى المعلم الاول ارسطو حيث نراه يبني نظرية التراجيديا بكاملها على اساس الفعل مرادفاً للحدث الدرامي . الفعل او الحدث لا يرادف العمل وان لم يكن نقيضاً له ، كذلك الكلمة او الكتابة أو الفن ليست نقيضاً ولا مقابلاً للفعل والعمل كليهما . . لنتخذ من الحرب مثلاً . ان القتال فعل مركب . انه تجسيد بالغ التعقيد لعديد من الافعال والاعمال شاركت في صنعه واسهمت في صياغته . المقاتل والسلاح والهدف هي الابعاد الثلاثة للحرب . المقاتل ليس جسداً بشرياً فحسب ، انه بنفس المقدار عقل ووجدان . . وصياغة هذا العقل والوجدان منوطة بالكلمة التي تلقاها في البيت والمدرسة والصحيفة والراديو والكتاب » .

أضيف أن الكلمة هذه التي صاغت وجدان المقاتل ، والتي كانت حتى في أساس الآلة باعتبارها ابداعاً علمياً من جهة ، ولابسة الصياغة الوجدانية في استخدامها من جهة ثانية ، هي سلبية وايجابية في آن ، ايجابية بما نعطيها من ايجاب ، وسلبية بما نعطيها من سلب ، وهذان القطبان لعملية القتال يحدد ان قوته وفعاليته وقدرته على انجاز الهدف الذي هو البعد الثالث للحرب ، بعد المقاتل والسلاح .

ان مهمة أصحاب الكلمة ليست أن يقاتلوا — وقد يفعلون — بل أن يصوغوا وجدانات المقاتلين ، وهذا هو دورهم الخطير ، ولكن الانفعال جعل بعضهم يثب فوق هذا المفهوم ، متجاهلاً حتى ما كان يبشر به هو نفسه عن دور الكلمة . ومثلما وثب بعضهم عن مفهومهم لدور الأدب الخطير ، جاراهم آخرون في اقامة التعارض غير المتعارض بين الفعل والكلمة . الأولون وضعوها في مقابل الفعل ، والآخرون مقابل مكان الفعل ،وكلا الوضعين أعطيا ردود فعل سلبية ليست في صالح المعركة التي تتطلب حشد طاقات الكلمات،هذه التي استمر عدونا يحشدها لصالحه ، ويجند لها كتابه وفنانيه، في اسرائيل وخارجها ، طوال عقود ، فكان أن صاغت وجدان الانسان الاسرائيلي

صياغة عرقية ، نازية معادية للعرب ، دافعة الى الاعتداء عليهم وقتلهم واغتصاب أراضيهم وتشريد أهلهم .

دور الكلمة في الحرب :

إذا كانت مهمة الأدباء ، حسب التعبير المعروف ، أن يهندسوا النفوس البشرية ، فان هذه المهمة في الحرب ترتفع الى مستوى أعلى بكثير من مستواها زمن السلم . فالحرب ، باعتبارها استمراراً للسياسة بوسائل أخرى ، هي فعل طارىء على فعل مقيم . الفعل المقيم هو السلم ، والفعل الطارىء هو الحرب التي تقطع مجرى السلم لزمن محدود . ودور الكلمة التي كانت زمن السلم هندسة النفس البشرية ، يصبح زمن الحرب تحريض هذه النفس على العمل بأقصى طاقتها وفق هندستها السابقة .

بمعنى آخر ، اذا كان الأدباء زمن السلم قد عملوا على بناء الانسان المنتج ، الباني ، الحارس لانتاجه وبنائه في مجموع وطنه من عدوان الغير عليه ، فان عليهم زمن الحرب أن يدفعوا هذا الانسان الى التضحية دفاعاً عما انتج وبنى ، اي عن وطنه كله وشعبه كله .

في هذه العملية الموحدة للذات والأرض والعمل في الانسان ، يكون دفاعه ضد العدوان عليها نضالاً للاحتفاظ بها ، وهذا النضال لا يهدف الى كشف الذات ، أو التعرف اليها أو اعادتها ، لان ذات الامة ، بمعنى روحها ، لا تفقد ابداً . تظل باقية حتى في ذروة مآسيها وكوارثها ، ويكون على الادب من خلال الكلمة توعية هذه الذات وانضاجها ، وتفجير القوة الكامنة فيها ، وذلك بوضعها أمام الخطر المحدق بها ، وتنبيهها الى النتائج المترتبة عليه ، وتحرير امكاناتها ومواردها ومفاهيمها لمجابهته والقضاء عليه .

وقد لعبت الكلمة دوراً هاماً في كل حروب التحرير والمقاومة ضد العدوان ، وفي تاريخنا العربي ، يقدم أدب الحرب صفحات مشرقة عن فعل الكلمة التحريضي في القتال الذي كان ينشب بين القبائل العربية ، أو بين العرب والفرس ، أو بينهم وبين الروم .

فعنترة العبسي يصيح بالمرأة التي جاءت تخوفه الموت بانه لايخافه . وهو لايخافه لا لأن حاسة الخوف عنده منتفية . بل لأنه يرى ، في عمقه وعقله ، الا سبيل الى الخلود

على هذه الأرض ، وليس من انسان فيها بمعزل عن الموت ، وهذا النبع الذي يشرب منه الجميع سيشرب منه هو ايضاً يوماً من الأيام ، فاذا لم يقتل الآن سيموت غداً ، وما دام الامر كذلك فما معنى الخوف ؟ وما هي فائدته ؟

ان هذه المحاكمة العقلية الشجاعة تتردد في كثير من صفحات الأدب العربي شعراً ونثراً ، وقد تمثل يزيد بن المهلب بقول الحصين بن الحمام :

تأخرت أستبقي الحياة فلم اجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

وضربت العرب الامثال فقالت : « الشجاع موقى ، والجبان ملقى » و « من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً » و « الشجاعة وقاية والجبن مقتلة » ، ومن اجمل ما فخروا به قولهم :

واذا دعوتهم ليوم كريهة سدوا شعاع الشمس بالفرسات
لا ينكتون الارض عند سؤالهم لتطلب العلات بالعيدان
بل يسفرون وجوههم فترى لها عند السؤال كأحسن الألوان

وآلاف الصفحات التي تضمها كتب الادب العربي تزخر بمثل هذه الاقوال الشعرية والنثرية التي كانت في وقتها كلمات بمثابة سيوف ، أعدت وصاغت وجدانات الذين يحملون السيوف، ودفعت بهم الى الموت او النصر في المعارك التي خاضوها .

غير أن هذه الكلمات لم تستنفدها مناسباتها ولا مراحلها ، مادامت تحمل ، كالأدب الأصيل ، اضافتها الى المستقبل الذي هو حاضرنا ، والآتي الذي هو مستقبل غيرنا ، ونحن ، في قلب المعركة أو داخل ورشة العمل أو المجتمع ، عندما نقرأ أدب الحرب عند أسلافنا ، نجد فيه صورة لما يجب أن تكون عليه صورتنا ، مثلما وجدوا هم في أدب من سبقهم الصورة الشجاعة الواجبة لأسلافهم عليهم ، لأن الصور تتداول ، أخذاً وعطاء على الدوام .

وقد كتب يوماً ليرمنتوف يخاطب الخنجر قائلا : « أم تراك لن تستل بعد ؟ نصلك من غمده الذهبي استجابة لدعوة الانتقام؟» فجاء الشاعر فاليري بروسوف وكتب عام ١٩٠٣ من وحي كلمات ليرمنتوف قصيدة الخنجر التي ستكون بعد أربعين عاماً نشيد المواطنين السوفييت في حربهم الضارية ضد المعتدين الألمان .

قال بروسوف عن الخنجر :

« ها قد استل من غمده / هذا الذي يلمع أمام أبصاركم / مشحوذاً مرهف النصل كما كان / فحين تزمجر الرعود / وتصبح الأغنية صنو العاصفة الأبدي / يمكث الشاعر بين الناس .

« وحينما نظرت فلم أر العزم والاقدام / وأحنى الجميع رؤوسهم لنير في خنوع / رحلت الى أرض الصمت والقبور / الى القرون السحيقة الغامضة .

« وكم كرهت نبراس هذه الحياة كله / نبراسها السقيم التافه القبيح ! / كنت أحياناً أقهقه لنداء النضال / اذ لم أثق بصوته الخجول / وما كدت أسمع النفير المنشود / ما ان انعقدت الألوية النارية / حتى دوت صيحتي وأغنياتي استجابة للنضال / مردداً صدى الرعود في السماء .

« يا خنجر الشعر ! / ان لهيب الرعود الدامي / قد ومض على نصالك الأصيل كسابق العهد / ولأني شاعر .. ولأن البروق لمعت / أصبحت بين الناس من جديد »

وخلال الحرب العالمية الثانية التي دوت فيها الكلمات والأناشيد الكفاحية دوي القنابل المتساقطة على النازيين في كل مكان ، كان لكل شعب أدبه الحربي الخاص ، وأغنياته الجريئة وأناشيده الخاصة .

ففي الصين كان نشيد مسيرة الجنود واسمه بالصينية « تشي-لاي » - استيقظوا - هو النشيد الذي سرى في كل أرجاء الصين ، وغناه كل مواطن صيني : « استيقظوا أنتم يا من ترفضون الخضوع والعبودية » .

وفي الاتحاد السوفيتي راجت أغنية تقول : « يا فتاتي العزيزة لا تخافي / ان حبيبك مقاتل مخلص وشجاع / تمني لنا السرعة في الرحيل الى الجبهة / لكي نداقع عن بلادنا السعيدة » .

وفي النروج ، كان نشيد المقاومة للاحتلال النازي الذي تتداوله الالسن :

« نحن أبناء النروج ، لكره النازيين سارقي خبزنا ، وسنصفي حسابهم قريباً . »

وغنى المقاومون الفرنسيون : « عليك أن تكره ، عليك ان تحتقر / أعوان النازيين وخدمهم / لافال ، دوريو .. وعصاباتهم / ولسوف ترقص يوم يشنقون » .

وكان نشيد المقاومين اليونانيين يزخر بالحماسة وبالهتاف للحرية ، ويتفجر غضباً على الالمان المحتلين : « عرق المعركة تحدر مالحاً رطباً حتى حاجبيه / وقدم حياته شريفة للموت »(١) .

هكذا كان المحاربون والمقاومون والادباء ، كل من موقعه على خريطة الجبهة يناضل ويلهم ، يحرض ويتحرض ، يشعل نار الحقد على الاعداء، وبهذه النار يستنير، ويقبس كلماته الحارقة التي تنتشر بين مواطنيه فتدفعهم الى بطولات جديدة ،ومن هذه البطولات الجديدة تنشأ كلمات جديدة ، في هذا التفاعل الذي للكلمة والرصاصة في المعركة المتلظية ضد الاعداء .

ولسوف يبقى الكثير الكثير من الادب الذي كتب خلال الحرب العالمية الثانية ، لا شاهداً على هذه الحرب وقائع وبطولات فحسب ، بل شاهداً على دور الكلمة فيها ، الكلمة التي حاربت وانتصرت لان أصحابها في ساعات المحنة التي عاشتها اوطانهم كانوا مع شعوبهم في خطوط النار ومسيرات المقاومة ، وفي المصانع والمعامل ولجان الدفاع عن المدن المحاصرة التي ارتدت عنها جحافل الغزاة مدحورة .

كذلك من حرب تشرين التحريرية ، ومن صور المقاومة المسلحة التي مارسها الفدائيون العرب في الارض المحتلة طوال سنوات ، ومن استمرار القتال لتحرير الارض واسترداد الحقوق ، ومن تواصل أعمال المقاومة ، سيكون للكلمة وللفن اضافتها الباقية لأجيال الآتية . فهذه الصور الادبية عن المعارك ، شعراً كانت أم قصة أم مسرحية تستمد قيمتها الفنية من قيمتها الواقعية ، ومن صدق معاناتها لهـذا الواقع ، ثم من توهجه وحرارته ؛ ولئن كتبت ببساطة فان روعة بعض الآثار الباقية هي في بساطتها ، بساطتها لا تبسيطها ، لان البساطة تنطوي على عمق ، وهي تجانف التسطح الذي قد يكون في الاعمال السريعة كما يكون في الاعمال المتأنية ، بسبب من سطحية الكاتب نفسه .

وقد أرى ان على الادب المعبر عن المقاومة أو حروب التحرير ان يميل الى البساطة في فترات تاريخيـة ضرورية ، لانه بذلك يلبي حاجة هذه الفترات الى التنوير والتعليم وشحذ الهمم والتحريض على الانتاج والبذل والتضحية .

وليس ادعى الى التمسك بهذا المفهوم للأدب ، في هذه الفترة بالذات ، من أدباء

---

(١) مجلة الطريق اللبنانية ـ مجلد ١٩٤٣

المقاومة الفلسطينيين بخاصة والادباء العرب بعامة ، لان ما يكتبونه يجب أن يكون مفهوماً من الجماهير ومؤثراً فيها ، يمدها بالطاقة على الحركة التعبوية والقتاليــة ، وتمده بالصور عن تعبويتها وقتالها ، في ذلك التفاعل اخذاً وعطاء بين ماهو واقع وبين ماسيصير واقعاً جديداً أروع من خلال الكلمة والفعل .

وكم سيكون مجانفا للحقيقة المرادة بهذا الكلام ، أن يفهم أن ماأدعـو اليه هـو الكتابة عن ادب النصر كما كانت الكتابة قبل تشرين عـن أدب الهزيمة . ان دور الأدب والفن ليس تسجيلياً بحتا ، وليس أحادي الجانب لايرى في الألوان الا احد اثنين : أبيض أو أسود ، وقد احسن محمود أمين العالم في اشارته الى هذه النقطة بقوله : « ان القضية لاينبغي أن تتحول من ابداع ادب هزيمة الى ابداع ادب نصر ، انما في ابداع أدب ذى غنى وشمول (١) » .

ان الادب صورة للواقع الانساني ووعيه ، وهو فعل حياة . إنه وجود متكامل لها ، يستمد مقوماته من جماع فعل الانسان فيها ، ومن جماع رؤية الكاتب لهذا الفعل الانساني في ماضيه وحاضره ومستقبله ، وقد كان من منطلقات ادبنا العربي الحديث أخذ خير ما في أدبنا القديم ، في استعادة حية تنمي ماهو صالح ، وتطرح ماهو متخلف ، ورفض القديم البالي المعوق في الفكر ، والثورة عليه ، ونبذ التبعية والتقليد ، والدعوة الى الحرية والتقـدم ، ورفض وصاية المؤسسات الرعوية الشائخة بشبابيتها ومجانبتها للعلم وروح العصر ، وتبني الجديد والتجديد ، والالتزام بالتحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وقضايا الانسان الآنية والمصيرية ، والاتجاه دائمـا الى كل مايغير الواقع السياسي ، والى كل مـا يصوغ الانسان العربي الجديد ، ويهبه القدرة عـلى تجاوز تخلفه ، ويمنحه الغلبة على معوقات حياته ليكون سيد واقعه ومصيره لاعبدهما .

---

(١) الآداب ، كانون الثاني ، ١٩٧٤ .

تشرين ومسرح الحرب

رياض عصمت

قبل الحديث عن ملامح المسرح في سورية بعد حرب تشرين ، لا بد أن نتساءل. فيما اذا نشأت ظاهرة تكرس هذا الفن لموضوع الحرب الرابعة بين العرب واسرائيل ، وتحمل هموم وتطلعات المرحلة ، أسوة بما حدث في أعقاب حزيران ١٩٦٧ من قبل . ولادة مثل هذه الظاهرة المسرحية ، او توقعها ، يعني ولادة ملامح جديدة ومتغيرة على خارطة الواقع الاجتماعي والسياسي ، بل واكثر من ذلك ، الانساني .

لذا نجد أنفسنا أمام جوابين محتملين :

• إن كان الجواب : « نعم . يوجد مسرح تشريني » ، يكون من واجبنا التصدي بالتحليل والتقويم لاعمال هذا المسرح ، الذي يفترض أن يترك شرخاً في تسلسل تاريخنا الثقافي يمحو كل بكائيات حزيران النكسة (١) .

• أما اذا كان الجواب : « لا » ، فلا بد ان نبحث فيما اذا كان القصور يعود إلى المسرحيين أنفسهم ، أم الى مسألة تأثير الحدث نفسه كفعل مغير ، أم الى توقعاتنا السريعة لمثل هذا التغير .

ان هذا البحث الصغير قد لا يستطيع الاحاطة بكل جوانب المسألة ، ولا أن يفردها على واقع المسرح العربي بشكل عام ، رغم أنه يفترض ذلك . انه يحاول ألا يكون تعسفياً فيبدأ بوضع مقولة جوابية ثم يبررها بالحجج الدامغة . وانما سيحاول بأكبر قدر ممكن من الموضوعية أن يسبر واقع الحركة المسرحية في سورية بعد حرب تشرين ويستخلص منها بعض النتائج الصادقة .

إذا بدأنا بتذكر الأعمال المسرحية التي نشرت في القطر عقب حرب تشرين ، لاكتشفنا حقيقة غريبة مفادها أن معظم هذه الأعمال قديم يعود إلى رحلة السنوات الست التي أعقبت حزيران ١٩٦٧ ، بل الى السنوات الأولى بعد هذا التاريخ . لقد نشر اتحاد الكتاب العرب مثلاً مسرحية قديمة جداً سبق أن عرضها المسرح القومي قبل عام ١٩٦٧ بسنوات عدة . والمسرحية هي « دخان الاقبية » ليوسف مقدسي ، التي لم يكتب غيرها على ما نعلم . اما العمل الثاني فهو مسرحية « السيل » لعلي كنعان ، وقد عرضت في اعقاب هزيمة ١٩٦٧ وعالجت بمزيج من الواقعية والشعر ، من المباشرة والرمز ، قضية الواقع العربي المهدد بالاخطار في تلك المرحلة ، وهي المسرحية اليتيمة للشاعر أيضاً ، وقد اصدرها اتحاد الكتاب العرب .

---

١ ـ جدير بالذكر أن عدداً من الأدباء المتحمسين خلال أيام حرب تشرين وبعدها شنوا حملة شعواء غاضبة على الأدب الحزيراني ، مسندين اليه شتى التهم السلبية ، متناسين أنهم أنفسهم كانوا من دعاته . فقد صرح أحد الشعراء أنه سيمزق كل ما كتبه من شعر قبل تشرين ، بينما أعلن قاص وكاتب مسرحي معروف أن المرحلة الجديدة ستلد أدباً متفائلاً وأنه كان يكتب قبل حرب تشرين أعمالاً متفائلة ، لأن بصيرته النافذة استطاعت التنبؤ بالنصر القادم ، وأدان فيما أدان الأدب الحزيراني الأسود .

العمل المطبوع الثالث هو « طائر الخرافة » لرياض عصمت ، وهو مجموعة مسرحيات تجريبية قصيرة كتبت في السنوات الممتدة مابين ١٩٦٧ ، ١٩٧٠ وهي متأثرة بعمق بالواقع السياسي الحزيراني، ويسيطر عليها احساس بالقتامة والسواد من جهة وبالصراع من اجل التماسك من جديد من جهة اخرى .

أما الأعمال التي ظهرت عقب حرب تشرين فقليلة ، احدها مسرحية « الغرباء » لعلي عقلة عرسان ، وقد صدرت عن وزارة الثقافة ، وسوف نتطرق للحديث عنها بعد قليل . كما نشرت مجلة « المعرفة » مسرحية قصيرة لمصطفى الحلاج هي « أيها الاسرائيلي حان وقت الاستسلام » وسنتحدث عنها ايضاً مع العروض التي قدمت في القطر . وظهرت ايضاً اعمال اولى لبعض الكتاب الشباب لكنها لم تحظ بعد بالاهتمام الكافي .

كما نرى على خارطة المطبوعات المسرحية ، فان المام الحرب للكتاب المسرحيين كان قليلا ، وربما كان احد اسباب هذه الظاهرة صعوبة رصد حدث كبير متعدد الجوانب كالحرب في المسرح ، مما يجعل دور هذا الفن مقتصراً على بعض جوانبها غير المباشرة . ولكن السبب الرئيسي على ماتعتقد هو أن المسرح قدمل فكرة الصراع المباشر بين خصمين احدهما يرمز للعرب والآخر لاسرائيل(١) ، وفي الوقت نفسه لم يعد التعرض لجوانب الصراع الداخلي بين الجوانب السلبية والايجابية واردأ ، وذلك بسبب الانهيار بالصمود العربي ، واستعادة الثقة بالقدرة على الحاق هزيمة بالعدو ، بحيث طغى التفاؤل في الادب عموماً والمسرح خصوصاً – كما سبق وبينا في الاشارة السابقة – على جوانب التشاؤم والنقد الذاتي . لقد قفز المقاتل العربي في تشرين فوق خندق الخوف والاستكانة .

* * *

قال نجيب محفوظ جواباً على سؤال وجه اليه في احدى اللقاءات حول تأثر مايكتبه حالياً بحدث حرب تشرين مامعناه: «الادب الجيد لايتأثر بسرعة بالاحداث الراهنة بل يختزنها كي يختمر للمستقبل . وأضاف : ان آثار حرب تشرين على الادب قد لا تظهر

---

(١) اخرج يوسف حرب للمسرح القومي مسرحية لبرشت هي « الهوراسيون والكوراسيون » في محاولة لاسقاطها على الواقع العربي في هذه المرحلة ، وقد جاء هذا الاسقاط مباشراً ، كما اجمعت الآراء التي ناقشت العمل . المشكلة أن مسرحنا غالباً يعالج ما كان ، ولا يتساءل حول مايجب أن يكون .

في السنوات الراهنة بشكل أصيل وعميق ، فظهورها الحقيقي قد يبدأ بعد عشر سنوات من هذا التاريخ ، وليس بشكل آني كما يعتقد بعضهم » .

بالتأكيد ، تدلل كلمات الكاتب العربي الكبير على صدقه مع فنــه ، فهو لم يكتب ثلاثيته الشهيرة الا بعد تاريخ أحداثها الحقيقي بزمن كبير ، ولم يلجأ الى القصة القصيرة المجددة والمسرحية القصيرة الا كوسيلة لرصد ومتابعة واقع سريع التغير ، لكنه مع ذلك في تلك الاعمال وفي مجموعة قصصه « الجريمة » التي صدرت مؤخراً ، وتحوي مسرحية سياسية عبثية الطابع ، لم يلجأ الى المباشرة او الرسم صورة كاملة للواقع الراهن، بل ترك كعادته في نهايات اعماله هذه النهاية مفتوحة تتساءل عن الحل تساؤل كل النـاس ، وتقلق من أجله قلقهم جميعاً .

ولا يختلف عنه في رأيه حول أدب الحرب كاتب كبير آخر هو الدكتور يوسف ادريس الذي لم يكتب حتى الآن عملاً ذا تأثر مباشر بالحدث السياسي . ان الفن على مختلف مدارسه رديف للواقع ، وليس عبداً له .

وتذكرني هـذه الآراء باعتراف الشاعر الرومانسي الانكليزي وردسورث في انه لايستطيع كتابة قصائده وهو منغمس في التأثر المباشر بالطبيعة أو بحدث ما ، وانما كان يكتبها حين يعتكف لوحده مستسلماً لذكريات ما شاهد ، مستعيداً انفعالاته آنئذ .

وهذا صحيح تماماً بالنسبة لكل الأدب العظيم . الفنان وهو يعيش حالة انبهـار لايستطيع أن يعبر عن مشاعره ورؤاه بشكل عميق ومؤثر . وهذا يصدق بوجه خاص على المسرح لانه فن تركيبي، ولأنه يخضع الى اعتبارات عديدة تقيد زمان حدثه ومكانه، وتكتفي بالحوار والايماء لغة له دون لغة الوصف . لذا كان الطراز المسرحي الشائع الذي يعالج الاحداث السياسية الكبيرة مباشرة هو طراز مسرح البلاكات ، والدعاية . ولكن هذا المسرح سجل تراجعاً واضحاً أكد انه قد استهلك ، مما دفع بالكتاب المسرحيين الى محاولة جديدة هي تقديم الحدث السياسي العام في إطار درامي، كما فعل علي عقلة عرسان ومصطفى الحلاج في مسرحياتهما الاخيرة .

الغرباء

هذه المسرحية الجديدة لعلي عقلة عرسان ، والتي ظهرت مطبوعة وممثلة في اعقاب الحرب الرابعة بفترة وجيزة ، تعتبر استمراراً لما بدأه الكاتب — المخرج من تأريخ

مسرحي القضية الفلسطينية وقد امتد ليشمل هويتها العربية ككل ، كما غير من لبوسها الفني ، اذ بينما كانت المسرحية السابقة له — وهي « الفلسطينيات » — تعالج المسألة بطابع ينحو نحو التسجيلية ، بدت « الغرباء » وقد اتجهت نحو الطابع الدرامي أكثر وحاولت بتعطش أن تتشبث به . ونذكر بوجه خاص الحملة العنيفة التي شنها على المؤلف عدد من الأدباء الفلسطينيين لما بدا في هذا التأريخ من اجحاف وتشويش في وجهة النظر الفكرية . وليس هذا غريباً ، لأن المؤلف رغم ثقافته المسرحية الواسعة قد اختار موضوعاً شديد الكبر والتعقيد لا يتمحور حول حدث اساسي وشخصيات رئيسية ، وانما يطمح للاحاطة بكل شيء وبمعنى آخر اللجوء للفكر . وبين رسم الواقع وطرح الافكار ، قصرت المسرحية عن تحقيق غاياتها الفكرية والفنية .

ماذا تروي المسرحية لنا ؟

نحن أمام تاريخ القضية الفلسطينية يعرض علينا كاملاً من خلال قصة غرباء أتوا الى قرية واستوطنوها ، ثم ما لبثوا ان استطالوا في حكمهم وتحكمهم ، الى أن هبت القرية المستغلة تدافع بالسلاح عن حريتها وسلامها .

ورغم أن الكاتب — المخرج كان يصر أحياناً لدى مناقشة المسرحية على البعد الواقعي الدرامي لها ، معتبراً اكتشاف الاسقاط التاريخي براعة فنية له ، إذ يلهم القارىء والمتفرج به ، فقد كان في احيان اخرى يستدرج بسهولة الى مناقشة رأيه في الواقع التاريخي فاذا به مطابقاً لما جاء في المسرحية .

والواقع أن اكتشاف العلاقة ما بين البعدين مسألة شديدة السهولة بحيث لا تصعب حتى على صبية المدارس . فالمسرحية تعرض المسألة الفلسطينية منذ الهجرة اليهودية وحتى معارك تشرين ، ولا تهمل ما جرى بينهما من أحداث هامة ، فتركب كل قضية عامة على مسألة شخصية لتنقل الوثائق الى دراما . ونعتقد أن هذا امر بيّن الى حد يجعله غير قابل للمناقشة ، وهو يكشف لنا بالتالي الاغراق في العملية التركيبية لدى بناء النص ، هذه العملية التي تعتمد الفكر والعمل بدل الالهام ، وتصل بالتالي بالعمل — خصوصاً في فصله الثاني — الى الاسهاب والافتعال .

كانت أمامنا على المسرح شخوص لاشخصيات ، ودمى لا أجساد حية ، وعيب هذا يعود أساساً الى النص ، إذ ان المتفرج ما ان يكتشف اللعبة ، ويبدأ بالتعامل مع المرموز

بدلاً من الرمز ، (وهذا يبدأ بإلحاح مع الفصل الثاني) حتى تفقد المسرحية انسانيتها ، وتصبح مجرد بناء ساذج لمعادلات رياضية سهلة الحل يوازي فيها : أبوداوود = اليهود وخفر الدرك = أمريكا ، والمختار = الزعامة العربية .. الخ . ورغم ان المؤلف حاول أن يبني مشاهد ثنائية أوثلاثية في مسرحية تتمتع بمعالجة حوارية متينة الأسلوب ، إلا ان التفاصيل الحديثة وتفسيراتها المباشرة تجعل الرموز هشة وأحادية التعبير ، وتؤدي بالتالي الى شعور من اللامبالاة والملل .

حتى الغرباء — أي اليهود الصهاينة — عومِلوا كشخصيات مسطحة : أشرار تماماً ومخادعون الى حد أسطوري ، عيبهم الأساسي انهم يرقصون وأن فتياتهم يمارسن الجنس مع شباب القرية . حتى إذا كان هذا في المسرحية اظهاراً لأساليب الصهيونية ، فهي طريقة فجة الى حد كبير ، وليس هناك من رديف لهذا يرتفع الى مصاف التحليل السياسي والاجتماعي والنفسي للشخصية الصهيونية ، رغم ان صورة هذه الشخصية أصبح متوفراً نظرياً وعلمياً وبواقعية وعمق شديدين(١) .

وعرسان لم ينس أساس المسرح وهو الصراع ، فمسرحيته غنية بالصراع ، لكن هذا الصراع لايثيرنا ، لأنه لايحمل لمسة الواقعية في المسرح ، ولا يحمل لمسة الشاعرية . الفكر على مايبدو — أو الفكرة — مسبق على الرؤيا الدرامية . ليس معنى هذا مطالبتنا بخلو الدراما من الفكر ، بل على العكس نجد في حسن معالجة الواقع فكراً ينشط احساس المتفرج وعقله ، فكراً لم نحسه هنا بل قدم لنا في ملعقة الدواء قسراً ، بما فيه من جوانب تدعو لنقاش أكيد . لذا ، فالحدث الانساني الذي يتحقق فيه صراع الشخصيات ، وتنمو عبره الأفكار ، يظل محلقاً في آفاق الرموز دون أرضية واقعية يستند اليها ،

---

(١) راجع دراسة الدكتور هاني الراهب ودراسة الدكتور منير صلاحي في مجلة المعرفة ، وراجع أيضاً كتاب صبري جريس من سلسلة الابحاث الفلسطينية ، وكتاب الشهيد غسان كنفاني عن الادب الصهيوني من نفس السلسلة وكتاب معين بسيسو عن نفس الموضوع ، وكتابي محمود درويش « شيء عن الوطن » و « يوميات الحزن العادي » الأخير بوجه خاص ، ورواية يائيل دايان « غبار » التي نشرت في مجلة الموقف الأدبي ، وكتاب ابراهيم بحراوي عن الادب الصهيوني المعاصر . والملف الذي نشرته الطليعة المصرية بهذا الصدد .

ولو كانت الرموز موحية أو قابلة لعدة تفسيرات لكان في ذلك بعض العذر ، لكنها ، كما ذكرنا ، أتت مباشرة ومدرسية .

حتى على صعيد الفكر السياسي لاتبدو آثار حرب تشرين على المسرحية إلا بأنها كانت عملاً هاماً وحد صفوف العرب وجمع شملهم وأظهر لهم مقدرتهم في التغلب على العدو ... لولا « تخفر الدرك » ولولا بعض الأخطاء والتهاون . وهذا أمر يعرفه أصغر جندي وأبسط مواطن . ماهي الشخصية الصهيونية الحقيقية ، ليس كما روجت لها الدعاية وهولتها قبل الحرب ، ليس كما كنا ننظر اليها قبل هزيمة حزيران ١٩٦٧ ؟ كيف اكتشف الانسان العربي نفسه من جديد ، وهل أصيب بخيبة أمل ، أم أنه مليء بالتفاؤل ؟ لماذا كانت الحرب ، وكيف تعامل الانسان معها ، كواقع جديد ، وحدث عظيم في حياته ؟ كقدر يهدده بالموت ، وكواجب يبشره بالحياة ؟ وماذا كان فيها ، عبداً فرضت عليه الضرورة القتال ثم أثار له الصراع المصيري نفسه وقدراته ، أم انساناً حراً اختار القتال منذ البداية وسيلة لاحقاق الحق وردع الظلم ؟.

أسئلة كثيرة كهذه يمكن أن تثيرها الحرب في معالجات شتى للواقع العام مدنياً وعسكرياً ، محلياً ، وعربياً ، وعالمياً ، لكن « الغرباء » لم تفعلها بل اكتفت بروايتها حدث فقط لاغير .

والعرض المسطح للأشياء كان يتلمس جوانبها المختلفة دون تركيز ، لذا كان يخطيء . فالسذاجة ليست العلة التي أدت لضياع فلسطين ، كما أن الفلسطينيين ليسوا المسؤولين وحدهم عن استرجاع حقهم كما أضاعوه . ان قضية فلسطين أصبحت مأساة العرب والواجب المناط بهم جميعاً كأمة واحدة ، مها شتتها الزمان والاستعمار .

ولو اعتبر عرسان القرية فلسطينية وليست عربية ، لكانت المسؤولية كلها على عاتق أهلها وحدهم . أما اذا كانت القرية تمثل مجموع الأقطار العربية ، فانه عجز في هذه الحال عن توضيح الفارق بين الدور الذي يلعبه عامة الناس ومثقفوهم تجاه حدث كغزو آل داوود المقنع ، وعن الدور الذي يلعبه الأثرياء والتجار والشيوخ في المقابل . وأخص بالذكر شخصية مختار القرية المضطربة والمهادنة (ولا ننسى على مستوى الواقع دور مثل هؤلاء المخاتير) التي تحولت في النهاية الى وعي ثوري يقود حركة التحرير . كيف ؟ لا أحد يدري !! على أية حال ، فمسرحية « الغرباء » مسرحية جادة الى حد كبير ، كما عودنا مؤلفها على عقلة عرسان في أعماله ، وفيها من اللمسات الادبية للكتابة المسرحية الشيء الكثير

إذ أنها تتمتع بعبارة أسلوبية مركزة ومتينة، وبقدرة على خلق أكثر من علاقة بين أبطال المسرحية ، كانت للأسف علاقة حوار فكري فحسب . هذا ، وقد وضعت المسرحية لها هدفاً كبيراً أيضاً هو معالجة أبعاد القضية الفلسطينية واستجلائها وتقديمها للجمهور ، وهو هدف جدير بالتقدير ،لولا أنها لم تستطع تحقيقه بالصورة التي أردنا وارادها المؤلف.

لكن الواضح أن الأثر الذي تركه تشرين على هذه المسرحية لا يتجاوز حدود الأثر الدعائي ، بحيث أتت لتخبر بدلاً من أن تنوّر ، وبالاحرى كما هو مطلوب من الأدب ، أن تثوّر .

والغريب أن لعلي عقلة عرسان رأياً في المسرح خلال هذه المرحلة صرح لي به في حوار نشرته مجلة « جيش الشعب » عقب حرب تشرين ينادي فيه بوجوب متابعة رحلة الثقافة والفن بمنأى عن الاعلام والتوجيه ، اللذين يجب أن يأخذا من عالم الثقافة حيزاً محدوداً ولفترة وجيزة ، وكان من رأيه متابعة الجانب الأساسي من خطة المسرح القومي لموسم (٧٣ - ١٩٧٤) بما في ذلك عروض المسرح العالمي. في نهاية « الغرباء » نجد العكس ، نجد هيمنة وجهة النظر الاعلامية العابرة على وجهة النظر الثقافية الأصيلة .

« الغرباء » حكاية عرفناها جيداً ، قدمت لنا دون مشوقات ودون اثارة انسانية للاحساس أو للفكر ، لذلك مرت كالنسيم الخفيف لا يصحو معه النائم من سباته .

ضيعة تشرين :

بالتأكيد فإن لاسم محمد الماغوط في عالم الشعر من الاحترام والثقة ، ولاسم دريد لحام في عالم الكوميديا من الجماهيرية والمحبة ، ما يكفي لانجاح أكثر من عمل . من هنا ، من هذه الثقة بإقبال الجماهير وحبها تجسد هذا العمل ، فهو يملك جميع المواصفات التي تؤهله للنجاح ، من كاتب رشيق العبارة ، إلى ثنائي ضاحك ذائع الصيت ، الى فرقة دبكة تضم نخبة من الراقصين ، الى وجهين من ألمع وجوه ممثلنا الشباب هما أسامة الروماني وياسر العظمة ، الى ديكور فخم التصميم ، وأغنيات سجلت خصيصاً في استوديوهات بعلبك ، كلها عوامل تؤهل المسرحية للنجاح . ولكن أي نجاح ؟؟

المسرحية عبارة عن « فبركة » ناقدة بسخرية لا تخلو من البذاءة جميع الحكومات التي مرت على القرية في شخصية المختار ، وتتهكم عليها لأنها هي نفسها مع تغيير القناع

فقط ، الى أن يأتي المختار (وهو نفس الممثل نهاد قلعي) في حلقة ليقرر حرب تشرين التحريرية ويعلن النصر في جو احتفالي كبير ، في الوقت الذي نعلم فيه أن (دريداً) قد استشهد خلال المعركة . ايضاً ، ليس في هذه المسرحية أية اضاءة ايجابية من خلال تجربة الحرب الرابعة بين العرب واسرائيل ، فهي تهدف لمعالجة الداخل بروح نقدية لا تختلف عن النقد الذي يدور على لسان انسان الشارع العادي ، ولكنها مثل البهار الذي يضاف الى « الطبخة » ، تدخل حرب تشرين لترضي جميع الأطراف .

ولا يبدو لي هذا السقوط غريباً ، اذ أن محمد الماغوط الذي يتمتع بموهبة شعرية نادرة وفذة ، وموهبة في كتابة التمثيلية التلفزيونية ، لم ينجح في السيطرة على عالم المسرح . فالمسرح عالم يحتاج الى الموهبة والى اتساع الثقافة في آن واحد . لذا ، أتت مسرحية الماغوط الاولى «العصفور الأحدب» عملاً شعرياً صعباً ، يقرأ ولا يمثل ، ولقيت مسرحيته الثانية « المهرج » نجاحاً جماهيرياً في لبنان لأنها تنقد بحدة وليس لانها مسرحية جيدة فنياً ، فهي لا تخرج عما أرساه في المسرح سعد الله ونوس وفي القصة زكريا تامر وفي الشعر نزار قباني ، إذ إنها تعري بقسوة واقعنا المعاصر من خلال فانتازيا تعيد تجسيد بعض شخصيات التاريخ العربي في هذا الزمان ، لتكشف خلال ذلك اهتراء القيم الحاضرة ، والذل الذي يتعرض له الانسان على يد أجهزة القمع .

أما دريد لحام ، الذي نجح نجاحاً جماهيرياً ومادياً كبيراً في التلفزيون والسينما ، فهو يطرق باب المسرح بثقة مفرطة ودون استحياء . فدريد يطمح لإقامة مسرح خاص به ، كما يطمح لنوع من المسرحية الموسيقية بعد ان شاهد ماتحظى به مسرحيات الرحابنة وفيروز من نجاح . وكل هذا مشروع وممتاز فيما لو استطاع حافز الابداع ان يكون جاداً وصادقاً . لكن دريداً صاغ حلمه الجديد على أساس نجاحه التجاري واستمرار هذا النجاح ، موسيقا مسجلة على أجهزة تقنية حديثة ، ومسرح أنيق،ونجوم مشهورين ، وفرقة منتقاة للدبكة ، وملابس ، وأضواء ، وشخصية جديدة له صاغها بالاشتراك مع مؤلف مسرحي واسع الانتشار . وبالتأكيد ، فان دريداً ممثل كبير ، فقد استطاع ان يضحك الجماهير ليس في سورية فحسب وانما في العالم العربي ، واستطاع ان يضحك دون ان يفقد بالضحك الجانب الاجتماعي ، منذ كارلوس حتى غوار الطوشة في مشهد الويسكي . وكنا في « ضيعة تشرين » أمام شخصية جديدة له ، واقعية وكاريكاتيرية وطريفة . لكن المسألة لاتقف عند هذا الحد ، إذ أنها امتدت الى حد

الاستهتار الفكري ، إذ تسخر المسرحية بقسوة لاذعة من تبدل مخاتير القرية في شخصية نهاد قلعي) بالاسم فقط ، بينما يبقى هو نفسه في منصبه ، ولكن المخرج وقع في مطب حفره بنفسه عندما جعل المختار الأخير يقرر الحرب بشكل كاريكاتيري ، وسرعان مايلصق في نهايتها الخاتمة المفتعلة عن الشهادة والنصر ، في محاولة لإصلاح غلطته .

التصورات الفردية تظل محدودة الأثر مالم تكن أجزاء من كل فني شامل منبثق عن رؤيا واعية . لذا ، كان أمامنا في « ضيعة تشرين » خليط من المواهب المشتتة التي تدور في المكان نفسه ، مفتقدة أم عنصر في الابداع الفني ، وهو : الصدق .

دافع العمل كان الربح المادي الناجم عن شهرة الاسماء ، والثقة بعناصر التسلية التي تسربل العمل برواتها اللامع الفضفاض .

مرة أخرى ، كما في « الغرباء » ، نجد المسرح يخبر عن حادثة ، ولا يحلل أبعاد الحادثة . إنه مسرح بلا حبكة درامية ، ولا جدلية في البناء المسرحي ، ولا إثارة . كل عوامل الابهار لم تخرج بالعمل عن نطاق العادية ، والتسلية الخفيفة ، على حساب صدق التعامل مع الواقع فكرياً وفنياً . ولا أدل على ذلك من تعدد نهايات المسرحية طبقاً للبلد الذي تعرض فيه .

أيها الاسرائيلي حان وقت الاستسلام

مسرحية مصطفى الحلاج هذه مسرحية صغيرة بسيطة ، درامية البناء . والحلاج ، كما في « احتفال ليلي خاص بدريسدن » ، يكثف الحدث في مكان وزمان واحد ، ويمنح الشخصيات حرية الحركة والصراع .

الموضوع هذه المرة مستمد مباشرة من حرب تشرين . طيار اسرائيلي جريح يلتجيء الى بيت فلاحة وحيدة مع طفلها ، يهددها بمسدسه ويجبرها على اسعافه ، ولكن ايمانها بعدالة قضيتها يجعلها تنتصر عليه نفسياً وتجبره على الاستسلام . كل مايجري في النص من تفاصيل أسلوبية ، وبناء مسرحي ، يبعد بالحدث عن الحياة والحقيقة ، فيحاول أن يقنع بما لايقنع .

ونص الحلاج يحمل كل عيوب تركيب المسرحيات ضمن ظروف معينة ، إذ لم تنبثق المسرحية إلا من خلال الحاجة الاعلامية لوجوب ظهور نصوص مسرحية مستمدة من

واقع معارك تشرين ، فافتقدت بذلك شمول الرؤيا وصدق الابداع ، وأصبح حوارها موظفاً لنقل الافكار بمباشرة وذهنية واضحتين بدلاً من أن يكون نابعاً من طبيعة الموقف والشخصيات .

رغم ذلك فالمسرحية لاتخرج في اطارها العام عن النهج الذي رسمه الحلاج لنفسه ككاتب مسرحي، كما ذكرنا، وهو نهج المدرسة التعبيرية بكل مافيه من مساوىء ومميزات فاذا اعتبرنا أن ماذكرناه يوجز المساوىء ، فلا شك أن من محاسن النص انه يحافظ على خط درامي ونفسي متصل ومتطور ، وعلى أسلوب غني يحمل المسرحية بطابع أصيل من الصراع المستمر . أساس المسرح.. أي مسرح . فالقوة الهاجمة (الاسرائيلي) تصارع القوة المدافعة (المرأة) ، وما يلبث الموقف البطولي – ولن أسميه التراجيدي للأسف الشديد – أن يبلور الشكل النهائي للصراع والذي يبلغ عند القوة المدافعة حد الاستشهاد وهنا تجهض الفكرة الدعائية فن التراجيديا . وتكتب نهاية الصراع ببساطة لصالح الفلاحة المستضعفة ضد الطيار الاسرائيلي دون أية خسائر أو تضحيات ، وانما بحلول مفاجئة جاهزة كحواديث الاطفال .. وهكذا نرى الاسرائيلي يسلم سلاحه للمرأة الضعيفة ويختار أن يساق أسيراً بدلاً من ان يفقد حياته ثمناً لاسطورة دسها زعماؤه في رأسه .

كل هذا يجعلنا نقف موقفاً متحفظاً من هذه المسرحية ، إذ أن مايقوله المسرح في مرحلة بعد تشرين ٧٣ هو إما أن يعالج جوهر الواقع بجرأة وعمق وصدق ، وإما أن يصمت . وكما رأينا فإن الحلاج في مسرحيته لم يفعل هذا ولا ذاك ، لذا لم تخرج (رغم حماسنا للموقف الفكري المتفائل الذي تقدمه) عن نهج الفن الاعلامي الذي يخطط وينفذ بهدف خدمة غاية مسبقة ، ولا يملك دافعه في داخله . وأنا ممن يؤمنون بأن الاعلام يضيق حدود الحياة في الفن ، ويجعل له مهمة محدودة يكرس طاقاته لخدمتها ، فيولد في لحظتها ، وفي اللحظة التالية .. يموت .

الفكرة الوجودية عن تحدي الانسان العادي للموت من اجل فكرة ، بل من أجل ايمان صغير يملأ قلبه بالثقة والامل ، لم تنقذ النص من عيوبه، لكن العرض المسرحي بوجه عام هو الذي فعل على يد المخرج علي عقلة عرسان ومنى واصف (الفلاحة) ورياض نحاس (الاسرائيلي) ، وجدير بالذكر أن منى واصف وهاني الروماني قدما عرضاً لهذه المسرحية في مهرجان مسرحي عربي جرى بالمغرب ، وقيل انها حظيت باقبال جيد ، وربما كان هذا الاقبال عائداً الى سمعة نضال المقاتل العربي، والمشاعر الوطنية تجاهه وتجاه

سورية . ولكننا لا نشك في أن بقدرة الممثلين الكبيرين تقديم عرض ناجح من ناحية التمثيل . كما لا نشك في ان العرض الآخر الذي اخرجه علي عقلة عرسان يعتبر صفحة مشرقة في تاريخه الفني .

* *

هناك مسرحيات كتبت قبل تشرين ثم أعدت بسرعة لتلائم الظرف الجديد ، ولتبدو كأنها قد كتبت بعده . وهذا الافتعال الساذج ناتج ايضاً عن طغيان الاعلام على الثقافة ، وعن التعجل في انتظار ردود الفعل الادبية الحقيقية والصادقة .

كفر قاسم

« كفر قـاسم » خليط عجيب من المسرحية التسجيلية والميلودراما والابريت ، صاغه صحفي قديم ، فخرج شديد الشبه بما تقدمه المدارس عادة تحت اسم « تمثيلية قومية » . رغم انه كان يهدف الى طموح الحداثة والتسجيلية . وقد فشلت بالأخص عندما قـدمها المسرح القومي من اخراج محمد الطيب لأن اخطاءها ازدادت عمقاً وترسخاً . ولا بد من الاعتراف من ناحية أخرى أن النص كان قاصراً عن اعطاء المخرج الفرصة التي كان يطمح اليها لتقديم عرض شامل يوثق فيه أحداث القضية الفلسطينية والموقف العنصري والنازي الاسرائيلي من خلال مجزرة كفر قاسم . بالتأكيد كان من الافضل الاكتفاء بالحادثة نفسها ، لأنها وحدها كافية لاثارة جوهر الموقف الصهيوني فكراً وعملاً .

ولكن المؤلف شاء التوسع وادخال حبكة مصطنعة يختلط فيها نقاش محرر مع رئيس تحرير جريدته ، وتظهر فيها راوية الحدث مرة هنا ومرة هناك ، وينتقل فيها الى الاسلوب الوثائقي بين حين وآخر ، ثم يعود الى خط الحدث الرئيسي وهو المجزرة . لذا خرجت المسرحية بشكل لايزيد عن انتقاء قصاصات جرائد في حبكة غـير متكاملة منطقياً ولا واقعياً . والحادثة قد اصبحت معروفة جداً ، وقد كتب عنها مؤخراً محمود درويش وأورد الوثائق نفسها التي اقتبسها الكاتب لمسرحيته دون أن يضفي عليها أياً من مقدرة المسرح على الاثارة والتعميق .

ولو كانت المسرحية تسجيلية بالمعنى الصحيح لانقذت . فالمسرح التسجيلي شكل مسرحي قائم يعتمد نصاً على الشعر والأغنية ، (كما في أعمال بيتر فايس) ، وعرضاً

على عناصر التهريج والسيرك والميوزيك هول ، وتشارك فيه الموسيقا والاصوات الغنائية واللوحات الراقصة . وهو يقترب بذلك من المسرح الشامل الذي يكاد يطغى اليوم على باقي اشكال المسرح .

ليست المباشرة وحدها هي العلة . العلة هي المباشرة دون فن . وليس استخدام الغناء وحده منقذاً لأي عرض ، ولكن نوع الغناء ورقيه ينقذانه أحياناً . لاشيء ينقذ المسرحية التسجيلية من جفافها سوى القدرة على الامتاع ، والشاعرية ، والشمول الانساني في معالجة الوثائق التي تمتلكها .

في « كفر قاسم » كان هناك خليط لاينقل الينا جديداً على صعيد الفكر ، لأننا مقتنعون وعارفون بما يقال سلفاً،ولا تنقل الينا انفعالا ، لأنها تعتمد اسلوباً لا انسانياً في معالجة الشخصيات والحدث .

ويظل السؤال مطروحاً حول مدى علاقتنا وحاجتنا لشكل المسرح التسجيلي عند عرض قضايانا المصيرية !

ولم يقل اخراج محمد الطيب سوءاً عن النص ، فمن مغالطات الفكر ، تصوير العدو الاسرائيلي بصورة كاريكاتيرية ساذجة ملطخاً بالدماء ، وهي صورة بعيدة عن خيال المحرر ورئيس التحرير في المسرحية ، وبعيدة بالتأكيد في مبالغتها الاسطورية عن خيالاتنا نحن المتفرجين ، خصوصاً في اعقاب حرب تشرين حين واجه المقاتل العربي المقاتل الاسرائيلي بشجاعة ، واكتشف انه ليس اسطورة ولا وحشاً كاسراً ، بل هو مجرد شخص مدرب .. قد يخطىء .. ويقهر .. ويموت .

ولم تكن باقي النواحي الفنية أقل سوءاً من الفكر في المسرحية ، ولاأقل سذاجة، لذا خرجت المسرحية الى النور كمسرحيات المدارس ، فقط مع وجود ممثلين كبار بدلاً من التلامذة الصغار .

نوع ثالث من أنواع الكتابة للمسرح ظهر بعد حرب تشرين ، أو نبع من الظروف الاعلامية الخاصة المحيطة بها ، وهو « الاعداد » عن مسرحيات عربية أو عالمية ، فقد ظهرت أعمال مقتبسة من اروين شو وصموئيل بيكيت وميخائيل رومان . ومن المعروف في عالم المسرح أن يعد المخرج عملا ما بحيث يسقط أبعاده على الواقع المحلي ، ولكن

« الاعداد » هنا تجاوز هذه المرحلة ليصبح صياغة أدبية جديدة لجوهر العمل . وممدوح عدوان هو الشاعر الذي لجأ الى هذه الوسيلة غير المباشرة للكتابة المسرحية .

الانتظار :

« الانتظار » مسرحية مقتبسة عن « في انتظار غودوت » لبيكيت ، ولكن عدوان تناولها بإعادة صياغة تستلهم محاورها وشخصياتها الاساسية ، ولكنها تضيف اليها التفسير السياسي المحدد ، والاسقاط المحلي الواضح . وقد قدمت المسرحية فرقة المسرح الجامعي وأخرجتها نائلة الاطرش . و « الاعداد » ناجح الى حد كبير يخرج به من صفة الاعداد الى صفة التأليف ، ولكن الكاتب يصر على المطابقة الحرفية والفكرية والسياسية بدل الايحاء ، مما أطاح بشمولية بيكيت ومستويات حمله المتعددة . وعدوان ليس مهتماً بالعبث أو بالتساؤلات الوجودية أو الدينية . ان ما يؤرقه هو هم سياسي ، لذا كان موضوع « الانتظار » هو آلية الاستغلال الانساني . في المسرحية (فلاديمير) يضطهد (استراغون) وهما يبحثان عن الارض التي فقدت ويثرثران قرب شجرة زيتون ، وبالمقابل نجد (بوزو) القادم الغريب وصاحب الاملاك يمتن عبده (لكي) ويستغله أبشع استغلال . وسرعان ما تتحدد المواقع ويصل (بوزو) السوط الذي يجلد به عبده الى (فلاديمير) كي يجلد به صاحبه . ويلوح لنا (غودوت) وسط هـذا الحوار الفكري المتلاحق ممثلاً للسلام الذي لا يأتي ، تاركاً أصداء الصرخات المتسائلة عن الحـل ، والممتدة من منصة التمثيل الى مقاعد الحضور .

هذا الهدم لبيكيت يهدف بناء نص قرين ، وليس معداً ، أتى شديد العلاقة بحرب تشرين ، لأن الحرب شأنها شأن الأحداث الكبرى ، تكشف الهدم والآمال ، وتشرّح الواقع والبنى الاجتماعية القائمة مما يتردد في خلفية الأحداث .

ودور الطبقة المستغلة (بكسر الغين) في الحفاظ على مصالحها حتى ولو كان ذلك يقف حجر عثرة أمام النضال التحرري . لقد حدد ممدوح عدوان موقفه السياسي بوضوح من خلال مسرحية عبثية غامضة ، ورفع راية التقدمية على قمة مسرحية معاصرة كانت تعالج في الاساس مضموناً مغايراً فيه خلو العـالم من المعنى ، والعجز عن التواصل والفعل ، والانتظار الانسان الابدي دون جدوى لشيء لا يأتي ، قد يكون الثورة او الموت او الله ، لكنه هنـا في « الانتظـار » كان السلام الكاذب ، وبالتالي الموقف الضمني الموحى به هو استمرار النضال المسلح .

ليلة القتل

أحسن المسرح العسكري بانتقاء مسرحية ميخائيل رومان « ليلة مصرع غيفارا »، كما أحسن ممدوح عدوان مرة ثانية في اختيار أرض خصبة بكر . تتلاءم وتحتوي ما يريد قوله من أفكار . وقد أعاد عدوان صياغة المسرحية ونقلها من العامية المصرية الى الفصحى ، محافظا على جوهرها الفكري وبنيتها الفنية . واذا كانت بعض التعديلات قد لحقت بالنص فهي قد اقتصرت على الجانب الفكري ولم تمتد الى النواحي الفنية ، مما يحافظ على مسؤولية عدوان عن هذا العمل . المسرحية باختصار تتصدى لموضوع احباط الثورة ، من الخارج (الامبريالية) ومن الداخل (الرجعية) ، ومن داخل الداخل (عجز الثوري عن الاتصال بالجماهير واستسلام الجماهير للوضع السائد) .

والمسرحية ملحمة شعرية حديثة من طراز المسرح الشامل ، فيها من الشعر الثوري ، والجدة في البناء الفني . مايكفل لها الابهار والتأثير ، فهي تحتضن كل وسائل المسرح الغربي الحديث التي تحاول أن تزيد من تعاطف الجمهور وانفعاله بما يجري ، لذا تستخدم فيها كلمة « الملحمية » بجدارة . فالاغنية مثلا تزيد ولا تنقص من تصاعد الحدث ، والجوقة لاتعلق عليه فقط ، بل تشارك أيضا فيه وتنفعل بجرياته .

« وليلة القتل » أو « ليلة مصرع غيفارا » كما يقول مؤلفها الأصلي بجامع معناه : « ليست عن غيفارا ، فهو لايظهر فيها وهي لاتسجل واقعة اغتياله . المسرحية تدور في الليلة التي قتل فيها غيفارا ، الليلة ، أي ليلة ، تقتل فيها الثورة بالشكل نفسه في أماكن أخرى من العالم » . وأتى اعداد ممدوح عدوان المعدل مرات عديدة فجعل لغيفارا الثورة قريناً واحداً هو الفدائي ، وحصر جوهر الصراع بين الثورة والرجعية وبين الثورة والامبريالية ، في الصراع العربي الاسرائيلي والعربي الامبريالي ، فاستهلك هذا التحديد كثيرا مما كان يطمح عدوان لقوله بجرأة في مسرحيته لانه كان يريد التحدث عن الثورة عموماً في أي بلد ، وكان يريد التحدث عن تآمر القوى التي تجهض هذه الثورة وتمنع اتصال المناضل بالأرض ، فأصبح محدوداً بزمان ومكان معينين وبقوة واحدة ظالمة تقف في وجه هذا المناضل وتجند الاتباع لقمعه بعد أن تشتريهم بالمال والويسكي . والمسرحية لاتكتفي بذلك بل تعالج أيضاً مسألة انسجام الثوري مع الثورة ، وتدينه إذ يفشل في الاتصال بالجماهير فيبقى صدى ضائعا بين الصم المخدرين . ويعمل ممدوح عدوان مشرطه الحاد في كل الدمامل التي تملأ حياتنا السياسية وحياة الثورة في العالم ، ويعالج همّاً أساسياً

داخلياً وتتدرج المسرحية في بناء ملحمي جدلي منفصل إلى وحدات صغيرة متجاورة، لاتتصل ببعضها دراميا ، ولكنها تملك من الحرارة والاثارة والفن مايكفل لها شدانتباه الجمهور متفرجا كان أم قارئاً .

هذه الصراحة والوضوح في الطرح الفكري الملح عند ممدوح عدوان ليشكل خطاً موازياً لتفاصيل الواقع السياسي الراهن ، قضى على واقعية واقناع ما يجري على المنصة ، فتحولت معظم الشخصيات إلى أفكار ، وخلخلت ما في خيال المؤلف الأصلي وما جهد إليه عبر تدخلات صاحب الخمارة أو هرج الزبائن ليعيدنا باستمرار الى الخط الأصلي الذي يجمع حبات الملحمة . لذلك ورغم جودة الاعداد الأسلوبي والفكري ، لم يستطع عدوان أن ينقذ النص الأصلي من هذه البلبلة الفنية ، رغم أنه خلصه من علة الاسهاب والتكرار . ويبدو أن ممدوح عدوان رغم تمرسه الكبي بالكتابة المسرحية ، وخبرته من خلال تجسدها على المسرح . مازال أسير الفكر الذي يود طرحه ، والذي يشكل هاجساً مؤرقاً حتى يوصله للآخرين ، كي لا يتحول الى كابوس يعذبه ، ويشعره بالتقصير لأنه كالفتى في المسرحية لم يتصل بالآخرين كي يرسي الدعائم المتينة للثورة . لذلك تقلت من ممدوح الخيوط الشخصية والانسانية ويصبح مسرحه حواراً وصراعاً عنيفاً بين أفكار متناحرة ، رغم أننا نعترف بأنه حوار وصراع مليء بالنبض الثوري وبالشعر . إنه يعالج موضوع احباط الثورة من مختلف الزوايا ، ويرثي في النهاية بصدق وحزن شديدين سقوط بطل « الانتلجنسيا » الذي يحاول عدوان في كتابته ألا يكون مثله ، ويدعو الآخرين أيضاً ألا ينتهوا نهايته ، ونهاية سبارتاكوس ، وأبي ذر الغفاري ، ولومومبا ، وغيفارا .

لقد أتت « ليلة القتل » عملاً مسرحياً متميزاً بالصدق والجرأة والتجديد ، رغم العديد من نقاط الضعف والتشويش الفني . وعالجت واحداً من أخطر موضوعات الواقع العربي في هذه المرحلة التي تتعرض فيها أمتنا لتحد صعب وتواجه تهديداً شرساً .

الاحداث الكبرى ـ والحرب بالتأكيد حدث كبير ـ في تاريخ المجتمعات الانسانية تترك بصمات واضحة على الأدب والفن ، لان الحياة بعمقها وسطحها ، بأفراحها وأتراحها ، هي ينبوع الخلق والابداع . وتشرين ١٩٧٣ كان حدثاً هاماً ، لانه بلور هموم الحياة الاساسية في بؤرة محددة مضيئة ، ليجعل اليومي والمحسوس بعد الفكر والفلسفة . لكن مطالبتنا للثقافة أن تنجب خلال عام واحد ما يعبر عن هذه التطلعات

والهموم ، مسألة فيها كثير من الاجحاف . فتأثير الحدث الهام عادة لا يكون مباشراً ، اذ أن درجة التأثير تتعلق باستمرارية الحدث من جهة ، وبمدى علاقته بمعطيات الواقع من جهة ثانية .

واذا كانت الثقافة مطالبة بعد نكسة ١٩٦٧ أن تلعب دوراً جديداً وجدياً ، فانها بعد حرب ١٩٧٣ مطالبة بمتابعة هذا الدور . وهي ليست مدعوة لان تكون عودة لما قبل ذلك التاريخ ، بل أن تكون تعميقاً وتكريساً للبداية الصحية في الفكر والفن . ففي رأينا أن الادب العربي الحديث لم يبدأ مرحلة وعي الذات وتشريحها الا قبيل ١٩٦٧ بحقبة قليلة من الزمان لا تتجاوز العشر سنوات . بل لقد تزايدت الاعمال المخدرة قبله على وجه التحديد وفي أعقابه .

● واذا شئنا أن نحدد رأينا في موضع المسرح العربي من خلال عرضنا وتحليلنا السابق في نقاط لقلنا .

● تتساوى الاعمال المسرحية التي صدرت عقب حزيران ٦٧ وتشرين ٧٣ من الناحية الفنية ، خطأ من يعتقد بتشاؤم الاولى وتفاؤل الثانية . في الحالتين كان هنالك مسرح دعائي ، مباشر ، وفي أحسن الاحوال (أليجوري) . والمقارنة بين التاريخين مفيدة للغاية ، إذ أن ردود الفعل السريعة والانفعالية لم تختلف ، ومع مرور الزمن سقطت الاقنعة هذه ، وبرز الوجه الفكري التحليلي الاصيل لحزيران ، كما سيبرز بالنسبة لتشرين . اذ ذاك ظهرت قصيدة نزار قباني « هوامش على دفتر النكسة » ، ومسرحية سعدالله ونوس « حفلة سمر من أجل ٥ حزيران » ، ورواية حليم بركات « عودة الطائر الى البحر » ، كان ادب حزيران يفقأ الدمامل دون خدر ، لما سقطت الاعمال الدعائية السريعة إن كان في الشعر أو المسرح او القصة او الرواية ، وبقيت الاعمال الجيدة . وهكذا الحال بالنسبة لأدب تشرين .

● انجبت النكسة أصواتاً جيدة قويت بعدئذ واتخذت مكانها الطبيعي من خارطة الثقافة العربية ، وقد يكون مبكراً التحدث عن ذلك بالنسبة لتشرين ولكنه حتى الآن لم يبرز صوت جديد منه ، وليست الاصوات الشابة إلا استمراراً للتجربة الادبية القاسية مع النفس ومع المجتمع والتي تمخضت عنها هزيمة حزيران ١٩٦٧ .

● ليس معنى ذلك انه لا مسرح يعالج مسألة الحرب او مسألة تغير النظرة من العدو الصهيوني سوف يظهر ، لكن المحاولات المحترفة والهاوية التي ظهرت فعلاً كانت

على حد كبير من الضعف والركاكة. ولم تنج إلا المحاولات القليلة جداً التي جعلت حدث الحرب خلفية بسيطة لها ، أو موضوعاً ضمن سياق المشكلة الشاملة المطروحة . وأعتقد شخصياً أن المسرحيات التي سوف تكتب عن الداخل وعن الواقع هي التي سوف تعالج فعلاً وبصدق حرب تشرين ، وتترك للتاريخ بصماتها الراسخة .

● أخيراً ، الفن يحتاج الصدق والاصالة، الموهبة والثقافة ، وعي الذات ووعي حركة التاريخ ، لذلك كان ويبقى السؤال قبل حزيران وبعده ، وقبل تشرين وبعده : مسرح أو لا مسرح . وأخشى أن يهدد فن التوظيف الاعلامي للثقافة مسرحنا بالانحدار . فالمسرح يعلم دائماً عن حادثة ما ، لذا فالاعلام صفة فيه تسدد خطاه نحو النجاح ، لكنه عندما يتحول الى صفة الاعلام بمعناه السياسي الدعائي يسقط في هوة لا يستطيع معها تسلق قمم الثقافة والفن .

أيام تشرينية

حنا مينه

في الصباح كان التنبؤ بما سيقع باكراً بعد ، وفي المساء كان متأخراً جداً .

حدث ذلك في الثانية بعد الظهر . الصخور لم تتفتت ، وحجاب الهيكل لم ينشق ، لكن السماء اهتزت بهدير ألف طن من شحنة رعدية تدحرجت وانطلقت كسهم فضي ، ورجعت الأرض هدير السماء وزادته هديراً بما قذفت من حمم ..

الحرب ..

ولم نصدق ..

ليس فزعاً بالآمال الى التكذيب ، بل نزوعاً بها الى التوكيد ، بعد انتظار حسبناه محالاً ، وشوق خيل الينا انه قبض الريح .

وكان ذلك شعوراً صادقاً ومعاشاً . كان مراً ومعاشاً ، وكنا نمضغ مرارته منذ حزيران ولا نسأل الحلاوة في تشرين ، لان هذا في مضمرات الغيب كان ، ولم نكن قراء غيب ، وان انطوينا دائماً على قدر كبير من الرجاء .

كنا نعلن في ذكرى حزيران كل عام : اننا نستعد،ومع الامل في بلوغ الاستعداد غايته أخيراً ، كنا نسر في انفسنا : الاستعداد هـذا العام مثله كل عام ، وسيمضي العام ونستقبل غيره بمثله : « طيف خريفي من اليأس يرف ، وطيف خريفي من الاسى يأكل معنا في الصحن »(١) .

« ليس ذلك عن ضعف ، ولا عن جبن او قنوط ، بل عن انحسار في الثقة . لقد وقعنا ، وربما عن غير قصد ، في ازمة ثقة ، وما كنا ، بغير تشرين ، قادرين ان نستعيد ثقتنا ، بانفسنا اولاً ، وفي اشيائنا ثانياً .

« وحق عندما جاء تشرين ، أخيراً ، ذلك الصباح ، في السادس منه ، حسبناه في الشهور كشارين ..

« وحق عندما دوت الطلقات ، حسبناها ، في الاطلاق ، عيارات ..

« كان شيء ما ينقصنا : ان نتفائل » ..

وفي الثانية بعد الظهر بدأ القتال ..

الشوارع ، منـذ الصباح ، كانت توحي أن حدثـاً خطيراً سيقع . وقبله . في الأيام التي سبقت ، لوحظت استعدادات غير عادية . قيل إن الحرب توشك أن تنفجر ، لكن الناس هزوا أكتافهم وتابعوا أعمالهم ..

وفي الساعات التي تصرمت ، بين الظهر والثانيـة بعده ، من نفس السادس من تشرين ، ومـع التبليـغ واتخاذ وضع الجاهزية التعبوية بالنسبة للجميع ، ظل الناس غير مصدقين .

---

(١) الفقرات الموضوعة بين اهلة في المقال مأخوذة مما كتبته في جريدة «البعث» خلال حرب تشرين . ح.م.

كانت ساعات اهتياج وتوتر . في الشوارع ، السيارات العسكرية تمر مسرعة ، مموهة ، حاملة جنوداً بخوذات ، ومعهم أمتعة ومعدات .. وعلى الأرصفة يمشي المارة على عجل ، في اتجاهات مختلفة ، وبينهم جنود بنادقهم في أكتافهم ، انهم يقصدون أماكن حددت لهم . . يتبادلون التحيات على الماشي ويندفعون كأنهم في سباق مع الوقت ..

ومن حين لآخر يزدحم السير عند تقاطع الطرق . المركبات ، من كل الأنواع ، في صفوف طويلة ، متوازية ، متداخلة ، ثم لا يلبث السير أن ينتظم ، وعقدته تنحل ، وتمرق كالبرق سيارة اسعاف متعجلة ، وترى ممرضات ، وشارات الهلال الأحمر ، وصناديق أدوية .

وفي الجو ، على ارتفاع الاعالي ، نور من نسيج ماسي ، يشكل في الطبقات اللامتناهية لوناً بين البياض والزرقة ، حيث الشمس ترسل أشعتها الخريفية ، وسط حالة من الهدوء الكثيف ، المثير ، ولزوجة تحس ، عندما يتندى المرء بالعرق ، أوتثور عصفة غبار جمحتها سيارة منطلقة بسرعة عصبية .

وعلى الجدران سلالم وملصقات ، ارشادات الدفاع المدني ! أسهم حمر : ملاجىء! وأبواب الأقبية تفتح أو تنظف ، وعلى النوافذ أكياس رمل ! بعضها رصف ، وبعضها ينقل أو يفرغ من شاحنات . . وبراميل ماء ، وتوجيهات للتبرع بالدم ، وتعليمات للاسعاف .. كل شيء جاهز للتي ستقع : الحرب ! ولكن متى ؟

في الصباح كان التنبؤ باكراً بعد ، وفي المساء كان متأخراً جداً ..

لقد حدث ذلك في الثانية بعد الظهر ..

وكنا في وزارة الثقافة ، قد وضعنا في الجاهزية ، كما في سائر الوزارات والدوائر ، والتحق كل منا بالمكان المخصص له ، وبالمهمة الموكولة اليه . وتدلت من اكتاف البعض أكياس قماشية خضراء داكنة للاقنعة الواقية ، واقيمت صيدلية للاسعاف ، وملئت براميل الماء ، وتراصت على النوافذ الأرضية أكياس الرمل ، وبدا أن الساعة تقترب..

ومع ذلك ظل بعضنا غير مصدق ..

وعندما ، اخيراً ، سمعنا ازيزالطائرات ودوي طلقات المدافع ، شرعنا ، تنفيذاً للتعليمات ، بالنزول الى الملجأ في القبو . احتشد ثمة الموظفون والموظفات ، ونسوة ،

من ابنية مجاورة ، جئن مع أطفالهن . جزنا في لحظـات ، حالة الترقب الى الحضور . صرنا في جو الحرب ، وهدير الطائرات في انطلاقهـا الى الجبهة بسرعة الصوت ، كان فوقنا ، ومن بعيد ، في قصف داو ، كانت تبلغنـا اصوات القنابل ، ومع هـذا كان تساؤل في العيون ، يرى ولا يقال : أحقاً شرعنا ؟

وقال بعضهم : نعم، إنها الحرب ، وسنخوضها ، اذن ، بعد طول انتظار .

وقال آخرون : نخوضها .. هذا ما يجب .. ولكن ان نمضي بها . . ان نصمد . . ان نقاتل . .

وقال غيرهم : سنقاتل .. سنقاتل ..

وقال غيرهم : نرجو ذلك .. نأمل ان يكون قتال حقيقي هذه المرة ،

فأجاب آخرون ، قتال حقيقي طبعاً . . فرصتنا ، ولن نضيعها . . لا يمكن ان ندعها تضيع .. وماذا يبقى اذا ضاعت ؟

وفي الخارج كان الهدير ، جواً وبراً ، يتواصل ، والجميع ، في الشوارع والبيوت والدوائر ، يتحلقون حول الراديوات التي طفقت تبث الاناشيد الحماسية والمارشات العسكرية ، ثم لم تلبث ان اعلنت ، في البلاغات الاولى ، ان القتال يدور بعنف ، وان قواتنا ، على الجبهة السورية ، قـد اجتاحت تحصينات العدو وهي تتقدم في هضبة الجولان ، وان القوات العربية ، على الجبهة المصرية ، قد عبرت قناة السويس . .

وفتح الناس أعينهم جيداً . من دهشة فتحوها . . وعلى تساؤل كذلك : أحقاً ؟ وهل نقاتل بمثل ما نسمع ؟

كانوا غير مصدقين أيضاً . .

كانوا معذورين ..

كنا جميعاً معذورين لاننا ما كنا واثقين . وحتى الذين قاتلوا ، كانوا ، في البدء، على نصف ثقة . كانت أزمة الثقة اذن عميقة . كانت كبيرة وعميقة . وكان القتال ، بسبب من ذلك ، مفاجأة ، مع انه كان متوقعاً ، وهنا المفارقة . «فان يقاتل الانسان تحريراً لأرضه ، ودفاعاً عن اهله ، فليس ذلك بالشيء غير المألوف ، ولكن ان يقاتل ، وهو على غير ثقة بنفسه ، وعلى غير ثقة بقتاله ، ويستعيدها منذ الساعات الاولى ،

ويجهر في قتاله ، والى الدرجة التي حدثت ، فان هذا هو غير المألوف ، ونحن ، شعبنا ، مقاتلونا ، جعلوه مألوفاً».

لقد قاتلنا ، في اليوم الاول ، على كفاف من ثقة .

وقاتلنا في الأيام التالية ، على كفاية من ثقة .

وكانت ، لذلك ، تلك المجزرة في اسلحة العدو : طيراناً ومدرعات وزوارق .

أقولها غير متفاخر : ان لنا ، مع ذلك ، اخطاءنا ونواقصنا ، وقد دفعنا ثمن تلك الاخطاء ومنها تعلمنا ، او يجب ان نكون قد تعلمنا ، والا فان الاشياء تكون سيئة جداً .

انما اردت ، بما قلته ، ان الانسان العربي ، في الصورة التي ظهر فيها في تشرين ، كان غيره في الصورة التي ظهر فيها في حزيران . قاتل حين قيد الى القتال ، وبرز في ذلك وهو بنصف ثقة ، فكيف سيكون قتاله ، وقد امتلك ثقته كاملة الآن ، فيما لو تفجرت الحرب يوماً من جديد ؟

لنفكر في الجواب اذن . نفكر فيه لان السؤال لم يطرح نفسه عبثاً . طرحها لكي نتدبر الجواب في قناعة تتحول الى عمل مؤسس على هذا المعطى ، لدينا كل الامكانات للتحرير . شرط : ان نستخدمها . وان نفيد مما سبق واستخدمناه منها ، ونتابع والا توقفنا ، ثم تكر بنا السلسلة الى وراء اذا لم نتقدم ، اذا لم نعمل للمهمة التي هي رأس مهماتنا : تحرير الارض .

« صحيح ان الارض لا يمكن ان تموت ، ولكنها ، عندما يحتلها العدو ، تكون في حكم الميتة ، ونحن ، ابناءها ، من يستطيع ان يحييها ، وهي تنتظرنا لان نحييها ، وعلينا الا نخون ابداً وعداً قطعناه بان نمدها من حياتنا بالحياة ..

« والشهداء الذين سقطوا لن نستطيع اعادتهم ، فالموتى لا يعودون ، ولكن الموتى يخانون ، وعلينا ، ابداً ، الا نخون موتانا ..

«واهلنا المشردون لايمكن ان نعيد لهم شبابهم الذي ذهب به التشرد ، ولكن المشردين يصبحون كهولاً اذا خينت زهرات شبابهم التي ضحوا بها ، ونحن لا نستطيع ، ولن نغفر لانفسنا ، ان نخون زهرات شبابنا .

« ان الارض يمكن ان تقف عن الدوران حول الشمس ، والقمر يمكن ان يكف

عن عكس اشعتها ، لكن كفاح الشعوب لتحرير ارضها لا يمكن ان يكف ، ولا ان يتوقف ، لان توقفه خيانة له ، والشعوب لا يمكن إن تخون كفاحها » .

ولمواصلة الكفاح ينبغي ان نستعد ..

وكنا ، في ذلك اليوم الاول من تشرين ، قد استعددنا ، ولم نكن ، ونحن في الشوارع او الملاجىء ، نعرف مبلغ هذا الاستعداد .. كانت الطائرات تهدر كأنها تخترق جدار الصوت ، والمدافع تدوي ، والبلاغات تتوالى . وبعض النسوة في القبو ، يبكين .. ولم يعترض الرجال . جو الحرب لا يعتاد بالنصائح . عشه تعتده . وقد اعتدناه بسرعة . انقطعت الدموع بعد الساعات الاولى ، والاعصاب تراخت ، وفي اليوم التالي لم تبك امرأة ولا طفل ، وفي اليوم الثالث ندر من نزل الى الاقبية .. صار الناس يتفرجون على الطائرات المتساقطة من فوق الاسطحة ، ويلاحقون الطيارين في الشوارع والمزارع والحقول ..

وهبط الليل في السادس من تشرين على دمشق نصف معتمة نصف مضاءة ، غير ان دمشق ستعود لتتألق في الايام التالية ، حين نتأكد ان سماءنا محمية ، وانها ساحة موت لاتجرؤ طائرات العدو على الاقتراب منها بتلك السهولة الرعناء التي خيل اليها ، قبل تشرين ، ان باستطاعتها مواصلتها

هبط الليل والسيارات ، في الشورع ، تمر بانتظام . فرق من الفتوة توزعت في كل مكان ، والسيارة غير المطلية توقف ، يتقدم منها فتى وبيده الصباغ والفرشاة ، ثم تسير وقد استوفت تعتيمها المطلوب . . .

والافران عملت حتى الصباح ، والشارون وقفوا بالدور ، ولم يلفتهم احد اليه .. عرفوا واجبهم بانفسهم فاصطفوا ، وساعد بعضهم بعضاً ماوسعه . .

والحوانيت ، ملأى بالبضائع ظلت ، والاهالي الذين ربما ، في اليوم الأول ، أقبلوا على الشراء بأكثر مما يحتاجون ليومهم ، سرعان ماقلعوا عن ذلك . اطمأنوا الى ان المواد الغذائية متوفرة .

والحرس من الشباب توزع الاحياء المطفأة الانوار . البنادق في الأكتاف والمصابيح الكهربائية في الايدي . يسألون المارة ويستجيبون للاسئلة . يساعدون النساء والاطفال في الوصول الى بيوتهم ، وفي تأمين المواصلات لهم ، وفي طمأنة الجميع على أمنهم وراحتهم وممتلكاتهم ، ونادراً ، تلك الأيام ، ماسجل حادث . .

والرجال ، من غير المقاتلين ، التحقوا فوراً بالجيش الشعبي ، والتحق العمال ، ليلا ، بالمعامل ، وفي النهار تطوعت النسوة للعمل . . وارتفع شعار ، كل شيء للمعركة وفي خدمتها ، ووضع موضع التطبيق بفعالية رائعة .

مصارف الدم عملت بانتظام ، وكان العرض اكثر من الطلب .

ومراكز الاسعاف تقبلت طلبات التطوع من الاطباء والممرضات والقادرات على الاسهام في العمل الطبي ، وهنا ايضا ، كما في المشافي ، كان العرض اكثر من الطلب . كل شيء سار بانتظام .

وتحولت المدارس الى مراكز فتوة ، ومنها كان ينطلق الفتيان ، في دوريات الحراسة ، والعمل ، وتفريغ الشاحنات ، وتحميل المؤن والاغذية . .

وتبادل المواطنون التهاني . قبل بعضهم بعضاً ، وهتفوا من حماسة وشكر للانباء تنقلها الاذاعة . « البلاغ الاول : الرد على مصادر نيران العدو واسكاتها ، والاشتباك مع طائرات العدو. البلاغ الثاني : تحرير بعض المواقع ومنها موقع جبل الشيخ ، والقتال يدور غرب خط وقف اطلاق النار . البلاغ الثالث : نجحت قواتنا في اقتحام نقاط الدفاع المعادية والتحصينات الامامية والحواجز الهندسية للعدو واحتلت عدة مراكز محصنة من دفاعاته في هضبة الجولان المحتلة . واسقطت ثلاث طائرات معادية . البلاغ الرابع : تمكنت قواتنا بعد معارك ضارية بالدبابات ومختلف انواع الاسلحة ، تكبد العدو فيها خسائر فادحة ، من تحرير عدد من المواقع والقرى في هضبة الجولان . البلاغ الخامس : اغراق ستة زوارق بحرية . ثم تصريح لمصدر مسئول في القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة بانه لاصحة للأنباء التي تبثها مصادر العدو وتدعي ان قواتنا تقصف المدنيين ، وتأكيد الناطق بان هدف هذه الاعمال القتالية لقواتنا هو دحر قوى العدو العسكرية المعتدية وعدم التعرض للأهداف المدنية » .

وعن الجبهة المصرية اذيعت ثمانية بلاغات : بدء العدوان الاسرائيلي . قصف مواقع العدو . تنفيذ المهات بنجاح . عبور قناة السويس . رفع العلم المصري على الضفة الشرقية . اسقاط ١١ طائرة عدوة . تحرير الشاطىء الشرقي للقناة . صد هجمات العدو .

وفي هذا اليوم اعترفت المصادر الاسرائيلية : تكبدنا خسائر كبيرة على الجبهتين

المصرية والسورية . وقالت وكالات الانباء : شهدت واشنطن ونيويورك نشاطاً سياسياً محموماً ، تركز حول التنسيق الصهيوني الاميركي لدعم عدوان اسرائيل على القطرين العربيين الشقيقين ، سورية ومصر .

★ ★ ★

اليوم الثاني ٧ تشرين الاول .

خطب الرئيس حافظ الاسد : « اليوم نخوض معركة الشرف ، واذ نؤدي واجبنا في الدفاع عن ارضنا وشرف امتنا ، فاننا مستعدون لكل تضحية وتقبل كل شدة في سبيل ان ينتصر الحق ، وتنتصر المبادىء ، ويسود السلام العادل .. ان الشدائد محك لمعدن الشعوب وامتحان لاصالتها ، وكلما ازدادت الازمة شدة ، ظهر المعدن الصافي وتأكدت الاصالة الراسخة . نحن اصحاب حق واصحاب قضية عادلة . لسنا هواة قتل وتدمير وانما ندفع عن انفسنا القتل والتدمير . لسنا معتدين ، ولكننا كنا وما نزال ندفع عن انفسنا العدوان . نحن لا نريد الموت لاحد ، وانما ندفع الموت عن شعبنا .. اننا نعشق الحرية ، ونريدها لنا ولغيرنا . وندافع اليوم كي ينعم شعبنا بحريته .. نحن دعاة سلام ونعمل من اجل السلام لشعبنا ولكل شعوب العالم ، وندافع اليوم من اجل ان نعيش بسلام » .

وتابع المقاتلون العرب ، في هذا اليوم ، تحرير المواقع في الجولان وسيناء ، وأسقطت طائراتنا ووسائط دفاعاتنا الجوية ٧٣ طائرة معادية ، ٤٣ منها في الجولان و ٣٠ في سيناء ، وتم اسر عدد من ضباط العدو وجنوده وطياريه .

وفي هذا اليوم ايضاً أعلن الاشقاء العرب « وضع امكاناتهم تحت تصرف القطرين العربيين السوري والمصري » .

وأكد الاتحاد السوفياتي « مساندته بحزم للمطالب الشرعية للدول العربية بشأن تحرير كافة الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل » اما نيكسون فقد « طلب من وزير خارجيته كيسنجر دعوة مجلس الامن للانعقاد ، لاجل التوصل لحل للحرب في الشرق الاوسط » وارتفعت جوقة الاصوات في اميركا تأييداً لاسرائيل .

في المساء عرض التلفزيون العربي السوري صور بعض الطيارين الاسرى . عرض ، كذلك ، شريطاً عن تقدم قواتنا في هضبة الجولان ، وظهر في هذا الشريط حطام

الطائرات والدبابات العدوة .. كان الدخان ما يزال يتصاعد منها ، كما لا يزال ، على وجوه الاسرى ، يتبدى حطام تلك العنجهية الصهيونية التي انهارت هنا ،على أرضنا . كان الاسرى من الطيارين يبدون في حال من التعاسة ، وفي حال ، أشد ، من تمزق المعنويات ، وهم يتأملون عبر مشاهدهم المرئية ، ما حولهم بيأس وبلاهة . لقد أذهلتهم المفاجأة ، هؤلاء الذين كانوا يحسبون الغارة علينا نزهة جوية . مقاييسهم كانت حرب حزيران وما بعدها .. غارات هنا وهناك ، على أهداف مدنية أو فدائية ، طوال سنوات ، ولا عقاب .. من يعاقبهم ؟ العنجهية تضخمت . بالونية صارت ، وفي تشرين ارتطمت على صخرة المقاومة الجدية لمقاتلاتنا ووسائط دفاعنا فتناثرت رذاذاً ..ولسنا نحن ، بل الوكالات الاجنبية ، وبينها وكالات غربية ، شهدت أن الطائرات الاسرائيلية تتساقط في أجواء سورية كالفراشات .. لكن هذا ، تعبير الفراشات ، يحمل قدراً من الشاعرية . كانت تتساقط ، بعد أن تنفجر في الجو ، كتلاً من نار ومزقاً من حديد أسود .. وصار الطيارون الاسرائيليون ، في طلعاتهم فوق سورية ، يعرفون أن عودتهم مشكوك فيها . وعن أكثر من مصدر للاخبار داخل اسرائيل ، ثم على لسان بعض الاسرى ، ان الطيارين الاسرائيليين رفضوا الاقلاع ، ثم صاروا ، اذا دخلوا أجواءنا ، يلقون قنابلهم كيفما اتفق ويهربون .. كان هذا واضحاً من عجزهم عن اصابة الاهداف التي قصفوها .. لقد تأذت بعض الجسور الثانوية على طرقاتنا ، عليهم ، لا لانها أصيبت بل لان قنابل الطيران الاسرائيلي ، في غارات متعددة ، كانت تتساقط حولها ، وقليلاً ما أصابت جزءاً هامشياً من جوانبها،لان التسديد كان مختلاً ، مشلولاً بالخوف .. وكان منظراً لا ينسى في سماء دمشق ، حينما طيار عدو قذف بنفسه من طائرته قبل أن تصاب .. غادرها لمجرد شعوره انها صارت ضمن دائرة الاطلاق عليها ، وسبحت الطائرة وحدها ، وهوت فارتطمت بالارض واحترقت ، وراح الناس ، في شوارع العاصمة ، يتابعون الطيار وهو ينزل بالمظلة ، خوخة معطوبة أسقطتها هبة ريح ، ومئات الايدي ، من تحتها ، فتحت لالتقاطها والتقطتها .

وبعد الخميس ١٢ تشرين الأول ، يوم مجزرة الطيران الاسرائيلي في أجوائنا ، حيث أسقطنا ٩٣ طائرة (والأصح كما ظهر في الأيام التالية ، ١٠٧ طائرات) لم يعد العدو يجازف بتشكيلات كبيرة .وعندما ، في تلك الأيام ، اقامت واشنطن الجسر الجوي مع اسرائيل ، وأعلنت أن طائرات الفانتوم في الطريق اليها ، نشرت جريدة الأنوار اللبنانية صورة كاريكاتورية مشهورة تناقلتها الصحف العالمية . كانت الصورة من

قسمين ، يظهر في الأول نيكسون وهو يعلن ارسال طائرات الفانتوم الى اسرائيل ، ويظهر في الثاني الصاروخ سام على شكل رجل يعزف على القيتار قائلا : « أنا مشتاق وعندي لوعة ! » .

لكن العدو الصهيوني ، نتيجة لهذه الخسائر منذ اليوم الأول للقتال ، كان قد أرسل يوم الثلاثاء (٩ تشرين الأول ١٩٧٣) سرباً من طائراته لقصف دمشق ، تمكنت اثنتان منهما فقط من التسلل وقصف منطقة أبي رمانة ، الحي الآهل بالسكان ، والذي يضم ، بشكل رئيسي مباني السفارات ورجال السلك الدبلوماسي ومكاتب هيئة الأمم المتحدة ، كما يضم المراكز الثقافية والمشافي ودور المعلمين والمعلمات .

تروي صفحات محاكمة نورمبرغ ان ابن النازي الألماني فرانتس تسيريس ، مدير معتقل ماوتهاوزن ، اعترف أثناء التحقيق : « صف والدي أمامي ٤٠ معتقلاً بمناسبة عيد ميلادي ، وسلمني مسدساً رميت به أربعين معتقلاً واحداً بعد الآخر .. في محاولة لتعليمي الرماية على« الأهداف الحية » .

ان الطيارين الاسرائيليين الذين قصفوا دمشق لم يكونوا في حالة تدريب على رمي الأهداف الحية . هؤلاء النازيون الجدد كانوا مدربين قبل أن يأتوا .. جاءوا للانتقام من المدنيين لخسائرهم العسكرية . وكانت الأبنية المدنية مصطفة في أضخم شوارع العاصمة ، وفي قلبها ، تماماً ، وعلى هذه الأهداف أطلقوا صواريخهم : نقابة الأطباء ، المركز الثقافي السوفياتي الذي قتل فيه الدكتور محمد أمين ، مستشفى الشرق ، دار المعلمين والمعلمات ، بيت السيد بيتشريا خبير الأمم المتحدة ، منزل السفير الهندي ، دار السفير الباكستاني ، بيت السيد أحمد حديد خبير الأمم المتحدة ، منزل الدكتور نزار براق الذي قتل هو وزوجته الانكليزية وطفلاه ، دار أحد المراقبين الدوليين السيد فان اكان .. والقائمة طويلة ، وعدد الضحايا ، بين رجال ونساء وأطفال ، كبير جداً .

هكذا ، في تشرين ، اعاد الصهاينة سيرتهم ما قبله : جرائم ضد الأبرياء .. ثم في تشرين نفسه ، بعد ايام ، جرائم اخرى ضد ابرياء آخرين . لقد قصفوا ضواحي دمشق ، وكان الضحايا من العمال والسكان . وامسكت سورية عن المعاملة بالمثل . نحن لا نقصف المدنيين ولا نقتل السكان . والعالم ، كل العالم ، شهد ، لا على البربرية الصهيونية فقط ، بل على فضيحة الاعلام الصهيوني ، هذا الذي ، في تناقضه ، زعم ان ما قصف في دمشق كان اهدافاً عسكرية !

غير ان الاعلام الاسرائيلي ، في حرب تشرين ، تلقى فضائح متتالية . كان يجهد

لتزوير الحقائق ، واوقع ، في تصريحاته ، الصحافة العالمية في حرج . لوموند الفرنسية اعتذرت لقرائها ، ومثلها صحف اخرى ، واعلنت وكالات الانباء الا ثقة لها بمصادر الاخبار الاسرائيلية . باختصار كان هذا إعلام هزيمة في الايام الاولى للحرب ، واستمر كذلك فاخفى دون نجاح خسائره وقتلاه عن العالم ، وعن مواطنيه انفسهم ، وكل يوم يمر من الحرب ، كان الاعلام الاسرائيلي يكذب ما قاله قبله .

* * *

وتستمر الحرب . .

والحكايات ، كالاساطير ، تروى عن مآثر هذا الشعب .

في مرفأ اللاذقية ينزل الناس افواجاً للعمل . . الذين لم يرفعوا ، من الشباب ، كيساً ، يرفعون الاعمدة ، ربطات الحديد ، اكياس الاسمنت ، وصناديق البضائع .

والذين ، بحكم العمر ، لم تبق لهم دماء فائضة ، يصرون ، في مراكز نقل الدم ، على التبرع بدمائهم . فاذا ابلغوا ألا حاجة ، سجلوا اسماءهم بانتظار ان يطلبوا .

والجرحى ، في المشافي ، يستعجلون العودة الى الجبهة . يختصرون النقاهة ، وأحياناً يعصون تعليمات الأطباء ، ويتوسلون للالتحاق بوحداتهم .

والذين ، من المدنيين ، كانت الحرب شيئاً مخيفاً بالنسبة اليهم ، ما عادت كذلك . تمرسوا كالجنود ، وصار القصف والدوي مألوفين لديهم .

والنساء اللواتي افزعتهن ، في البدء ، صافرات الانذار ، افتقدنها بعد ذلك ، لا لانها لم تعد مخيفة ، بل لانها لا تنبيء عن غارات جديدة ، وعن تساقط طائرات اسرائيلية جديدة ، كن ، وكان الناس جميعاً ، على يقين من تساقطها ما ان تأتي . .

والمتطوعون للعمل في المصانع ، كانت التجربة مثيرة لهم . لقد اكتشفوا فيه مشاركة في المعركة ، والعرض هنا ايضاً ، زاد عن الطلب . كثيرون تطوعوا ولم يستدعوا ، لم يلحقهم دور .

وفي تلك الأيام ، لو باب التبرع فتح ؟ طبيب قال لي : في المستشفى الذي اعمل فيه ، كنا كل صباح نجد على الباب الرئيسي هدايا الفلاحين ، كميات من العنب ، قنطار او نصف قنطار احياناً ، ومئات من البيض ، و « دبات » الحليب ، وعشرات الصناديق من الخضار الطازجة . .

الارفع ايضاً : تبرعات نقدية وعينية ، قدمت بغير طلب ، بغير ان يذكر اصحابها اسماءهم ، وكان الكثيرون يسألون ، لمن نتقدم بالتبرع ؟ ولماذا لم يفتح الباب حتى الآن ؟

والحماسة بقعة زيت معطر . تقول « موبي ديك » افرغ زيوته في المحيط الهادىء. ولم يعد للموت رهبة . اهالي الشهداء نادراً ما سكبوا دمعاً ، فداء للوطن .. كل شيء للوطن . ان الشجاعة التي تملكت الناس ، قل استبدت بهم ولا تخش مبالغة ، ما كان مصدرها العقل بل القلب . لقد جنت قلوبهم من فرحة القتال . كنا في التاريخ الحديث، نقاتل لاول مرة ، وكانت روح التمرد الحبيسة تستيقظ وتعصف ، التمرد على ذاك الذي في حزيران وقع ، ثم على ذاك الذي قبله ، منذ النكبة تتالى ، وكل يريد ان يمحو ، في ذاته اولاً، عار ذاته اولاً ، العار الذي استشعره ، وانطوى عليه ، واكتوى بناره : عار هزائمنا السابقة . وليست قوة جيشنا وحدها التي قاتلت، ايام تشرين ، بل معها العواطف التي تختلج في صدورهم وصدورنا . لقد استولى الصهاينة ، في غدر حزيران ، على اراض عربية ، استولوا كذلك ، على جولاننا ، وكنا ما بين حزيران وتشرين ، نغذي حقدنا على اعدائنا هؤلاء ، على محتلي ارضنا ومذبحي اخواننا في فلسطين، ومشردي أهلنا من بيوتهم ، وكان حقدنا قد تنامى الى درجة نعرف معها ان نحاسبهم حتى يضطربوا كلما ذكر اسم الجولان ، ولئن لم يتم ذلك ، لاسباب فوق الارادة ، فانه سيتم بغير شك أو ينسحبوا من حيث جاءوا ، سيتم لانه مكتوب ان ما أخذ بالسيف به يسترد ، ولاننا في طلاب الحق لن نبرح مواقعنا ، ولاستنجازه ستظل ايدينا على الازندة تضرب وتضرب ، مادام الضرب اللغة الاخرى ، الاكثر جدية والاشد حسماً ، وما دام العدو الاسرائيلي ، في وقاحة تتسعر ، يرفض تنفيذ ما التزم به امام المحافل الدولية ، وهو يعد لعدوان سيفجر الموقف، وسيكون علينا أن نواجهه بكل امكاناتنا، وبدعم من أمتنا وأصدقائنا في كل مكان ، ولن يكون ذلك ، اذا ما وقع ، مفاجئاً لنا.

انها جولة جديدة ، فالمعارك جولات ، و « نحن نمد لها ونستزيدها ،ولن نكرهها او نيأس منها ، ففي تاريخنا ، لاجل فرس ، اربعين عاماً امتدت حرب داحس والغبراء والآن من أجل ارض ، لاجل وجود ، كم يظن اولئك المعتدون ستدوم حربنا ؟ عشرون ، خمس وعشرون سنة ، والحرب بيننا قائمة ؟ لم تبلغ الاربعين بعد ، وتلك لاجل فرس كانت ، اربعين عاماً دامت ، ولم يستعجلوا ، ولسنا بمستعجلين ، ان لنا نفساً كالمدار ، وصبراً كما لايوب ، وعزماً كما للمثنى بن شيبان ، اولسنا احفادهم نحن ؟ وماذا نطلب من وراء هذا النفس والصبر والعزم ؟ ارضنا ، بيوتنا ، بياراتنا ،

ملاعب اطفالنا ، ونلام ؟ لا ! لن نلام ، ولن نبالي اذا كنا ، في غلابنا لاجل حقنا ، في الملومين ، ولن تأخذنا في هذا الحق رهبة ولا رغبة، ولن ندع لعدونا راحةولاامناً، الى ان يكف عدوانه ونستعيد منه بالتحرير ما اغتصبه بالاحتلال » .

ويتبجح عدونا : المسافة قصيرة بين الجولان ودمشق ! نحن نؤكد : المسافة قصيرة أيضاً بين الجولان ، من الطرف الآخر ، وتل أبيب ! والمسافات ، في عصر الطائرات والصواريخ لا مسافات ، ثم المسافات ليست بالطول ، ففي تشرين كانت المسافة قصيرة بينهم وبين دمشق ، لكنهم ردوا عنها ، ولولا وقف اطلاق النار لكانت للهجوم المعاكس دور في ردهم اكثر ،ولكانله كلام ، ما يزال مضمراً .

ان الذين ، من قادة الاعداء ، زعموا انهم في الطريق الى دمشق لم يصلوا إبداً . والمراسلون الاجانب الذين سيقوهم الينا ليشهدوا دخولهم عاصمتنا شهدوا شيئاً واحداً : اندحارهم قرب سعسع . لقد كذبوا . كانوا في الجولان وزعموا انهم على طريق دمشق ، وظلوا اربعة أيام يرددون هذه الكذبة التي كلفتهم ، في مجال الاعلام ، ثمناً كالذي تكلفوه في مجال القتال ، ووكالات الانباء التي شايعتهم ، ورددت الاكاذيب ، اضطرت بعد أيام الى بلعها .

لذلك كتبت صحفنا ، بعنوان بسيط ، هذه الكلمات « يركزون لؤمهم على دمشق ، وكل مدننا دمشق » لكنهم لن يصلوها ابدا . وفعلا لم يصلوها ابدا . بلعوا حسرتهم وارتدوا . ارتدوا لأنه « لاالعنجهية ولا اللؤم افادا ، ولاكانا ، في مطحنة الدعاية الاسرائيلية ، سوى جعجعة تكسرت لها مسننات رحى تطحن الهواء ، وقبل مطحنةالدعاية الاسرائيلية تكسرت اسنان الالة الجويةالاسرائيلية، وآلتها البريةالمدرعة ، في سماء دمشق وعلى هضبة جولانها ، وفي كل جو وكل ارض وكل بقعة من ميادين المواجهة معنا .

« ثمة مثل يقول : من يزرع الريح يحصد العاصفة . وعدونا ، في تشرين ، لاريحاً زرع ولاعاصفة حصد ، نحن كنا الريح والعاصفة ، وبها معا ذرونا مجده العسكري، وعصفنا بقشورالخيلاء «لصقوره» التي غاب عنها ،في الانتفاخات الضفدعية لغرورها، اننا كناصيادي صقور أباً عن جد .

« ان الحق ينتج حقا لااكثر ، والرعونة ، في التسرع لاستعادة مافات ، تعطي رعونة من نوعها . وامام الوثوق ، والصلابة، والتصرف بأعصاب هادئة ، كان نزقالعدو

في زج احتياطاته المدرعة ، دونما حساب للجديد في الوضع ماديا ومعنويا من قبلنا ، مصيره الفشل . وقد فشل تماما .

« وما أرادوه من الزعم بأنهم في الطريق الى دمشق لم يعط تأثيره النفسي الذي ظنوه ، ثم انقلب التأثير عليهم ، عندما تبين ان طريقهم الى دمشق موصدة ، وان « تحطيم العظام » الذي هددوا به قد صار تحطيماً لعظامهم .

« الطريق الى دمشق ؟ كل الطرق يمكن ان توصل اليها ، ولكن ما كل من سار على طريق وصل . المعتدون ، في التاريخ ، ساروا على طرق كثيرة ، وأبداً لم يصلوا اليها . بلغوا أبوابها وارتدوا عنها . لاحقهم ابناؤها وانزلوا بهم مايستحقون من عقاب .

« ان الطريق الى دمشق تقوم على جوانبها جنات من الخضرة والزهر للسالمين ، للضيوف والزائرين ، وتقوم على جوانبها مقابر للمعتدين وللغزاة الآثمين .

« دمشق ، دمشقنا ، مضافة زوارها ، مقبرة غزاتها ، ليست هذه الرقعة المحددة من الارض ، وهذا الحيز من العمران ، انها كل مدينة في وطننا ، وكل رقعة في أرضنا ، انها دمشقات عديدة وليست دمشق واحدة .

« هم يسألون عنك يادمشق
« ومدننا تجيب : كلنا دمشق
« ونحن نجيب : كلنا فداء لدمشق وكل دمشق »

* * *

لماذا نقول هذا الآن ؟

ان الذين ، من اعدائنا ، دمشق شوكة في حلقهم ، يجدفون عليها الآن . خسئت كلماتكم ايها المجدفون . خسئت مزاعمكم وافتراءاتكم ، فشعبنا ، في برهانه للدنيا ، اثبت انه في القتال شعب ، وفي الكفاح التحرير شعب ، وفي صيانة القيم الحضارية والانسانية شعب ، وان ما كان مقلوبا في حزيران وقبله ، اعاده الى وضعه الطبيعي في تشرين وبعده ، وان الثقة التي استعادها ما كانت مضيعة بل محجوزة ، والارادة التي عليها ما كانت مفقودة بل مغلولة ، وقد احرزنا ثقتنا وحررنا ارادتنا ، واعطينا علماً للدنيا كلها ان العصر عصرنا كما هو عصر غيرنا ، واننا نعرف ، والى درجة الادهاش ،

ان نتدرب على القتال ولنتقن التدريب ، وعلى استعمال السلاح ونبرع فيه ، وعلى الافادة من التكنولوجيا ونحسن الافادة ، واننا ، بعد تشرين والجولان ، زدنا من كل ذلك اتقاناً ومهارة وافادة .

* * *

تشرين ١٩٧٤ . عام مضى على حربنا التحريرية . يمكننا الآن ان نلقي نظرة على البيدر . ان في السماء غيوماً . كان يمكن ، مع الغيوم ، ان يكون الجو افضل، الجو الذي نصنعه ، لولا هذه او تلك ، في الوطن العربي ، من الالتواءات عن سبيل الكفاح المستقيم ، ولولا هذه او تلك ، من غاشية في درجة الرؤية ، ومثلها في دقة التمييز بين عدو هو العدو ، لانه كان كذلك نظاماً ومصالح متباينة ، وبين صديق هو الصديق ، لانه كذلك نظاماً ومصالح متبادلة ، ولولا اصوات نشاز لن تبلغ ان تفسد انسجام اللحن التحرري الذي صار نشيد شعبنا .

سنخلف الغاشية وراءنا . قطرنا هو الأمل . التضامن العربي على اساس الكفاح ، والصداقات لأجله ، ثم البيدر يكون بخير، ونحن واثقون ، نحن زارعون ونعرف زرعنا، ونحن حاصدون ونعرف غلالنا ، وقد زرعنا قبل تشرين وحصدنا فيه ، وزرعنا بعده وسنحصد ، والبيدر على قدر التعب يكون ، يبقى نوع الزرع ونوع الحصاد ، ومن يشك اننا تعلمنا في تشرين الكثير من تجارب الحقل ، واننا صرنا في المميزين بين الطيب والخبيث ، واننا صرنا في الماهرين حرثاً وسقاية ، وان احداً منا لايستطيع نسيان ما جربنا وما تعلمنا .

* * *

في ٣٠ حزيران ١٩٤٢ ، كتب اهرانبورغ ، بمناسبة مرور عام على حرب بلاده السوفياتية مع المانيا الهتلرية يقول : « لقد خسرنا خلال هذا العام كثيراً : السلام والرخاء والمدن ، الا اننا ربحنا كثيراً ايضاً . ففي ضوء الحقد على الاعداء وتحت شعلة الوطنية المتقدمة استوفى كل منا نضجه . كنا قبل هذا العام شعباً وادعاً مسالماً فهاجمنا غزاة ممتهنون قدموا من بلاد ترعى فيها الدبابات مكان الخراف ، ومن قطر لا تلد نساؤه أطفالاً بل سائقي دبابات . وقد تعاقبت علينا أسابيع رهيبة استطاع فيها الالمان الفاشيست أن يتقدموا في أراضينا ، وهم يستطيعون الآن ، وبعد الآن، أن يذكروا ان

شهر حزيران ١٩٤١ كان آخر عهدهم بالسعادة ، لأن هذا الشهر لن يعود وسعادتهم لن تعود أيضاً ، وعبثاً وعد هتلر قواته أن يستعيد في الربيع مافقده في الشتاء ، لأن هذا الربيع قد ولى » .

نقول نحن أيضاً اننا نضجنا خلال عام ، مابين تشرين وتشرين ؟ هو ذاك ، وبرغم اننا لم نخسر خلال عامنا ، وأننا ربحنا ايضاً ، فان النازيين من الصهاينة الاعداء ، يستطيعون أن يذكروا الآن ، وبعد الآن ، انحزيران١٩٦٧ كان آخر عهدهم بالسعادة ، لأن هذا الشهر لن يعود وسعادتهم لن تعود ، وان الصيف الحزيراني قد جعله الخريف التشريني يولي ، وليس من قوة بقادرة على ارجاعه .

* * *

أما شهداؤنا فلهم التكرمة والخلود ، ولتذكرهم ابيات نيرودا :

« لا .. انهم ليسوا بأموات .
انهم منتصبون وسط البارود ،
منتصبون كشعلات القناديل المتوهجة
وظلالهم النقية ممزوجة بالمزاج القضي
كستارة مصفحة من هواء .
كسد هائل من لون
كالصدر نفسه ، صدر السماء الذي لا تراه الأبصار .

* * *

يا امهاتهم !
ان ابناءكم الشهداء
منتصبون في حقول القمح ،
شامخون كالظهيرة التي تبسط ظلها على المدى .
تطلعن الى قلب الفجر النبيل الذي يولد
واعلمن ان موتاكن يبسمون من ثرى الارض
وان قبضاتهم المرتفعة ترتعش فوق
الحقول والكروم .

وَقـائع من حرب تشرين

عـادل أبـوشـنب

المظلة البشرية

عندما أطلقت صفارات الانذار أصواتها المخرشة تعلن عن وقوع غارة .. كان الطيارون الأربعة العائدون لتوهم من معركة جوية يجتازون الطريق الى عنابر التجمع ، وكانوا قد تركوا طائراتهم في مهاجعها الصوانية ، تهيء بما يلزمها لاغارات

(١) هذه واقعة وليست قصة . قد تكون الاسماء والحوادث ليست الاسماء والحوادث نفسها ، لكن الجو والاطار هما اللذان حرص الكاتب على توفيرهما فيها .

جديدة على خطوط العدو وتحصيناته في الهضبة المحتلة . وما إن فرغت الصفارات من عويلها حتى أزت طائرة فانتوم فوق المطار ، متسللة من بين شعاب الجبل القريب .

ووجد الطيارون الأربعة أنفسهم في وضع حرج ، فــلا هم بقادرين على النكوص على أعقابهم والعودة الى مهاجع الطائرات الامنية ، ولا هم كانوا بقادرين على الركض عبر الطريق للوصول الى الملجأ المعد في المطار لايواء طالبي النجاة ، ممن يعملون في المطار .

وهتف ممدوح برفاقه الأربعة :

ـ انبطحوا أرضاً .

وانبطح الجميع على أرض المدرج . وكانوا ، بثيابهم الداكنة اللون ، مثل شجيرات قليلة ثابتة في قلب صحراء وملية بباب .

وقال سمير :

ـ عملوها فينا ونحن على الأرض .

فضحك ممدوح وقال :

ـ العين بالعين . سنعملها فيهم وهم على الأرض . انتظر قليلاً .

كان في رأس كل منهم ، خلال هذه الثواني القليلة المثيرة ، فكرة واحدة ثابتة ثبات فكرة دوران الأرض : ان الطائرات الاسرائيلية لاتكتفي بالقاء قنابلها على المنشآت العسكرية والمدنية معاً ، وانما تحاول أن تحصد جموع الناس المتجمهرين ، والمكشوفين ، بمفاجأتهم باغارات شاقولية تسلط فيها نيران رشاشاتها عليهم . تلك الفكرة .. كانت مزروعة في رؤوس الطيارين السوريين الأربعة الذين عادوا لتوهم من معركة أسقطوا فيها طائرة فانتوم ، وحطموا تحصينات العدو

وآلياته المتمركزة على قمة تل أبي الندى ،قرب القنيطرة المحتلة . وقدتكون الغارة هذه اللحظة رداً على اغاراتهم وملاحقة لهم ، هم بالذات .

كانت سماء المطار مرتعاً لأربع طائرات اسرائيلية ، اثنتان منها من نوع « ميراج » ، واثنتان أخريان من نوع « فانتوم » ، وكانت وسائط الدفاع الجوي تحاول أن تتصدى لها .

وقال سعيد :

ـ نعم . إن دفاعنا الجوي يشاغل الطائرات المغيرة .

ورد ممدوح :

ـ ليس لدينا وقت للوصول الى الملجأ ..

وقال سعيد :

ـ أعتقد أن الميراج متجهة الينا .

كانت الطائرة الاسرائيلية قد انقضت على البقعة التي انبطح فيها الطيارون الأربعة ، وعلى الرغم من تصدي المقاومات الأرضية لها ، فإنها لم تصب ، وانما أفرغت مافي بطن رشاشها على المدرج ، فزرعته بطلقات جاءت بمحاذاة سعيد المنبطح . وعرف الطيارون الأربعة انهم هدف هذه الغارة ، وأن عليهم التصرف قبل ان تتمكن احدى الطائرات منهم ، لكنهم لم يتمكنوا من القيام .

ومن بعيد بدت طائرة ميراج أخرى تحاول ان تنقض على الطيارين الأربعة ، وفي لحظات قليلة .. ذهل هؤلاء عندما رأوا إلى أجساد بشرية وهي تتكدس فوقهم ، بكثافة ، حتى تحجب الرؤية عنهم ، واصبحوا في منأى عن ان تطالهم طلقات الرشاش العدو ..

وأصيبت طائرة الميراج إصابة مباشرة ، فلوت الطائرات الثلاث اعناقها

ولاذت بالفرار ، ورفع الطيارون الأربعة رؤوسهم ، فرأوا الى طبقات من اللحم البشري الطازج الحار ، وهي تنهض عنهم .

وضحكوا .. كما لم يضحكوا من قبل . وقال ممدوح لواحد من الرجال الذين وقفوا على أرض المدرج ينفضون الغبار عن ثيابهم .

ـ لماذا فعلتم مافعلتم ؟

وقال الرجل :

ـ أنتم اثمن منا . لنصب نحن . ماذا يهم ؟ الهام أن تبقوا انتم أحياء حتى تغيروا عليهم ، وتغيروا ، وتغيروا .

وأدرك سعيد المذهول ماذا جرى .. متأخراً ، فقد هرع ، اثناء انقضاض الطائرة عليهم ، نفر من رجال المطار وفنييه ، وتكوموا بأجسادهم فوق أجسادهم .. يحمونهم من زخم الرصاص المقذوف بغزارة . لقد كانوا مظلة بشرية .. رائعة .

من قصص الحرب

صلاح دهني

المغامر للموت

هذه القصة واقعية ، حدثت فعلاً خلال حرب تشرين . وقد وضع الكاتب التوشية ونسج الجو ، أما الحدث ـ النواة ذاته فمطابق لما وقع فعلاً خلال تلك الأيام العصيبة والمجيدة .

* * *

تريد أن تعرف ما هي أغرب حادثة جرت معي في الحرب ؟ أنا ليس لدي مانع ، سأذكرهـا لك . أرجو فقط ألا يكون لديك أنت ما يمنع من تقبّلها . فبطل الحادثة لست أنا ، وليس أياً من رفاقي . بطلها كلب . نعم يا أخ، كلب . من جانبه هو على الأقل لن أجد أي اعتراض . لذلك فسأرويها لك .

ولك يا أخ ، ملء الحرية في أن ترويها عن لساني . أذكر انني قلت بأن البطولات ليست وقفاً على بني آدم ، وأن الكلاب أحياناً في البطولة والاخلاص مثل بني آدم على الأقل . وأنا أتحمل مسؤولية كلامي . اسمي بصريح العبارة الجندي يوسف حامد ، خضت حرب تشرين وحرب الجولان من البداية للنهاية . نعم ، هذه أقولها ، لكنني لن أذكر الى أية فرقة والى أي لواء انتسب . تعرف أنت هنا ندخل مجال الاسرار العسكرية ، وعند هذا الحد تقف جرأتي .

القصة اننا كنا نصمد في جملة زملائنا الصامدين في منطقة تل الحارة . هل تذكره ؟ فخلال الحرب أتت البلاغات العسكرية على ذكره مرات عديدة ، ووجه إليه العدو ضغطاً شديداً ، لكن عناصرنا ظلت صامدة هناك لا تلين لها قناة ولا تتراجع .

وكنوع من الازعاج المستمر عمد الاسرائيليون الى قصف المنطقة قصفاً متقطعاً شبه روتيني من قبيل التعجيز والارهاب تمهيداً لهجوم كبير مقبل .

وذات مرة فاجأنا القصف ونحن خمسة أنفار عند إبط مرتفع . كانت المدفعية الثقيلة قد بدأت تلقي حممها بنحو كثيف ، تبادر الينا معه ان الهجوم المتوقع لم يعد بعيد الوقوع .

أشار أحد زملائنا الى مغارة غير بعيدة، فتوجهنا اليها ركضاً علّنا نحتمي فيها من القصف . وقد بدا لنا كما لو ان الاسرائيليين الاشرار كشفونا وأنهم يوجهون الينا حممهم باعتبارنا عناصر من مركز أمامي متقدم . ماذا أقول لك يا أخ ؟ كانت قنابل الهاون تتساقط من حولنا بكثافة فتحفر الأرض هنا وهناك، ويتطاير التراب فيلطم وجوهنا ويعمينا ويدخل خياشيمنا وأفواهنا فنحس طعمه على ألسنتنا ولا نجد الوقت لنبصقه . كنا نركض ونتحايل على القصف ، فنتوجه

يميناً ويساراً . نركض بكل ما فينا من عزم وقوة ، لكننا لا نتقدم إلا لماماً ، كمن يركض في حلم أو بالاحرى في كابوس . قل اننا أخيراً بلغنا المغارة ، دار الامان الموعودة .

ولكن من قال لك اننا دخلناها ؟

نظرنا فإذا بباب المغارة كلب ، مالك علي يمين ، قد الجحش . هششنا عليه بأسلحتنا كعصي ، فلم يتحرك ، صحنا به ، فبادلنا نباحاً بصياح .. حلوة هذه ، وفي ظرف خطير كالذي نحن فيه ، وصوت القنابل يدوي في آذاننا ، والطلقات تتساقط من حولنا .. رميناه بالحجارة ، فلم يتحرك ، بل زاد من نباحه ، وجعل يئن انيناً موجعاً كلما أصيب .

طار صوابنا ، والله . أهذا وقته ؟

لم يكن لدينا الوقت لنفكر فيما يجعله يتشبث بالباب فلا يغادره ، لم يتبادر الى أذهاننا إلا ان يكون الخوف هو الذي يلجمه . وأقول الحقيقة ، انني اخذتني به رأفة شديدة ، وأنا أراه يتوجع تحت ضربات حجارتنا ، ومع ذلك يصمد في مكانه ، لايغادره ولا يدعنا ندخل .

بدأنا نفقد أعصابنا . كان يجب عمل شيء ، لكن ماهو هذا الشيء ؟ هيأ أحد عناصرنا رشيشه للاطلاق ووجهه للكلب . فما رأيتني إلا وأنا ألقي بنفسي عليه قبل ان يطلق النار وأزيح السبطانة جانباً .

صاح بي بغير وعي :

– مالك ؟ جننت ؟

– لاتقتله ..

– أنتظر اذن حتى أقتل أنا وتُقتلون ..

واقترب مني أكثر وبحلق في وجهي وصاح كالمجنون :

- البشر يموتون يابوسف ، البشر .. وانت تدافع عن كلب ؟

فلم أرد ، وظللت على تصميمي .

فجأة جاءت قذيفة في رأس مدخل المغارة ، فهدمته واخترقته الى الداخل في دوي عظيم .. وعوى الكلب بتفجع وألم كما لم يعو من قبل ، وانطلق من موضعه فتحصن داخل حفرة عظيمة خلفتها قنبلة لتوها . كان علينا نحن أيضاً ان نحتمي من القصف الكثيف ، في أول حفرة قريبة . ورأينا أنفسنا نلحق بالكلب ونتكدس معه في حفرة القنبلة .

صدقني يا أخ ، في هذه المرة لم يتحرك الكلب ، ولم يعو ، ولم يقاوم وجودنا الى جانبه . كان رفيقنا في لحظة الشدة ، يحتاج مثلنا الى حرارة الحياة بحسها معنا ، يقبع متجلداً كما نقبع سواء بسواء ويتحمل مثلما نتحمل ، وقد أخذنا العجب فقط كيف ساقه إحساسه لأن يلتجيء الى حفرة ، كما لو أنه ينفذ تعليمات اصولية لم نتعلمها نحن إلا في مدرسة الجندية ، إذ لايتوقع قط ان تسقط قنبلتان في موضع محدد واحد .

في تلك اللحظة فحسب ، وفيما كنا نعاني من القصف اكتشفت ان الكلب كان أنثى . ولتوي مثل في ذهني تصور اعتصر له قلبي .

نسيت ما أنا فيه ، وما حولي ومن حولي ، ورفعت رأسي في اتجاه المغارة ولم أدر إلا وأنا أقفز من موضعي وأركض نحو المغارة تحت القصف المستمر ، تلاحقني صيحات رفاقي .

وقبل ان أبلغ المدخل ، وجدت ان الكلبة سبقتني اليه . وفي هذه المرة لم تعترضني ، بل تمهلت كمن يتهيّب الدخول ، ثم مضت داخلة وهي تحرك ذنبها بعصبية .

تبعتها ، واكتشفت صدق ماتوقعت تماماً . كانت هناك عدة جثث صغيرة لجراء سوداء وبيضاء ، حديثة الولادة ، لكنها سمينة ومعجعجة . كانت الجراء ملتمة بعضها على بعض ، قتلتها ضربة واحدة من آثار القذيفة التي دخلت المغارة ، وبعضها لم تكن به أية اصابة ومات حتماً من ضغط الانفجار .

وقفت أنا جانباً ، ملتصقاً بجدار المغارة محزوناً مكلوماً أرى الى الكلبة تقلب جراءها الميتة واحداً واحداً ، فلا تجد في أي منها أثراً لحياة ، فتلف في المغارة ثم تعود فتقلبها وتشمها بغير أمل ... مجزرة حقيقية وجماعية ارتفعت في نظري في تلك اللحظة وتلك الظروف الى مستوى المأساة الانسانية .

ثم ان الكلبة خلّفت المكان وسارت تعدو خارجة من المغارة . لحقتُ بها . كانت بي رغبة شديدة في ان أتبناها أنا وزملائي ، فنؤيها ونطعمها من طعامنا ونسقيها من شرابنا بدل حياة التشرد والضياع ، وقد ألحت عليّ فكرة كانت تشد على حلقي في تلك الساعة : ان الكلبة دافعت عنا حين منعتنا من دخول المغارة ، وأننا لولاها لبتنا ، انا ورفاقي الاربعة ، خبراً في برقية عسكرية ، او سطراً في سجل .

لكن الكلبة كانت قد ابتعدت تحت القصف الذي لم ينقطع ، وظلت تركض في الفلاة تحت انظاري الى ان غيّبتها الابعاد ، وكأنما لم يعد يعنيها ان تتحصن وان تدفع عن نفسها اذى الغيظ البشري المجنون ، وتود لو تبتعد في اسرع وقت ، والى غير رجعة ، عن الموضع الذي شهد مجزرة أبنائها .

عدت الى الرفاق . ألقيت بنفسي معهم في الحفرة . كانوا كلهم هناك مجتمعين ، متلهفين لعودتي سالماً . لم يكن الرمي المستمر والعنيف قد بلغ غايته ، فلم يفت في عضد أي منهم . لا خوف ولا ذعر ، بل صمود ومجرد ترقب حذر .

وبعد حين ، عندما كاشفتهم بأمر الكآبة ، احسوا تجاهها بمثل ما احسست من اسى ، فقد زادت الحادثة من حقدهم على العدو الذي كان يستهدفنا نحن كما زادت من حقدي .

ووجد احدنا الطريقة اخيراً لكي يخرجنا من لحظة الغم التي ركبتنا . قال فجأة :

ـ أتدرون ما الذي يجب ان تتضمنه برقية آمر الزمرة التي قصفتنا الى رؤسائه ؟ يجب ان تقول : « قصفنا مواقع كتيبة معادية وقضينا على اربعة كلاب فقط !! »

وبارادة منا او بغير إرادة ، وجدنا انفسنا نبتسم ونحن في طريقنا الى رفاقنا والى آلياتنا التي كنا قد احسنا تمويهها .

كتفاك أهرام

إلى القنيطرة

شعر الدكتور: أحمد سليمان الأحمد

- ١ -

جرحٌ في لحم الكلمات اسمكِ ،
زهرٌ في بستان رمادٍ ..
ماغادرتكِ ،
ذكراك ارتفعت بجناحيْ عصفورِ النارِ
تحوّمُ فوق مقابرنا ..
العصفور ضريحٌ يتجول في مملكة الموتِ ..
الأجراسُ تدقّ ،

العالَمُ منطفيءٌ ..
يخطىً واسعةٍ شمسُ المستقبل تجتازالغيمَ ،
الغيمُ يحاصرُها ..
تمتد ذراع البرق، تلوّحُ ..
أصبحتُ شبحي ،
ما عدتُ أنا ..
الشمس ، الموت ،رَمادُ العطرِ ،
أبو حيانٍ يحرقُ ما خطت يمناه ؛
الحزنُ أمام البوابة يحذو هامتَه
يدخل تحت القبةِ ؛
ما عادت شمسُك بهديةً
أصبح هذا الظل يغطي خارطةً
كانت بالامس نهار كرٍ ياحبي ؛
رسمَ الظلُّ على خدك وشماً
فتذكرتُ طلولاً كانت منزلَ « خولةَ » .
يا « طرَفَ » ..
الخوفُ الليليُّ بلا استئذان يدخلُ ؛
قلبٌ أجوفُ لا يملاه الا الحبُّ ،
الحقدُ ،
الثأرُ ،
ثلاث لولاهُن ..
وكان النسيانُ مياهاً سوداءَ ،
دماءً سوداءَ ،
فما وردَ الركبُ ..
وظللنا في الصحراء وروداً

ذابلةٌ من غير ندىً ،
والريحُ تمرُّ زوابعَ رمل وصدىً ؛
أعرفُها .. هذي الريحَ
كأغنيةٍ في ليل الموتِ
تُردّدُها نائحةٌ أغرقُ في أدمُعِها ،
تتلوّى سنبلةٌ في حقل الذكرى ..
جدرانُ الفولاذِ الى نافذتي تزحفُ ..
أين الصاعقة الموعودةُ يا سُحُبَ الثأرِ ..
متى أقرأُ — قبل الطوفان —
رسالاتِ الامطارِ !!

— ٢ —

مارستْ الكلماتُ الخصبُ مع الريحِ ،
مع البرقِ ،
وطافتْ — كالدمِ — في أوردةِ الأشعارِ
اليابسةِ ..
الصخرةُ قلبٌ ينبضُ ،
والظلماتُ ورودٌ سوداءُ تتفتّحنَ ..

— ٣ —

على الجدرانِ تصالب ظِلُّ الموتِ ؛
منازلُ أحبابي مُقفرةٌ
غابتْ عنها حتى الأطيافُ ،
تبدّدَ لونُ العطرِ ؛

زُجاجٌ فولاذيٌ مِنهُ أطلّ على
لنهرٍ يتعرّج في وادي الأمسِ
فمَنْ لي أن أتعرّى من ذاتي ،
ان اعبدَ هذي الجدرانَ الشفافةَ
مثلَ شعاعٍ ،
ان اتدوّرَ بدْراً
في مرآةِ سمائِكَ .. يا نهر الانهارْ !

– ٤ –

هبط الوادي نهرُ الحُزْن ،
دموعي رفدَتهُ ؛
لن أهجرَ هذا الكوكبَ ..
إني احملُ – ملءَ لهاتي – ابداً
عطشي ،
أغنيتي ،
جرحي المفتوحَ فما يحتجُ ..
أنا شيدُكُمْ : منْ يوقظُ في شفقيٌّ البَسمةَ ؛
تلك عصافيرُ زُجاج تتحطمُ
وهي تحطُ على أغصانِ الليلِ ..
وفي بابي أصواتٌ تخلع معطفَها المطريٌ
وتدخلُ – كالقمرِ الأعجف –
كالوردة عاريةً من ورقِ العطرِ ؛
سماءٌ منذرةٌ بالعاصفةِ المحرقةِ ،
الأنجمُ تبكي ،
طِفلٌ يبكي كي يتحوّلَ نجماً ..

نبكي الأحبابَ ، الغيّابَ ،
الجرحُ قديمٌ يا أشواكَ الغابةِ ،
كنّا نقطن هذا الليلَ بلا أقمارٍ
أو أجنحةٍ ،
فارغةٌ أعيُنُنا ؛
لم نركض فوق بساط الفجر
ولم يحملنا عصفورُ النارْ

- ٥ -

عوجوا على الطّلَلِ - الانسانِ ، نسألُهُ
هلْ ما يزالُ هُنا ، من أمسه ، أثَرُ

•

مدينتي ليس فيها مَنْ أطوّقُهُ
بعد الغياب .. وما في الحيِّ منتظِرُ

•

ألنّهرُ ماتَ .. وهذا النّرْوُ محترقٌ
فكيف بعدهما يحلو لنا السّمَرُ

•

باللهِ يا قَمَرُ !

•

وكيف بالطللِ - الانسانِ ، نبعثُهُ
مِن بَيْنِ أنقاضِ عَصْرٍ .. وَهْوَ يُحتَضَرُ

•

رأيتُ كيف ، على كِتِفَيّ قَنْطَرَةٍ ،
تموتُ ، صامدةً للعاصِفِ ، الشّجَرُ

•

كأنّ كِتفَيكِ أهرامٌ .. وقَنطرةٌ
ألعابرونَ عليها : الثأرُ والظّفَرُ

•

وهذه الذِكَرُ !

•

ألفَجرُ رَفَّ على أهدابِ حالمةٍ
كما الصدى هبط الوادي .. كما المطَرُ

•

هبَّتْ أغاريدُ عصفورٍ على فَنَنٍ
تلوَّنُ الوَرَقَ الذاوي ، وتبتكِرُ

•

أمضَتْ اليها دموعٌ راح يَنْثُرُها
حُلمٌ كما عبَّ من أنغامه الوَتَرُ

•

كالطيب ينتشِرُ

•

يا موقِظَ الطَلَلِ العافي ، تُسائِلُهُ
كيف الطريقُ الى الاحباب تُختَصَرُ

•

من أيِّ قافلةٍ الاحلام قد عبَرَتْ
وفي مَدى أيِّ أفقٍ غابَتِ الصُوَرُ

•

لَعَلَّ حُبًّا الى دنياه يحمِلُنا
والشوقُ ، ملء عيونِ الفجر ، مُنبهِرَ

•

وينتهي السَفَرُ !

- ٦ -

وقفوا يبكون مِنْ عَهْدِ امرىء القَيْسِ
على مُلْكٍ مُضاعٍ ،
حشدوا الاطلالَ في أشعارهم
فَهْيَ مقابِرْ

•

مَسْرَحُ الأشباح ،
ما الآرامُ في القاعِ ،
وما الجِنُّ على دَرْبِ مُسافِرِ !

•

الأمس المولودُ في آهاتهم شبّ . .
ولكنْ لم يُهاجِرْ

•

جُثَثٌ طافيةٌ
يقذفها التيّارُ في أوزانِ شاعِرْ

•

ياشراعي .
أيّها الصمتُ المُخامرْ

•

وقفوا يبكونَ ،
والأطلالُ ، في عينيي ، منَائِرْ

- ٧ -

أسمعُ ياقنيطره

•

صدى اللهيب في
الخرائط المبعثره

•

ألمسُ لِنبضَ الحُلم في
جبهتِكِ المُعفّره

•

ومشهداً معجزةً . .
قيامةَ العنقاءِ
مِنْ جُثّتها المحروقةِ
المُدمّرة

•

وعودةً للرايةِ المغدورةِ
المنكسره

•

تخفقُ في الكتيبةِ المُظفّره

•

بدرُ بنُ عمّارٍ على البُحَيْرة
المنتظره

•

والمتنبي يُشعِلُ « اللاميّةَ »
المنوّره !

•

ياأرضُ ،
هذا حبُّنا لايعرف النِّسيانَ ،
هذي ، في المدى ، جراحهُ
المعطّره

•

وهذه رياحهُ الخُضْرُ
على نوافذي مُزدهره

•

تمزّقُ الضبابَ يا
مدينتي المحرّره

•

ينهضُ في ساحاتِك
الجنديُّ
مثلَ الشجره !

٢٤ - ٧ - ٧٤

عندما يصلّي الفارس لسيفه

شعر: خالد محيي الدين البرادعي

– ١ –

– لأنكَ أخرجتَني
من رمادِ العصورِ الى مَسْقَطِ الضوْءِ ،
عَبْرَ دروبِ القَوافِلْ
وغَسَّلْتَني باخضرارٍ يُسَمَّى : غَدَاً
أوْ يُسَمَّى البعاثَ المُناضِلْ
لأنك حَوَّلتَ حزْنِي حُلْماً جَميلا

وأجلُ منهُ ، حُلولي بحزنِ القبائِلْ
لأنك أوقفتَ زحفَ الرّمالِ إلى الحدقاتِ
وأوقفتَ زحفَ المحيطات نحوَ السواحِلْ
لأنَّ حضوركَ . .
يحمي المواليدَ من بطشةِ الغولِ
يحمي من المحلِ وجهَ السنابِلْ
لأنكَ ..
أصلّي بحضرةِ هذا القبرِ لديكْ
واقرأُ « ياسينَ » و « الفتحَ » بينَ يديكْ
فأبصرُ قافلةَ العصرِ في صفحتيكْ
وأحلمُ أنّي
ما كنتُ يوماً غريباً
ولا كنتُ يوماً عليلا
ولا شمسُنا تتشكّى رحيلَ الجداولْ
فدعني أميلُ عليكَ قليلا
ودعني . . أرتّلُ آياتِ عشقي ،
على شفتيكَ طويلا

– ٢ –

– لأنكَ تبتعُ خابيةَ النفطِ في ليلةِ السارقينَ
فتكشفَ عريَ اللصوصِ ،
وتفضحَ سِرَّ المصلّينَ زورا
لأنكَ انقذتَ كل العصافيرِ
من شَركِ الصائدِ التتريّ الحديثْ

تَعَشَّقْتُ أنْ أرْتَمي في يَدَيْكَ قَتيلا

-٣-

– لأنكَ زَحزَحتَني
عن مَدارِ السُّقوطِ قَليلا
وجاذبتَني
نَحْوَ بُرْجِ الحُضورِ قليلا
وعلَّمتني
كيف يَمْشي السلامُ وراءَكَ طيفًا
ويَخْضَرُّ تحتَ شَبابِكَ كالعُشْبِ صَيْفًا
حَلَلْتُ بقامتِكَ السُّنْدُسِيَّه
– أسيرٌ لَدَيْهِ الحُسامُ ؟
– أسيرٌ لدى السَّيْفِ هذا المُقاتِلُ ؟
وغابَ السؤالانِ عند الوِصالِ
دَمُ الوَصْلِ يَسقي ظِماءَ اليَمامِ
وَيُثْري الفُصولا
لأنكَ يا سَيْفُ
أعْشَقُ هذا الحُلولا

– ٤ –

– أصَلّي لكَ الآنَ ..
أقرأ آياتِ أهلِ الهَوى في جُفونِكْ
أحَلِّقُ بالألَقِ المُتَجَدِّدِ في طَلَّتِكْ
وأمْحو غِشاوةَ عَيْنَيَّ في بَهْجَتِكْ
لأرْجِعَ مِنْ سَكَراتِ اغْتِرابي
وَتَسْقُطُ

– آخِذَةً بالسُّقوطِ –
قُشوري
نِفاياتُ ذاكِرَتي
ثَمَراتُ استِلابي
ومن قبل طَلْعَتِك المَوْسِمِيَّةِ
كانَتْ هُمُومي تَشيخُ
وَحُزْنِيَ يَنْعَسُ
وَالحُلْمُ الحُلْوُ يَغفو على شُرْفَةِ العَصْرِ
لَوْلاكَ .. لَوْلاكَ ..
كنتُ أعاني الذُّبولا
وكنتُ وحيداً بِمَنْفايَ
أمتصُّ ذاتي ذُهولا
وكنتُ رويداً .. رويداً أغيبُ استِقراراً
وَأذْوي أفولا .

- ٥ -

– لانّكِ تَستطيعُ تَمزيقَ وَجْهِ الخَريطَةْ
وغَسْلَ تضاريسِها الخُضْرِ بالأرْجُوانْ
لانّكَ أوْقَدْتَ مِصباحَ جِسْرِ المَحَبَّةْ
ما بَيْنَ دَجْلَةَ والاطلَسِيْ
وَلَمْلَمْتَ أشتاتَ شَمْلِ الاحِبَّةْ
وَراءَ عُصور اغتراب
أُصَلّيْ لِوَجْهِكْ
لانَّكَ مِثْلُ السَّلامِ . .
دَقيقٌ رَهيفْ

وَمِثْلُ النَّبِيِّ

نَقِيٌّ عَفِيفٌ

أُصَلِّي لِوَجْهِكَ

— ٦ —

– بِأَيِّ الأَسَامِي أُنَادِيكَ يَا مُنْشِدُونَ

وعندَ حُضُورِكَ تَذْوِي الصِّفَاتُ

وَتَصْغُرُ قَامَةُ كُلِّ بَيَانٍ

أَحَقًّا ؟ تُسَمَّى : المُهَنَّدَ ،

وَالعَضْبَ ،

وَالمَشْرَفِيَّ ؟

قَلِيلٌ عَلَيْكَ افْتِتَانُ الشَّبَابِ

وَأَنْتَ الَّذِي شِئْتَ عُشَّاقَكَ الأَوَّلِينَ

إِلَى صَحْوَةِ الأُنْسِ بَعْدَ أُفُولِ البَدَاوَةِ ،

عِنْدَ سُفُوحِ الحَيَاةْ

★ ★ ★

أَنَا ؟

مُنْذُ فَكَّ حُضُورُكَ عُجْمَةَ نُطْقِي

عَرَفْتُ لِمَاذَا أُحِبُّ النَّبِيَّ عِنَاقَكَ

قَبْلَ .. وَبَعْدَ .. الصَّلَاةْ

فَشَقَّقْتَ مَلَامِحَ عِشْقِي

وَضَاءَتْ مَسَالِكُ عُمْقِي

وَصِرْتُ أَنَا أَنْتَ ، أَنْتَ أَنَا

فِي الشَّهَادَةِ وَالعُرْسِ وَالمِهْرَجَانِ

-٧-

– تَجيءُ بأزْياءِ كُلّ العُصورْ

لتَهيبا

وَوَمْضاً

وَزَحفاً

وَقَصْفا

تَبارَكَ أيُّ إزارٍ تَميسُ بِهِ

يا أرَقّ الحِسانْ

تَبارَكَ إسمُكَ كَيفَ أتَيْتْ

وقُدّسَ وَهجُكَ كَيفَ حَلَلْتْ

فأنتَ الّذي يُشرِقُ الشِّعْرُ في شَفَتَيْكَ

وَيولَدُ – كالطِّفلِ – بَيْنَ يدَيْكَ الزَّمانْ

-٨-

– يَقولونَ : لِلحُبّ وَقتٌ

وَلِلحُزْنِ وَقتٌ

يَقولونَ : كُلُّ اشْتِهاءٍ لَهُ مَوْسِمٌ

بَيْدَ أنّكَ حُلْوٌ

بكلّ الفُصولِ

وَكُلّ المَواسِمْ.

فارس تشرين

لوحة للفنان : نصير اسماعيل[1] دراسة تحليلية بقلم : طارق الشريف

ان مرور عام كامل على حرب تشرين التحريرية ، وانقضاء فترة زمنية على أحداثها ، وظهور نتائجها على العرب والعالم ، سوف يدفع الكثيرين الى محاولة تحليل ما قدمته هذه الحرب من كل الجوانب ، للوصول الى تقويم علمي لما انجزته على كل الأصعدة ، ولهذا نرى أنفسنا اليوم نعيش مرحلة تجاوزت معايشة الحرب الى مرحلة تحليل النتائج ، وتوضيح ما قدمته هذه الحرب في هذه المرحلة .

وهذا التحليل له اهمية كبيرة بالنسبة للاقتصاديين والسياسيين والعسكريين، لأنهم

(١) اللوحة بمقياس ٢،٥ × ٢٠٥ متر

يدرسون ما تم كي يتصوروا استراتيجية جديدة ، يمكن أن تكون استراتيجية ما بعد الحرب ، ولكن الواضح أن ما تم في حرب تشرين التحريرية قد نقل العرب من مرحلة لاخرى ، وقد وضع العرب في ظروف جديدة تتجاوز كل ما كان قبلها .

لكن نظرة (الفنان) الى الحرب ونتائجها تختلف كلياً عن نظرة الآخرين . وتعبيره عن هذه الحرب يختلف تبعاً لذلك ، لأن رؤية الفنان رؤية شخصية لا يمكن أن تقارن بالحسابات الدقيقة التي يقوم بها الاقتصاديون أو العسكريون أو السياسيون . ان الفنان يقدم لنا فكرة معينة استأثرت باهتمامه ، أو نتيجة معينة اعتبرها هي الأساس ، وبنى تعبيره عليها ، وهو يلجأ الى العناصر التشكيلية من لون وخط لينفذ فكرته وما استخلصه ، وبالتالي يبدو الفنان أكثر اعتماداً على حدسه وحسه الشخصي في استنباط النتائج وفي صياغتها في لغته التشكيلية التي لاتنقل الفكرة مباشرة بحيث تكون مقروءة من قبل كل انسان ، بل يرسمها عن طريق اختيار الأشكال ورموز وصيغ تعبيرية ، ولهذا فالفنان يتبع حدسه الشخصي في التعبير عن الفكرة ، مثلما يتبعه في استنباط النتائج والتأثير على بعضها .

لوحة ... فارس تشرين :

ولهذا فنحن حين ندرس لوحة « فارس تشرين » للفنان « نعيم اسماعيل » سوف نحاول أن نبرز الفكرة الاساسية التي عالجها الفنان ، والنتيجة التي قدمها لنا ، واعتبرها أم ما قدمته هـذه الحرب التحريرية للعرب ، ولن نستطيع ذلك على شكل سليم مالم ندرس كيف عالج موضوعه ، وما هي الحلول التشكيلية التي لجأ إليها ، والرموز والصيغ التشكيلية التي استعان بها ، ليعبر عما يريد ، وماذا تعني هذه الصيغ والرموز الفنية ، أي لنوضح ما غمض منها كي نخرج بالنتيجة .

ويجب ان نؤكد هنا على أن (نعيم) حين قـدم لنا (فارس تشرين) في لوحة لم يقصد أن يقدم لنا كل نتائجها ، بل قدم لنا أم هذه النتائج ، وما اعتبره أكثر اهمية من كل النتائج ، وهو لا يقدم هذه النتائج مباشرة لأنه يستعين بالرموز العديدة التي اختارها واستعان بها كي يسبك لوحته .

ولكن ماذا تحتوي هذه اللوحة ؟!

لقد صور لنا الفنان (نعيم اسماعيل) في لوحته فارساً عربياً يمتطي جواداً ،

والجواد يتحرك مع حركة (الفارس) ومن حركة الفارس والجواد نحس بأن هناك انتقالاً من عالم لآخر .

فهو يريد أن يقول بأن حركة هذا (الفارس) قد نقلت العرب من مرحلة لاخرى ، وبالتالي إذا قلنا بأن (الفارس) في حركته قد صنع الحرب ، فهذا يعني أن حرب تشرين قد نقلت العرب من وضع لآخر ووضعتهم في ظروف جديدة تختلف جذرياً عن الظروف التي كانوا يعيشونها قبل الحرب ؟ !

وهكذا نكتشف الشيء الاساسي الذي سعى (نعيم) لتحقيقه في لوحته .

لقد نقلت حرب تشرين العرب من وضع إلى وضع آخر ، وجددت حياتهم ، فهي وسيلة لبعث الحياة فيهم وتجاوز اوضاع راكدة سابقة للحرب .

قسمان أساسيان للوحة :

إن (الفارس العربي) الذي انطلق ليبدد السواد ، وليعطي الامل وراءه . هذا الفارس قد تغلب على قوى الشر بوثبة من حصانه ، وبالنار التي تحولت بده اليها ،وهكذا انقسمت اللوحة الى قسمين أحدهما القسم الذي يبدو أمام الفارس ، وهي منطقة تمثل الحرب ، والقسم الثاني خلف الفارس وهو عالم ما بعد الحرب ، وان حركة الفارس هي (حرب تشرين التحريرية) .

واذا نظرنا الى هذا (الفارس) الذي رمز بحركته الى الحرب نستطيع أن نحلل رموزه ونوضح ما غمض .

إرادة العرب الذاتية :

إن (نعيم) يلجأ إلى (الفارس العربي) الذي يمتطي جواداً عربياً ، وقد اختار (الفرس) ليوضح لنا أن الحركة التي يقوم بها (العربي - الفارس) عربية خالصة ، وإن الرمز فيها قد ساعد على التأكيد على ارتباط الحرب بارادة العرب الذاتية وتصميمهم على الحرب ، وعملهم على الاعداد لها ، وهو قد لجأ إلى رمز من أهم الرموز التي لجأ اليها الفنانون العرب ليعكسوا إرادة العرب ورغبتهم في التحرير والانطلاق .

فلقد سبق أن لجأ الى رمز (الفارس العربي) الفنان الراحل (أدهم اسماعيل) شقيق (نعيم) في لوحته الشهيرة . وعبر في هذه اللوحة عن مرحلة هامة من مراحل

الثورة العربية وذلك بعد عدوان عام (١٩٥٦) ، وهـا نحن نرى الرمز نفسه يتجدد ويستخدم عند (نعيم) على شكل آخر ، للتأكيد على أن هذه الحرب تمثل بعثـاً جديداً للإرادة العربية في سعيها للتخلص من كل ما يعيق مسيرتها .

الحصان والفارس معاً ؟!

وإذا استخدم (نعيم) رمز (الحصان) فلقد عرف كيف يختاره لأنه أراد أن يعطي صيغة تعبيرية تحمل أصالة العربي ، فالحصان يتمتع بكل الأصالة التي تربط حاضره بماضيه ، وما ورثه عن أجداده ، واختار (نعيم) هذا الحصان واستخدمه ضمن صيغـة معينة ، ليدلنا على ان الحصان أصيل بمـا ورث من ماضيه وبما هو إذ ربط بين الحصان والفارس ربطاً محكماً بحيث يصعب تمييزهما عن بعض ، فكأنه أراد أن يقول بأن أصـالة السلاح لا تنفصل عن أصالة من يستعمله ، فالحصان ليس قوة مستقلة عن الفارس ، وهو بما يملك من قوة ذاتية لا ينفصل عمن امتطاه . وأصبح جزءاً منـه . وهو قادر على أن يقوده إلى الحرب ولتحقيق النصر حيث يقاتل الحصان والفارس معاً .

وهكـــذا أصبح الحصان جزءاً من المعركة ، وأصبح الفارس جزءاً آخر منها واندماجها معاً في وحدة متحركة ، هو الذي يقود إلى إزاحة الظلام ونشر السـلام .

ويمكننا هنا أن نجري مقارنة بسيطة بين لوحــــة (نعيم) وبين شكل مألوف من اللوحات التقليدية التي تصور (القديس جاورجيوس) و (التنين) حتى نوضح شيئاً ما ، وهو مدى رغبة (نعيم) في تأكيد تلاحم الحصان مع الفرس وأهمية ذلك .

في اللوحات العديدة المرسومة والتي نراها في كثير من البيوت تمثل لنا الأسطورة عن (القديس) وهو يقتل (التنين) ، وهنـــا يمكن أن نقول بأن فكرة (الفارس) موجودة عند (نعيم) ، لكن تصور أن (القديس) أو (الفارس) يقتل (التنين) وحده ليست موجودة ، فكأن (نعيم) من جهة أخرى يلجأ الى رمز شعبي لكنه يعيد صياغته ليؤكد على فكرته التي شرحناها .

مزيداً من الرموز :

بل إن (نعيم) يزيد من الرموز ليوضح لنا جوانب أخرى تتعلق بالحرب .!

إن الفارس قد تحول على حصانه إلى رأس ممتد ، وجسم أصبح كجناح النســر يطير فوق حصانه (وأصبح للحصان نفسه جناح آخر ، وزخرف الجناحين ،وأحاط

(نعيم) الحصان والفارس بزخارف عربية خضراء من التراث ليؤكد على أن حركة الحصان قد تمت بارادة الفارس وبقوله هو ، وحين تحركا تحول التراث إلى سهام وقنابل ساهمت في القضاء على (التنين) وفي الخلاص من قوى الشر ، وتحولت بعض جوانبه إلى طائرات وقوى ، فكأن (نعيم) حشد في لوحته كل شيء من تراث وحاضر ليساهم في حركة الحرب التحريرية .

وحين مثل الحصان والعربي الذي يمتطيه ، على شكل أسطوري خارق للمألوف ، يمكن أن يتصور المشاهد أن الحصان قد أصبح هو (البراق) لأنه يطير ، ويبدو العربي قد امتطى (البراق) حين خاض الحرب ، وأصبح كالنسر في انقضاضه ، وهي رموز ساعدت على اعطاء جوانب تعبيرية عديدة لما رسمه (نعيم) وأراد أن يمثل به ما حققته الحرب .

الفتـــاة ... الأمة

ويلجأ (نعيم) الى رموز أخرى . إنه يقدم لنا وجه فتاة حسناء في الجانب الايمن من اللوحة ، وقد ربط بين الفتاة والعلم الذي يحمله الفارس ليشكل شعرها جزءاً منه . فهي رمز واضح للامة العربية التي حمل لواءها الفارس العربي ودافع عنها وهو على ظهر جواده ، وبالتالي فحركة الحصان والفارس ـ حرب التحرير ـ قد حملت لواء هذه الامة ، وحولت ترابها الى قوى قادرة على القتال ، وهي بالتالي جددت هذه الامة ، ولقد رمز الى ذلك بوردة حمراء وضعتها الفتاة الحسناء على صدرها بعد أن تزينت وبدت جميلة متفتحة للحياة ، بعد ان قامت ، وتحرك الفارس ممتطيـاً جواده ليقضي على القوى الشريرة .

الصياغة التشكيلية والمضمون

ويمكن ان نلاحظ بأن (نعيم) حين قسم اللوحة الى جزئين أساسيين ، وربط بينهما بحركة الفارس ، قد أعطى اللوحة شيئاً هاماً وهو :

ـ الصياغة التشكيلية المرتبطة بالمضمون والمعبرة عن الموضوع !

فحين أراد تصوير (الحرب) استعان بالحركة في الحصـان والفارس ، ومع الحركة أصبحت الالوان حمراء وسوداء ، فالفارس يتحرك ويبدل الالوان ، فالحركة هي

التي جعلت الاحمر يتحول الى أزرق ، وحركة الفارس والمرأة بيضاء تحيطها هالة خضراء - إنها اللون الاخضر رمز للتراث والماضي الذي جدده نعيم وجعله رمزاً أساسياً للعرق وللتراث وللمرأة .

ولون الاحمر يدل على لون الفحم المشتعل تحت تأثير النار الحمراء القانية ، وهما معاً قادران على التعبير عن الجحيم الذي أحاله اليه الحصان الأبيض المخضر وبدا الفارس في الوسط بلون ابيض كأنه ملاك محيط بهالة من الخضرة المزخرفة ، وهنا تتجلى بوضوح الرموز اللونية والشكلية .

وفي القسم الخلفي نلاحظ الهدوء والاتزان ، وترى الالوان الباردة تلعب دوراً هاماً ، فكأنه أراد توزيع اللون ليتفق مع توزيع الحركة ، والفكرة التي تساعده على التعبير عن (المضمون) الاساسي ، لان حركة الفارس قد اعطت هدوءاً وسلاماً وحباً ، لهذا بدت المرأة جميلة بواقعها ، وبرموزها التي تدل على الماضي العريق وعلى فترة ما بعد الحرب التي جعلتها تتزين بعد ان تحرك (الفارس) ليقضي على (التنين) ومن معه من رجال .

ونكتشف جمال توزيع الالوان وارتباط ذلك بالمضمون ، كما نكتشف شيئاً هاماً وهو ان (نعيم) يوازن لوحته من حيث ألوانها كقطعة تشكيلية . فلا يكتفي بأن يستعملها كرموز بل هو قادر على ان يربط بين (البارد) و (الحار) ، بين الدرجات المعتمة والفاتحة والرمادية .

الأرض المحتلة

ولا ينسى (نعيم) أن يربط كل ذلك بالموضوع الاساسي وهو (حرب التحرير للارض المحتلة) لان الحصان والمرأة والفارس والقوى الشريرة كلها تمثل مقدمة اللوحة وموضوعها الاساسي ، لكن هناك في البعيد للوح في الافق الاقواس والزخارف والنهر والشجر . إنه لا ينسى ان يعطينا صورة عن الوطن السليب ، وبعض أجزاء محتلة منه بخيراته وتراثه ، وتتردد هناك مشاهد وصور ترجع الى ماضي (نعيم) في قريته .

تبدو بوضوح صورة (أنطاكية) ومناظر من مناطق فيها تكشف لنا رمزاً آخر يلجأ اليه، ويريد أن يؤكد على أن الحرب والفارس والحصان قد قصد منها استرداد الارض ، والمشهد رمز للارض ، وبالتالي يحاول (نعيم) أن يعمم الفكرة ويعطيها

خواطر حول رسم لوحة «فارس تشرين»

نعيم اسماعيل

مرسمي ، غرفة في البيت لابأس بحجمها ، ولكنها مع الايام ضاقت بالاعمال واصبحت لا اجرؤ على ان اطأ قدمي دون أن انظر ماعلى الارض لكثرة الاشياء التي تكاثرت مع الزمن وتبعثرت هنا وهناك وصار من الصعب تنظيمها ، اللوحات تراكمت ، علماً بأن الكثير منها ينصرف (!) بين موسم وآخر ، إلا انه يبقى الكثير دائماً .

رفوف عليها رسوم ومسودات ودراسات وكتب .. ثلاث طاولات متراكمة عليها الاشياء ، مكبس للحفر ؛ وتحت الطاولات وكذلك تحت الديوان والمقاعد تتراكم اشياء يصعب حصرها جميعاً : اسمنت ، واتربة الوان للزيت وللماء ، كرتون ، اسلاك ، حقائب مليئة بالادوات ، مطبوعات ، كراريس ، وورق من مختلف الانواع لمختلف انماط التصوير .

واصبح من الصعب التصور انه من الممكن القيام بأي عمل فني في هذا المكان . فقد قررت ـ على الرغم من احتجاج الاسرة ـ حجز جانب من غرفة الصالون المتاخم للمرسم . واعددت لوحة كبيرة تغطي جداراً بكامله لاستخدمها كحاجز اجنبي وراءها اكبر عدد ممكن من اللوحات والاشياء . وهيأت اللوحة ، ناصعة البياض ... وبعدها بأيام قليلة بدأت الوساوس .

منذ زمن بعيد ، منذ ايام انطاكية ، وانا احلم بالرسوم الجدارية والفسيفساء . وها هو جدار بمساحة حوالي خمسة امتار مربعة فارغ ينتظر .

ألح علي في بادىء الامر رسم مجموعة من المستحمات في مسبح .. اردت ان تدخل الطبيعة على الغرفة الظليلة لتتبدد كآبة الصالون بشيء من البهجة والحياة والجمال .. وقد كانت لدي المسودات والدراسات الكافية ، جمعتها من الواقع خلال الصيف .. إلا انني كنت اتريث كلما حاولت ان ابدأ التنفيذ ، لا اعرف لماذا ؟ لقد سيطر علي (كما يحدث عند كل بداية) نوع من الخوف ، فما سوف اضعه على هذه اللوحة سوف يكون احد العناصر الثابتة في البيت .

والجدير في مثل هذه الحالة ان يكون هذا الجدار ـ اللوحة ، غنياً ومدروساً ، يتمكن من استئناس المشاهد لفترة طويلة ؛ مدة زيادة مطولة على الحد الادنى .. او ان لا يزعجني او لا امله انا ؛ الذي سوف اراه دائماً وبتكرار .. فأنا المنجز وانا المتفرج .. المتفرج الدائم ! .

وهكذا مضى الصيف ولم يتيسر للمستحمات ان يستضفن في منزلي على سطح اللوحة .

وجاء صباح السادس من تشرين مشحونا بالهمسات وتعابير الترقب والتوتر الغامض على الكثير من الوجوه .. وعند الظهر بدأ الدوي يهز المدينة ، واللوحة كانت ماتزال بيضاء ، ليس فيها ولا اشارة صغيرة ..

هاهي الحرب بكل عنفوانها و كثافتها وغناها .. وها هو المقاتل العربي ينتصب ويتألق .. فارساً يدخل التاريخ الحديث ممزقاً ظلمات النسيان والكسل والخوف ، لقد كانت لحظات رائعة غسلت الكثير من الشعور بالنقص وغيوت الكثير من الاوهام والمعتقدات الثابتة .

وامام لوحتي - الجدار الابيض - مامسني افكر بغير هذا الفارس . تذكرت كلام صديقي : « العرب قوم محاربون اشداء عندما تكون الحرب دفاعاً عن الكرامة وصوناً للحرية والكبرياء » . وكم هي مقدسة الحرب في مثل هذا الظرف .. وتذكرت لوحة ادهم « الفارس العربي » التي كان قد رسمها قبل حوالي عشرين سنة و كيف انني قمت بنسخها خلال الصيف ..

بدأت بدراسة موضوعي بحماس وانتهيت من وضع صيغة شبه نهائية على لوحة صغيرة .. وبدأت اخط الخطوط الرئيسية على السطح الابيض الكبير . ورسمت بغبطة وحب من النوع النادر ، متسلقاً السلم او على كرمي . .

اثناء الرسم لم يعد يهمني المباشرة في التعبير او مايقولون عنه سطحية او أي شيء آخر .. كنت ارسم باندفاع يتجاوز الكثير من الاقاويل والتقسيرات حول التصوير .

حصان ، دبابة ، رمح وفارس يقتحم الظلام مخلفاً وراءه عالما من الوعود .

وافعى تتقطع ، وطائرات عدوة تتساقط ، وطائرات عربية ، وفتاة ، هي الام والاخت والحبيبة ينسج من شعرها علم العروبة ممتداً حتى صدر الفارس .

بالفعل نسيت الصياغات والاطر الفنية ، ونسيت كل التزام مفروض من داخل الكتب او المتاحف .. انها الحياة ، كانت تملي علي نوع العمل وتحدد لي الاسلوب واستخدام الصور والرموز .

هذه اللوحة التي رسمتها لنفسي لتقوم بخدمة مافي منزلي هي في الوقت ذاته معبر قوي عن احساس جماهيري صادق كما تأكد لي بعد ذلك ، ما كان لي وحدي هو للجميع في نفس الوقت .. وهذا مايسعدني ، ان اعطي الحياة حقها واكون صادقاً تجاهها متجاوزاً الكتب والمتاحف والمؤتمرات والبيانات والتوصيات .

* * *

الكتابة في درجة الغليان *

السياسة المسلحة × مثال تطبيقي

الدكتور بكري علاء الدين

« الكلمة العربية ذات نزعة مثلها كمثل الخلية (...) ، وما اللسان العربي من الامة التي انشأته إلا بمثابة الانسجة من الكائن الحي ، يشف منه المعنى بجملته وبأجزائه ، فيبعث في نفس العربي بفيض تنتهي به الحياة بتحقيق غايتها : البطولة » .

زكي الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، م ١ ، ص ٩١

(*) اكتشفنا بعد كتابة المقال ، ان الشاعر محمود درويش قد استخدم قبلنا نفس العنوان للندوة الأدبية عن التضامن الثقافي الياباني – العربي المنعقدة في طوكيو من ٢٠ حزيران الى ٦ تموز .

انظر شؤون فلسطينية : « ورقة الى دفتر طوكيو : الكتابة في درجة الغليان » العدد ٣٥ تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، ص ٣٣ .

مانحاوله هنا ليس قراءة تحليلية في كتاب « السياسة المسلحة »[1] للكاتب صفوان قدسي ، بل نحاول رؤية ابعاد الكتابة العربية مجدداً من خلال المنظور الذي امتلكته بعد حرب تشرين المجيدة . والأفكار التي نود طرحها تهدف الى تسليط بعض الاضواء على ما احدثته هذه الحرب من تغييرات في القوة التعبيرية للكلمة العربية ، وينسحب هذا التغيير بشكل تراجعي على كل كتاباتنا : يمسخ ما انجب التيار الانهزامي الذي اهتز ايمانه بالعروبة ، ويدعم ماقيل في سبيل تحرير هذه الامة من كافة اشكال العبودية . ولقد اخترنا كتاب « السياسة المسلحة » كمثال تطبيقي للخط الذي آمن بقضايا الوطن والانسان العربي ، وبالقدرة التي يمتلكانها استراتيجياً وحضارياً . واننا لنرى في هذا التدعيم للنظرة المؤمنة بالعروبة اعظم انجازات تشرين على الصعيد الثقافي .

الكتابة في درجة الغليان هي الكتابة التي تنزع نحو ابداع الحضارة والانسان . انها الكتابة التي تستوعب في خلاياها معنى الكفاح الذي ترتفع فوقه أعمدة المستقبل . وهي الكتابة التي تصر على الاعتراف بدور وبرسالة الشهداء والأبطال في تاريخ هذه الأمة ، وتظل وفية للشعارات التي سقطوا من أجلها : تدافع عن منجزاتها وتناول الشعلة الى الاجيال المقبلة .

وتشرين ، هو الذي يرفعنا الى آفاق الكتابة الجديدة ويضعنا على مشارفها ، وهو من ثم يمد جناحيه على كل كلماتنا وأفكارنا ، يحضنها ويلقي عليها بردة العظمة . ومن الامثلة على هذه الكتابة التي احتفت بتشرين وبشرت به ، تهبه حماسها ، ويفيض هو على سطورها من هيبته ومجده مايملؤها صدقاً وحقاً ، كتاب « السياسة المسلحة »(٢) للكاتب صفوان قدسي .

---

(١) منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٧٤ .

(٢) سنكتفي لاحقاً بالاشارة الى رقم الصفحة الموضوع بين قوسين للدلالة على المرجع المذكور .

الحرب هي السياسة المسلحة :

اقتضى الامر زمناً منذ أن قال ماو تسي تونغ : « السياسة حرب لا تراق فيها الدماء ، والحرب سياسة دموية » حتى تمثل الفكر السياسي العربي المعاصر مثل هذه القاعدة الاولية . وقد جاءت حرب تشرين لتكون درساً عملياً وتطبيقياً لتداخل الحرب والسياسة ، وما تخفيه لنتائج الحرب في هذا المجال للمستقبل أخطر وأدق . ولقد حاول كاتبنا (صفوان قدسي) تحليل هذه القاعدة وعرض ما ينتجه هذا التحليل من تخريجات ومزاوجات وامثلة فنراه يقول : « وكما أن الحرب شكل من أشكال السياسة فان السياسة شكل من اشكال الحرب ، والذي يربح المعركة سياسياً يكون قد ربح نصف المعركة... ولعل النموذج الذي تقدمه « فيتنام » في هذا المجال قمين بأن يفصح عن حقائق كثيرة» (ص ١٠) . ويتابع حتى يصل بنا الى النتيجة التالية: « لا حرب بغير قوة السياسة، ولا سياسة بغير قوة الحرب » . (ص ١١) .

نستنتج من ذلك بأن العقل العربي قد اكتشف ذاته حينما تمثل هذه المقولة وارتبط بأصوله لما قرن القول بالعمل ، وعادت اليه بذلك « كلمته » التي « تقول وتفعل » معاً.

كلنا يعرف قصة هارون الرشيد مع نقفور . يروي الطبري في تاريخه ضمن أخبار سنة ١٨٧ هـ . أن صلحاً كان قد عقد بين المسلمين وبين ايريني صاحبة الروم ، ولما خلعت هذه الملكة حكم الروم ملك من اصل عربي (من أولاد جفنة من غسان) وكتب الى الرشيد :

« من نقفور ملك الروم ، الى هارون ملك العرب ، أما بعد ، فان الملكة التي كانت قبلي ، أقامتك مقام الرخ ، واقامت نفسها مقام البيدق، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها اليها ، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من اموالها ،وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك »(١) .

وكان جواب الرشيد ، بعد الغيظ والغضب الشديد ، جواباً « مسلحاً » . فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ؛ قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام »

ثم شخص من يومه ، وسار حتى أناخ بباب هرقلة ، ففتح وغنم ، واصطفى وأفاد ، وخرب وحرق ، واصطلم .. »(١)

ها نحن نعثر في الجملة التي ذهبت مثلاً « الجواب ما تراه دون أن تسمعه »، على مثال حي لالتحام القول بالفعل وعلى ارتباط السياسة بالحرب ، حتى لكأن الثانية امتداد مكثف للأولى . وهذا ما شدد عليه الكاتب صفوان قدسي وحاول ترسيخه باصرار .

وينتقل مؤلف كتاب « السياسة المسلحة » الى استفادة درس آخر من قائد الثورة الصينية حين يستعرض كتابه « الحرب طويلة الأمد » ؛ وفيه يتكلم ماوتسي تونغ عن « ظاهرتي التهويل والتهوين » اللتين ترافقان الحرب عادة . « ويختصر « ماو » وجهة نظره في دعاة التهويل والتهوين بعبارة تقول : « ان دعاة الاستعباد القومي ينظرون الى العدو بوصفه إلهاً ، ويعتبروننا سقط المتاع في حين أن دعاة النصر العاجل يعتبروننا آلهة وينظرون الى العدو بوصفه سقط المتاع ، انهم جميعاً على ضلال . ان نظرتنا تختلف عن نظرة الجماعتين على حد سواء ، ان حرب المقاومة ضد اليابان طويلة الأمد ، وسوف يكون النصر حليفاً للصين . تلك هي استنتاجاتنا » . (ص ١٦) .

ويستطيع الذين عاصروا مرحلة الصراع العربي – الاسرائيلي وخاصة قبل حزيران وبعده أن يكتشفوا بسهولة أوجه التشابه في الحالتين . وسوف لايختلف الأمر عما حققته الصين ، حيث ستحقق الثورة العربية التي بدأت تباشيرها في تشرين النصر النهائي والحاسم على الصهيونية المعاصرة في اسرائيل . وسيكون الحصان الأخير ، وماسادا الاخيرة .

الاستراتيجية الحضارية بين الحرب والسلام :

تقف الصهيونية المعاصرة في اسرائيل في وجه الاستراتيجية الحضارية للعرب . واذا كانت الحرب قد فرضت علينا ، فاننا نحن الذين سنفرض السلام آخر المطاف . هذا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٨

العائق .. هذا الحائط الذي يعترض سبيلنا ، ما هو الأساس الذي يقوم عليه ؟ ليست اسرائيل في التحليل النهائي الا واقعاً استعمارياً وفكراً اسطورياً . « ان تشكيل دولة اسرائيل على أرض فلسطين هو نتيجـة لتطور يمكن ادراجه تماماً في حركة التوسع الاوربيـة الامريكية الكبرى في القرنين التـاسع عشر والعشرين للاسكان أو السيطرة اقتصادياً وسياسياً على الشعوب الأخرى (...) ومن المؤكد جداً انه تطور استعماري له بعض السمات الخاصة ككثير غيره على كل حال(١) » . بيد أن هذه « السمات الخاصة» لاتعفي الصهيونية من كونها « أعلى مراحل الاستعمار(٢) » ، ولا تعفي اسرائيل من كونها « أثراً من آثار الاستعمار » على حد تعبير الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » . وما حديث الاسرائيليين عن « الاستقلال » الا كالحديث عن « الأيس كريم » في جهنم . ذلك أن تاريخ الصهيونية وتاريخ الاستعمار كتاريخ الخيط والابرة ، بها حيكت كافة المؤمرات لكل الشعوب . فهذا « ونستون تشرشل » يصف قيام اسرائيل « تحت حماية التاج البريطاني ، وتضم نحواً من ثلاثة ملايين أو أربعة من اليهود » بأنها «حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحقيقية للامبراطورية البريطانية» (ص ٦١) . وهذا « واربرمان » يضيف « هذه العبارة ذات الدلالات التي لاتخطئهـا العين:»وقداقنعت اللورد بأن ما يسمى بالاستعمار ليس الا الصهيونية بعينها. »(ص٦١).

بل إن اسرائيل استعمار اسطوري، واسطورة استعمارية. هي استعمار اسطوري، لأنها ستكون آخر أشكال الاستعمار الاستيطاني ، ولأن سقوطها كآخر قلعة من قلاعه سيكون له وقع خاص بالنسبة للمؤرخين وقرائهم ، حيث ستطوى بها آخر صفحة من كتاب الاستعمار وتاريخه على وجه الأرض . وهي استعمار اسطوري لأنها تريد ايقاف عجلة التقدم والتاريخ بتكريس النازية والفاشية . قال هربرت س . موريسون زعيم مجلس العموم البريطاني عام ١٩٤٦ : « لقد جاء الاسرائيليون من أوربا بالنازية الى فلسطين، جاؤوا بالتعصب والغطرسة والعنصرية والتهديد والارهاب وعبادة القوة ... وعسى أن

(١) مكسيم رودنسون ، «اسرائيل ،واقع استعماري» ، ترجمة إحسان الحصني وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦٧ ، ص ١١٥ .

(٢) صفوان قدسي ، المعرفة ، العدد ١٤١ ، تشرين الثاني ١٩٧٣ ص ١٥٦ .

يتقوا ما ينجم لهم عن ذلك من الفساد والانهيار ... »(١). أليس عجيباً أن يمارس القتيل أساليب جلاده على غيره بحذافيرها !؟. أليس عدلاً أن يلقى الجلادون نفس المصير ؟

أما كون اسرائيل اسطورة استعمارية، فما ذلك الا لأن اليهود في الشتات يحتاجون الى نوع من الدعاية الاسطورية ، تفوق في الاخراج السينمائي المستوى العادي من الدعاية، وذلك لكي يقنع هؤلاء اليهود مع ما هم فيه من بحبوبة العيش والحرص على المظاهر المادية للحياة في احبولة وشباك الصهيونية. أي أن الصياد الماهر مجبر على ابتكار الحيل المناسبة لضحاياه اذا أراد الرجوع بصيد ثمين . ولقد وصلت هذه الدعاية الاسطورية أوجها بعد ٥ حزيران حيث اجتمعت في باريس ببعض الاسرائيليين الشبان ، ممن كانوا يؤمنون ايماناً لا يجادل بالمعادلة التالية : (١ يهودي = ١٠٠ عربي) . هذا العقل الذي يؤمن بهذه المعادلة ، هل هو عقل سوي أم « جهاز لاقط » يعيش في دولة الخرافات والأساطير .

من السمات المميزة للاسطورة ، أنها بدون حدود ، وأنها تنمو «خارج التاريخ». والاسرائيليون الذين « استبدلوا الواقع بالخرافة واستبدلوا التاريخ بالسحر »(٢) أرادوا منذ البداية أن تكون اسرائيل بغير حدود . « بن غوريون الذي أقنع المجتمعين عام ١٩٤٨ بضرورة عدم تعيين حدود لاسرائيل ، كان يمثل بداية مواقف مشابهة امتدت منذ ذلك التاريخ ، وما زالت قائمة حتى الآن . ذلك أن المسؤولين الاسرائيليين ظلوا لفترة غير محدودة من الزمن ، متمسكين بفكرة مفادها أنه ليس من مصلحة اسرائيل تعيين حدود لها ، باعتبار أن هذه الحدود سوف تكون قيداً على اسرائيل في الحركة . » (ص ٢٢) .

وتغدو الاسطورة مضحكة حين تدخل في مرحلة الغباء ، ذلك أنها وباعتبارها بدون حدود ، وخارج التاريخ ، تبحث عن الأرض . إن المضحك هنا هو المفارقة التي

---

(١) انظر «اسرائيل أمة مفتعلة» ، تأليف د. فرانتس شايدل ، ترجمة: محمد جديد وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ٢٩٩ .

(٢) محمود درويش ، وداعاً أيتها الحرب وداعاً أيها السلام . مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٦٦ .

لدفع الاسرائيليين الى البحث عن الارض في الوقت الذي تعيش فيه الاسطورة خارج مفاهيم المكان والزمان . وتغدو الاسطورة غبية لدرجة الاغماء حينما تعتقد أن أرض الآخرين مسرح في الهواء الطلق خاو إلا من عويل الريح ورقص الشجر . ذلك أن « الحركة الصهيونية كانت وما تزال تسعى إلى تحقيق أهدافها من خلال مجموعة من الوسائل في مقدمتها تأكيد مفهوم الارتباط بالأرض » . (ص ٤١) ، لقد قدر الزعماء الصهاينة وعلى رأسهم بن غوريون وجود المشكلة العويصة : خلق اليهودي المزارع ، ولكنها ماتزال غير محلولة تماماً .

لقد اكتملت عناصر الاسطورة ، لكنها ماتزال اسطورة ، وأغبى من الفكر الاسطوري ذلك الفكر الذي يؤمن بتحويل الاسطورة إلى حقائق خالدة . والواقع فان « التفكير السياسي الاسرائيلي بحاجة الى صدمة كهربائية تعيده الى حجمه الحقيقي وتمسح عنه كل هذا القدر غير المعقول من الخيلاء والجموح والقفز فوق حقائق التاريخ والجغرافيا . » (ص ٣٧ — ٣٨) .

لم يعد مجال للشك بأن تشرين هو « الصدمة الكهربائية » التي احتاجها العقل الاسرائيلي ليصحو ، ولكن السؤال المطروح الآن هو : هل صحا العقل الاسرائيلي ؟ وإن صحا فهل يرعوي عن غيه ؟!! لقد « انكسر اليقين المطلق ، وقع الشرخ بين الواقع والخرافة ، تغلغل الشك بالقيم التي كانت مناقشتها محرمة . اقتنع الجسد الاسرائيلي بأنه قابل للجرح . التقى الموت بالضريبة فصارت مستادة قابلة للكسر . ومهما تكن النتائج ، مهما تكن .. فقد وقع الخلاف بين الاسرائيلي وبين قناعاته . واهتزت مستادة من أركانها . » (١) . إننا نعتقد بأن العقل الاسرائيلي قد صحا ، ولكن هذا سيقوده الى الاحتراس ليغدو أشد شراسة من الماضي ، تماماً كالمجرم حينما يشعر بأنه محاصر وبأنه فقد كل شيء ؛ ان القادة الاسرائيليين كلهم معصوبو الأعين ،سواء البصير منهم والأعور . ان أعينهم ماتزال مشدودة الى القتل والغدر والجريمة ، لأن هذا ماتطالبهم به أدوارهم التي رددوها خلال عشرين عاماً ونيف . ان أدوارهم هي التي تحكمهم ، والمسرح الذي ابتنوه لايتسع لأكثر من هذه الأدوار الجنونية ، وهم كذلك يصدرون عن « الجمهور » الذي يعيش ليصفق للعنف وللجريمة .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

ويبدو أن الصهيونية قد انتقلت بعد حرب تشرين من مرحلة الهجوم الى مرحلة الدفاع . بيد أن علينا ألا ننسى بأن « الدفاع » في القاموس الاسرائيلي يعني الهجوم . إن طبيعة اسرائيل العدوانية تعطي المترادفات والمتناقضات في اللغة معان جديدة ، بتخليها عن ابسط القواعد المنطقية . ونكون متفقين مع « المنطق الاسرائيلي » اذا قلنا بان اسرائيل حين تتشدق بالسلام فذلك يعني أنها تتأهب للحرب ، « وفي كل مرة يخطط فيها العدو الصهيوني لتوجيه ضربة عسكرية ، كان يسرع الى اطلاق التصريحات عن الرغبة في السلام » . (ص ٣١) .

وهذا لا يتناقض مع طبيعة اسرائيل ودورها في المنطقة . فهي كما قلنا الجدار الذي أقامه الاستعمار في وجه اليقظة العربية . بيد أن هذا الجدار المبني على جماجم الأبرياء لن يكون الا حافزاً لانتصار الامة العربية على نفسها أولاً وعلى إعدائها ثانياً . واذا كانت الامبريالية قد باعت المنطقة للشيطان بعد الحرب العالمية الاولى ، ليعيث فيها نهباً وتقتيلاً ، فان الارادة العربية التي استردت هويتها في ساحة القتال في تشرين ، ستحقق استراتيجيتها الحضارية ، في « مهد الحضارات » ، كما يقتضيه دورها .

ما وراء الصراع العربي - الاسرائيلي

تغير الزمن ، وتغيرت الخارطة .. كل شيء يتغير الا أطماع الصهيونية . ان أرض السياسة صحراء تغير الرمال المتحركة طوبوغرافيتها دونما توقف . فالمواقع والامكنة واطراف الصراع والقوى الدولية وموازينها مرت بتحولات هائلة خلال الزمن المنقضي بين قيام « اسرائيل » ووقتنا الحاضر . « وتستطيع النظرة المدققة أن تضع يدها على حقيقة مفادها أن هذه التحولات انما ترسم صورة جديدة للعلاقات الدولية الى الحد الذي يمكن معه القول : إننا نقف بالفعل على أعتاب عصر جديد وعالم جديد وعلاقات دولية جديدة . هناك قوى جديدة تظهر ، وهناك قوى اخرى يزداد تأثيرها ويشتد ، وهناك قوى ثالثة تحاول أن تبحث عن طريقة مناسبة تحافظ بها على مقدرتها على التأثير .. واخطر ما في هذه التحولات هو أنها تعيد توزيع الادوار العالمية مرة اخرى بحيث أن العالم يستطيع من الآن فصاعداً أن يتحدث عن الخمسة الكبار ، الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والصين وأوروبا الغربية واليابان » . (ص ٧٠ و ٧١) . وذلك يعني أن القطبية في الصراع لم تعد أفقية بل دائرية ، أي أن العالم « ينتقل مما يمكن

تسميته بالقطبية الثنائية الى وضع آخر يمكن أن يطلق عليه اسم القطبية الخماسية » . (ص ٧٥) .

ان هذا التوزيع الجديد للادوار الرئيسية يتعلق بانتهاء « عصر السيادة المطلقة» وهذا يعني «أن العالم يدخل عصراً جديداً سوف تولد معه قوى جديدة لا بد وأن يكون لها دورها في رسم خارطة العالم السياسية » . (ص ٨٣) . ما دور هذه القوى الجديدة وما هو أثرها وتأثيرها على الصراع العربي — الاسرائيلي ؟.

« ان الولايات المتحدة التي كانت القطب الاول في القطبية الثنائية ، سوف تضطر الآن الى فتح الباب أمام الكبار الآخرين لكي يدخلوا ويكون لهم دورهم ، الأمر الذي يؤدي الى نتيجة محققة وهي أن يتقلص الدور الامريكي ويضعف تأثيره بفعل وجود قوى جديدة أخرى سوف يكون لها دورها وصوتها وتأثيرها . » (ص ٧٥) . وفي تقلص هذا الدور مكاسب استراتيجية كبرى لحركة التطور في الجانب العربي ، فحين « يصبح الدور الأمريكي أقل فاعلية وتأثيراً ، وحين يتقلص الحجم السياسي للولايات المتحدة وحين تظهر على المسرح السياسي قوى أكثر استعداداً لأن ترى الامور بعينها هي لا بعين الولايات المتحدة فان ذلك لا بد وأن يترك أثره على الصراع العربي—الاسرائيلي .» (ص ٨٧) .

ومنذ أن اكتشف ديغول بأن « أوربا تشكل وحدة حضارية من الأطلسي حتى الأورال ، وأن وحدة الغرب ، أي وحدة أوربا وأمريكا ، ليست الهدف الذي ينبغي أن تهرول أوربا وراءه . » (ص ١٠٦) ، وبأن « المصالح القومية ، وليست المبادىء والمعتقدات والايديولوجيات هي التي تحرك عالمنا المعاصر . » (ص ١٠٦) سارت أوربا نحو اكتشاف ذاتها ، وحققت الوحدة الاقتصادية في سوقها المشتركة، وهذا رئيس الجمهورية الفرنسية الجديد جيسكار ديستانغ يعزف اسطوانة الوحدة الاوربية من جديد مما يؤكد بأن «الديغولية لم تكن فلسفة سياسية طارئة تذهب بذهاب مؤسسها ، ولم تكن فلسفة فرنسية فحسب ، وانما الديغولية فلسفة سياسية يمكن أن تنسحب على قارة بأكملها . » (ص ٩٠) .

ولن تلبث اليابان « ذلك العملاق الاقتصادي والقزم السياسي » أن تتحرك حينما يشتد الصراع بين الدولار والين . وقد رأينا كيف ان المصالح الاقتصادية لليابان قد دفعت مسؤوليها الى تغيير كثير من مواقفهم من الدول العربية بعد حرب تشرين وازمة

النفط . « وحين خرجت الصين على وحدة المعسكر الشرقي ، اصيب الكثيرون بالذهول وعدم التصديق . » (ص ١٠٦) .

« ان بروز الصين على مسرح السياسة العالمية كقوة كبرى لها دورها الفاعل والمؤثر ليس هو الوضع الأمثل بالنسبة للاستراتيجية الامريكية . بمعنى أن ظهور صين قوية لايمكن في نهاية المطاف إلا أن يخدم أهدافاً صينية وليس أية أهداف اخرى على الاطلاق .. وعلى سبيل المثال ، مرة اخرى ، فان وجود أوربا موحدة وقادرة على القيام بدور فاعل ومؤثر على صعيد السياسة العالمية ، لايمكن أن يكون بدوره الوضع الأمثل بالنسبة للاستراتيجية الامريكية » . (ص ٧٧) .

واذا كان الضعف الذي يصيب الدور الامريكي في العالم يخدم المصالح والاستراتيجية العربية المتمركزة حول الصراع العربي – الاسرائيلي ، فما ذلك إلا لأن « الصراع العربي – الامريكي المعلن وغير المعلن انما يمتد بجذوره الى تلك الحقيقة القائلة ان حركة القومية العربية ببعدها الاجتماعي انما تقاتل من أجل تثبيت الهوية القومية للأمة العربية ، ومن أجل تأكيد وجودها القومي » . (ص ١٠٧) .

توزيع الأدوار الجديد يضعف موقف الولايات المتحدة ويدفعها كل يوم الى مراجعة شاملة لحساباتها . ولنفس السبب ومع فارق ايجابي في الأرباح يجري العرب تعديلاً في علاقاتهم مع العالم .

القومية العربية وبعدها الاجتماعي

« في الثورة العربية القومية الاشتراكية ، ظهرت حقائق جديدة لايستطيع هواة حفظ الشعارات وترديدها ، وأسرى الصيغ الجاهزة والعبارات السهلة ، وسجناء الكتب والاقوال المحفوظة ، أن يستوعبوها بصورة جيدة .

« في الثورة العربية القومية الاشتراكية التي تبدو وثيقة الصلة بثورات العالم الثالث ، تتضح الحقيقة الآتية ، وهي أن البروليتاريا العربية ليست مهيأة للقيام بدور مشابه للدور الذي قامت به بروليتاريا أوربا في مرحلة من مراحل تطورها (...)

«ولقد وجدت الثورة العربية القومية الاشتراكية حلاً لمشكلة ضآلة حجم البروليتاريا العربية عن طريق توسيع تعريف الطبقة العاملة والغاء أي ربط بين هذا التعريف وبين عمال المصانع بحيث اصبح التعريف يشمل القوى الاجتماعية المنتجة يدوياً وعقلياً». (١٣٥).

وذلك يعني بأن الاشتراكية في التطبيق العربي تخالف الفكر الاشتراكي التقليدي الذي « كان يربط الثورة الاشتراكية بعمال المصانع وليس بأية طبقة أخرى على الاطلاق» (ص ١٢٧) . وأسباب ذلك عائدة الى ان « الثورة العربية في أحد بعديها ثورة قومية، ولأنها ثورة قومية ، فإن القوى التي تشارك فيها قوى واسعة وعريضة (...) واذا كان التطور قميناً بأن يجعل البروليتاريا العربية تنمو نمواً سريعاً ، خصوصاً مع نمو الصناعة العربية وانتقالها من طور الصناعة الاستهلاكية الى طور الصناعة الثقيلة ، فان هذا قمين أيضاً بأن ينقل البروليتاريا العربية الى مواقع أكثر تقدماً في سلم القيادة ، وان يجعلها تمارس دوراً أكبر وأشد فاعلية وتأثيراً على صعيد التحولات الاجتماعية . » ص — ١٣٥ و ١٣٦) . إن لهذه الاستنتاجات مايسوغها إذا علمنا بأن قضية العرب المصيرية الأولى هي الصراع العربي — الاسرائيلي وبناء دولتهم القومية، وليست قضية الصراع الطبقي .

الوحدة العربية بين الحتمية وصراع الإرادات

« هل تتحقق الوحدة بالتطور التلقائي ؟ » هذا مايحاول كاتبنا صفوان قدسي الإجابة عليه في آخر فصول كتابه « السياسة المسلحة » . فهو يستعرض آخر معطيات الميكروفيزياء حول « علائق الارتياب » أو « اللاحتمية » ليصل الى اعتبار ان قضية الوحدة العربية غير « محكومة بقوانين لاقبل للبشر بالتأثير فيها ، وأن معنى التاريخ إنما يتحقق من خلال البشر الذين يسهمون في تحريكه وصنعه . » (١٩٤) . وقد قام كاتبنا بتسليط بعض الاضواء « على المحاولات المبذولة لاخضاع العلوم الانسانية لمنطق العلوم الطبيعية بشكل متعسف ، وهي محاولات تقوم على افتراض ان العلوم الانسانية لاتشكل مملكة مستقلة وإنما هي تدخل في نطاق مملكة العلوم الطبيعية ، الأمر الذي يؤدي بطبيعة الحال الى القول إن ماينسحب على الطبيعة من قوانين ، لايفلت منه الانسان باعتباره جزءاً من كل شامل هو هذا الكون الذي يمكن الكشف عما فيه من تناغم واتساق. وقد وصلت هذه المحاولات في وقت من الاوقات الى تخوم الادعاء القائل انه مادام الأمر على هذا النحو ، أي مادامت الفيزياء التقليدية تنبىء عن وجود حتمية تفرض نفسها على الطبيعة ، فان هذه الحتمية تمتد وتتسع لتلقي بظلها على الانسان بحيث تخرجه من مملكته المستقلة وتجعله مجرد تابع لنظام أكبر منه يجعل من حريته مجرد توهم لايستند الى أي أساس من الواقع . » (ص ٢١٤) .

اننا نتفق مع الكاتب في عدم تصور التاريخ «ماكينة» كبيرة صماء بكماء عمياء، لها قوانينها الصارمة التي تسمح لنا بعد اكتشافها بالتنبؤ بمصير العالم . ولكننا نحب ان نؤكد بأن هنالك حتمية واحدة يخضع لها العرب جميعاً ، كما أن هنالك حتمية اساسية لا يمكن للعقل ان يتخلى عنها ابتداء من الحياة اليومية وحتى اعظم التطبيقات التكنولوجية ، وهي ان العرب «لا يستطيعون الخروج من الزمن الذي كان يهيمن عليهم ابداً بحتمية المصير الواحد . »(١) . وهذا ما اكدته حرب تشرين المجيدة بجبهاتها الثلاث : العسكرية والسياسية والاقتصادية .

ما أردنا التركيز عليه هو بايجاز : مقدرة الحدث التشريني على تحرير الكلمات العربية واطلاق مكنوناتها ، وهذا ما لايقل أهمية عن نجاح تشرين في تحرير الارادة العربية . وهل هناك فرق كبير بين الكلمة والارادة عند العربي ؟ وما حاولناه هو الرجوع الى الكتابة القومية واختبارها بعد انسحاب آثار النصر عليها . ولقد توصلنا الى الربط بين نبوءة الكتابة المؤمنة بأصالة الامة العربية، وبين معجزة تشرين . وأردنا القول بأن الكتابة ما غدت جديدة ومجدية الا بعد دفع ضريبة الدم وبعد رفد الرصيد القومي بالبطولة والتضحية غير المحدودة .

لذا ، اتخذ رصدنا لأفكار كتاب « السياسة المساحة » طابعاً تطبيقياً اقتصر على الأوليات التي كانت الكتابة في درجةالغليان تناديها من الغيب . ولقد اضطرنا هذا الاختيار الى عدم اجتياز حدود بعض المواضيع الهامة التي تشكل الهيكل الاساسي للكتاب فيما لو درس دراسة تحليلية . ونحيل القارىء الى مثل هذه المواضيع الهامة . كما نأمل ان تمنح روح تشرين دفعة جديدة للفكر القومي لتعيده الى « الحضور » من جديد ، بعد ان اثار كاتبنا (صفوان قدسي) في مقال هام مشكلة « غياب الفكر القومي » (ص ١٨١) . وتلك هي المهمة الاساسية الملقاة الآن على عاتق المفكرين العرب .

---

(١) صدقي اسماعيل ، العرب وتجربة المأساة ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ١١١ .

نظـرة
جديدة
علـى

فكرة صهيون

خلدون الشمعة

Zion Reconsidered,
Jacob J. Petuchowski,
Twayne Publishers, Inc,
New York

يشغل الدكتور (جيكوب بيتوشوسكي) منصب استاذ اللاهوت اليهودي في كلية « الاتحاد اليهودي » بسينسناتي بالولايات المتحدة . ومن أبرز مؤلفاته التي سنتعرض لها كتابه الصادر قبل سنوات والذي يعتبر بمثابة إعادة نظر في فكر الصهيونية : « نظرة جديدة على فكرة صهيون » .

والواقع ان الكتاب يسعى فعلا إلى تشكيل وجهة نظر جديدة أو ربما إعادة نظر للمسألة اليهودية برمتها . ولهذا السبب بالذات ، فقد وضع المؤلف على غلاف الكتاب الملاحظة التالية :

« هذا التحليل الفكري لمسألة خلافية وتحتمل المجادلة ، يستحق الانصات الموضوعي والمجرد عن العاطفة، ولأن هذا النوع من الكتب هو في أغلب الأحوال ، ضحية لمؤامرات الصمت أو لمواقف الانحياز ، فقد عمدنا إلى ارسال عدد من نسخ الكتاب ، قبيل ظهوره في المكتبات ، الى اولئك الذين نعلم انهم سيقدرونه من منظور المقاصد التي يسعى الى تحقيقها . . »

ويذكر ان مؤلف الكتاب قد ولد في (برلين) بألمانيا في عام (١٩٢٥) ودرس في بريطانيا والولايات المتحدة . وهو يحمل درجة في (علم النفس) .

وعلاوة على كتبه التي ألفها في المسائل اليهودية والصهيونية ، فقد أسهم في (الموسوعة البريطانية) ، وله ماينوف على مائة دراسة .

غزو المجتمعات القائمة

يحاول المؤلف في هذا الكتاب إلقاء نظرة جديدة على الأسس الكلاسيكية للعقيدة الصهيونية ، أو ماسمي بـ « القومية اليهودية» من منظور الواقع الراهن للحياة الثقافية والدينية في « اسرائيل » حالياً ، ومن منظور التقاليد الدينية اليهودية . وهو يضع على المحك مفاهيم شائعة في الكتابات اليهودية والصهيونية حالياً ، كمفهوم « المنفى » و « الغفران » و « المقر الروحي » و « الثقافة اليهودية » و « جمع الشتات » ، كما ينظر بكثير من الريبة والانتقاد الى الطريقة التي تستخدم الصهيونية بها هذه المفاهيم ، وذلك في محاولة منها لـ « غزو المجتمعات القائمة » على حد تعبير المؤلف .

ويسعى المؤلف أيضاً إلى تقديم جملة من البراهين التي تثبت انه لا يحق لا للمواطن القاطن في (اسرائيل) ولا للمواطن الامريكي الذي يدين باليهودية ، الادعاء بأنه الوريث الشرعي للتراث اليهودي عبر التاريخ .

كما يعارض المؤلف سلسلة من الحاجات المستمدة من التاريخ واللاهوت وعلم النفس والمنطق ، الدعوى الصهيونية القائلة أن الهجرة الى (اسرائيل) هي بمثابة (وثيقة تأمين على الحياة ضد النزعة المناهضة للسامية) .

ولا يقتصر المؤلف على تفنيد هذه الدعوى ، وإنما يحاول أيضاً تفنيد دعوى أخرى لا تقل عنها خطراً ، وهي اعتبار (اسرائيل) المركز الروحي لليهود في العالم.

وعلى الرغم من أن المؤلف لا ينظر بتشاؤم الى نتيجة المحاولات التي تستهدف تحقيق الحلم الصهيوني بجعل (اسرائيل) مركزاً روحيا لليهود .. الا أنه يقدم براهين مستقاة من التاريخ اليهودي القديم ، ليثبت أن (اليهودية) ليست بحاجة الى مركز روحي واحد . وهو بذلك يقف ظاهرياً ، موقفا مناهضاً لفكرة الوطن القومي لليهود.

مصطلح اليهود

ولعل أخطر فصول الكتاب ، الفصل الذي يحاول فيه المؤلف أن يبلور تعريفاً جامعاً مانعاً لمصطلح (اليهودي) ، من منظور الحقائق المتعلقة بتمثله من قبل المجتمعات التي يقيم بين ظهرانيها .

وقد أدرك المؤلف اتساع الهوة المتزايد بين اليهود في (اسرائيل) واليهود الأمريكيين . وهو لذلك يعير انتباهاً خاصاً لما يسمى بـ « رسالة اسرائيل » ! . (وهي فكرة ذات جذور دينية ..) آملا في أن يسهم في ايجاد صيغة مشتركة بين اليهود (الاسرائيليين) واليهود (الامريكيين) ، من أجل مصلحة الطرفين ! .. ويعلل المؤلف اهتمامه باليهود في (اسرائيل) ، ذلك الاهتمام الذي يتناقض ودعاواه العريضة بمناهضته الاساسية لفكرة الوطن القومي اليهودي ، بأنه إنما ينظر الى (الاسرائيليين باعتبارهم يهوداً . الا أنه يفعل ذلك في الوقت الذي يخفق في بلورة تعريف مقنع لمصطلح « اليهودي » .

ان المؤلف لا يفرد لمشكلة تعريف اليهودي فصلاً كاملاً وحسب وانما هو يتطرق الى أزمة استخدام هذا المصطلح في أكثر من موضع في الكتاب . ومنذ الفصل الاول من (نظرته الجديدة على فكرة صهيون) يعلن قائلاً :

« لقد حلت اسرائيل عدداً غير محدود من المشكلات ، سواء ما يتعلق منها بالزراعة ، أو البناء والعمران ، أو الستراتيجية و (الدفاع) ، أو العلم والصناعة. الاأنها مع ذلك لم تستطع أن تجد الحل (للمشكلة اليهودية) ... كما وكزت اسرائيل الاوضاع على مسألة مطروحة منذ عصر النهضة اليهودي في الغرب ، ومنذ اجتياح أفكار العلمانية والعلمنة اليهودي الشرقي . وقد أدى هذا الى تعرض احدى الحكومات

(الاسرائيلية) للسقوط . ومع ذلك فان السؤال الذي ظل حائراً دون جواب .. هو السؤال الذي لا جواب له والذي يعتبر السؤال الأساسي في (الدولة اليهودية) :

ـ من هو اليهودي . ؟ .. »

البحث عن الهوية

أجل من هو اليهودي . ؟ ...

يبدو المؤلف وكأنه يبحث عن ابرة في كوم من القش . انه يتحدث عن مفهوم (اليهودي) وكأنه قائم في الواقع ولا يحتاج الا الى تحديده بصيغة جامعة مانعة كما يقول المناطقة . الا أنه عندما يشعر بالعجز ، سرعان ما ينتقل الى لغة أخرى خاضعة لما يسميه علماء النفس بـ (التفكير الرغبي) Wishful Thinking أي معاملة مايشتهي المرء أن يكون واقعاً على أساس انه واقع فعلا .

ومع ذلك فكثيراً ما يفصح المؤلف عن خيبة أمله في أن تكون (اسرائيل) قد حلت شيئاً من مشكلة (اليهودي) ببعدها القومي (على حد تعبير الكتاب) ..

ان المؤلف لا يتردد في التأكيد على وجود بعد قومي لمفهوم (اليهودي) . الا أنه لا يستطيع تجاهل طرفة يرددها اليهود في (اسرائيل) كلما شعروا بالخيبة تجاه اخفاق المحاولات الرامية لبلورة مفهوم قومي للدين اليهودي . يقول (جيكوب بيتشاوسكي) :

(في هنغاريا يشيرون الى اليهودي قائلين : هذا يهودي .

وفي بولندا يشيرون الى اليهودي قائلين ، هذا يهودي .

وفي رومانيا يشيرون الى اليهودي قائلين : هذا يهودي .

ولكن عندما يهاجر هؤلاء اليهود الثلاثة الى (اسرائيل) ، فان الاول سيشار اليه على انه هنغاري ، وسيشار الى الثاني على أنه بولندي ، وسيشار الى الثالث على انه روماني ..) .

وهكذا فان المشكلة القومية تبدأ في (اسرائيل) .. ولا تنتهي بها. ان(المركز الروحي) الصهيونية هو الذي يبرز خرافة البعد القومي للديانة اليهودية . ان تجمع اليهود في مكان واحد هو الذي يؤكد على مسألة التباين بين القوميات المتعددة التي

ينتمون اليها . أما التشتت فهو الذي يجعلهم يشعرون بذلك الشعور الزائف بأنهم انما ينتمون الى قومية واحدة ... التشتت هو الذي يجعلهم يخلطون بين الدين والقوميـــة .

ومن هنا فان المؤلف يلح باستمرار على ان (المسألة الصهيونيـــة) هي مسألة (صيرورة) قبل ان تكون مسألة (وجود) . اي ان الدعاوى التاريخيـــة للصهيونية لا تصمد للمناقشة العلمية بأي حال . ولذلك فان ما ليس بقائم يمكن ان تحوله الصيرورة التاريخية المدعمة بحراب الامر الواقع الى واقع مستمر .

فتنقلب عبارة (حق القوة) مع مرور الزمن الى عبارة (قوة الحق) .

خطر غياب اللاسامية

هذا عن اليهودي في (اسرائيل) . فمـاذا عن اليهودي في (امريكا) حيث اخفقت معظم المحاولات الرامية لتشجيعه على الهجرة الى فلسطين ؟

لقد استخدم الصهاينة الاوائل واللاحقون حجة النزعة المناهضة للسامية من أجل حث اليهود على الهجرة . الا أن غياب هذه النزعة في أمريكا قد أثار هلع القادةالصهاينة ازاء خطر ذوبان اليهودي في المجتمع الامريكي .

ويورد المؤلف رأياً لبن غوريون في هـذا الخصوص ، ومفـاده ان الاختفاء التدريجي لنزعة (اللاسامية) في الولايات المتحدة يجب ان يكون أسـاساً من الأسس الرئيسية التي يتعين على الصهاينـــة التذرع بها لحث اليهود الامريكيين على الهجرة الى (اسرائيل). ان (بن غوريون) يسلم بأن اليهودي الامريكي لايواجه اي خطر جسدي ولكن ذلك بالضبط هو مـا يدعو الى الخوف مـن ان (يعشق اليهودي الامريكي حتى الموت) . فالذوبان في المحيط الامريكي سهل جداً والاحصاءات تشير الى ان الطوائف اليهودية تتلاشى تدريجياً عن طريق الزواج من الطوائف الدينية الاخرى . وهكذا فان هناك اتجاهاً بارزاً في الحركة الصهيونية يؤكد على ان الهجرة الى (اسرائيـل) هي الكفيلة بحفظ اليهودي الامريكي من (خطر الذوبان في محيط الاغلبية) .

وبعد ان يستعرض المؤلف مـسألة الهجرة من كافة جوانبها ، يشير بوضوح الى خطر القطيعة بين اليهود المنتشرين في العالم ، واليهود في (اسرائيل) . فحتى لو أراد اليهود بمجموعهم الهجرة الى فلسطين فان ذلك يكون متعذراً لاسباب جغرافية وعددية وسكانية .

ما العمل اذن .؟.. هذا هو السؤال الرئيسي الذي يطرحه الكتاب .. انه ينطلق في بحثه من منطلقات يغلب عليها المنطق اللاهوتي . ويتنامى في صفحات الكتاب التي تنوف على المائة وخمسين صفحة حتى مجرد الاشارة الى عرب فلسطين .

الا أنه يقر — مع ذلك — بوجود عقبات أساسية تحول دون تحويل فكرة (صهيون) من فكرة تجمع روحي غامض الى فكرة قومية متجسدة بأرض وقومية . ولما كان المؤلف عاجزاً عن تحديد مفهوم (اليهودي) فان عجزه لا يلبث ان ينسحب على مفهومات اخرى كـ (الاسرائيلي) و (الصهيوني) . وبالتالي فانه يعبر ابلغ تعبير عن أزمة بلورة الهوية التي يعاني منها الفكر الصهيوني في محاولته تلفيق قومية تقف نداً للفكرة القومية العربية .

كما يعترف المؤلف في الفصل الأخير من الكتاب ، ان اليهود ليسوا أمة . وهذا ربما كان نتيجة لاخفاقه في تحديد مفهوم (اليهودي) . يقول :

« إن اليهود ليسوا بأمة أيضاً ، بالمعنى الذي توجد فيه أمم كالفرنسيين والبريطانيين . ليس ثمة أرض يهودية مشتركة بين اليهود . وليس ثمة حكومة يدين لها جميع اليهود بالولاء .. او حتى لغة قومية مشتركة بين جميع اليهود » .

صنع الامة

غير ان المؤلف يريد بذلك الاعتراف ، الانتقال الى مرحلة خطيرة من هذه المسألة تتصل بكيفية تحويل اليهود المعاصرين الى الاسرائيليين . وبعبارة اخرى فانه يريد الحديث عن صنع الامة مادامت الامة غير موجودة . ذلك ان مقولات : «العرق ، والامة ، والدين» — على حد تعبير المؤلف — اصبحت :

« عديمة الجدوى كلياً عندما يتعلق الامر بتعريف اليهودي . فقد اقترح البعض — وقد أصابه اليأس من محاولة التعريف — أن يكون اليهود جماعة « ثقافية » .. » .

ولكن المؤلف يفند في معظم فصول الكتاب الفكرة القائلة بأن اليهود يشكلون جماعة ثقافية . وهذا التفنيد يستخدم من قبله ذريعة للعودة الى اتباع المنهج التبشيري . فكما ان غياب وجود امة يهودية يراه الكاتب حافزاً من الحوافز التي ينبغي ان تعتبر منطلقاً لانشاء مثل هذه الامة ، فان عدم تشكيل اليهود للجماعة الثقافية الواحدة والمتجانسة ، هو في حد ذاته الدافع الذي يتعين على اليهودي ان يستغله من اجل بلورة الاساس الثقافي اليهودي المشترك . يقول « بيتوشوسكي » :

« إن احد اشد المشكلات الحاحاً بالنسبة لدولة اسرائيل هو خلق ثقافة متجانسة لسكانها . ذلك ان ثقافة كهذه ليست موجودة بعد . ان الثقافات المتنوعة التي جاء بها اليهود الى دولة اسرائيل ، هي أقرب الى تكريس انقسام السكان منها الى توحيدهم . »

الإيقاع التبشيري

ذلكم هو الايقاع التبشيري الذي يتحكم بالكتاب . فالمؤلف يعترف بأن مقومات الوجود القومي الصهيوني معدومة . إلا انه لايتردد بالتبشير بضرورة خلق هذه المقومات أو حتى اختلاقها . فاذا لم يكن بالامكان صنع الامة فلا يوجد ما يمنع من اصطناع الامة، وإذا كانت مقومات الوجود القومي الصهيوني غائبة كما سبق وان اوضح الكاتب فانه سرعان ما يتراجع عن هذا التقييم ، فيفترض افتراضاً عجيباً مفاده ان اليهود ربما كانوا يتعمدون تغييب مقومات وجود قومي صهيوني له وجود فعلي قائم . يقول :

« ربما كان اليهود يحاولون ببساطة تجنب كل محاولة لتحديد معنى مصطلح اليهودي » .

ولكنه لايلبث أن يطلق على المصطلح صفة « الظاهرة » :

« ربما لا يوجد تعريف جاهز يمكن أن يكون معادلاً تجاه هذه الظاهرة . فكتاب التوراة يبدون متأثرين بذلك . منهم يستخدمون كلمة Ehad العبرية ومعناها « المتفرد » في وصف إله اسرائيل كما يستخدمونها في وصف شعب اسرائيل ..».

ويستنتج « بيتوشوسكي » من ذلك انه :

« كما ان إله اسرائيل يتعذر تصنيفه بالنسبة لآلهة الوثنيين ، فان اسرائيل يتعذر تصنيفها بالنسبة للأمم الأخرى » .

الأسلوب اللاهوتي

وهكذا يحاول المؤلف ان يسبغ صفة « التفرد » على اسرائيل فيكون التفرد بذلك معادلاً لفقدان خصائص الوجود القومي الصهيوني الذي سبق أن اكده في مواضع كثيرة من الكتاب . ولكن هذا التناقض الذي يمكن تقريه على مدى الكتاب بأ كمله تقريباً ، إنما يغطي مغالطة بالغة الخطورة ، فالمؤلف يتجاهل باستمرار ان الصهيوني المعاصر ليس نفسه وريث اليهودي الذي سبق ان ظهر على مسرح الاحداث عدداً محدوداً

من السنين . فاذا ما كانت المقومات التكوينية سواء من حيث العرق أو الجنس أو الثقافة غير قائمة لدى اليهود كجماعة او كتلة او كطائفة او كأمة متجانسة ، فما هو الاساس الضابط الذي تعتمده الصهيونية في دعاواها الايديولوجية ؟..

إن المؤلف لا يفتأ في محاجّته المتصلة بهذا الموضوع يعتمد اسلوباً يستمد تماسكه من المنطق اللاهوتي اليهودي ... فاذا باسرائيل التي لا تمتلك خصائص الامة أو الجماعة تصبح « أسرة » يستعمل المؤلف لوصفها عبارة (يهوذا هاليفي) القائلة بأن اسرائيل هي « قلب الامم » . وقد حدا ذلك بلاهوتيي القرن التاسع عشر اليهود — على حد قول المؤلف — إلى ادخال فكرة « رسالة اسرائيل » في صياغتهم لجوهر اليهودية .

وهكذا ينتقل المؤلف البحث من المستوى الديني و الاسطوري والتاريخي ، الى المستوى العقائدي . فثمة « رسالة » وثمة « إلزام » طبيعته ميتافيزيقية تظل الشروح التي يقدمها المؤلف له غامضة ، مبهمة تحتاج بدورها إلى شروح . وقد ذكرني بقول الشاعر (بايرون) معلقاً على محاولة الشاعر (كولردج) شرح الميتافيزيقا :

[Explaining Metaphysics to the nation
I wish he would explain his Explanation]

« يشرح الميتافيزيقا للشعب .. لكم أتمنى ان يشرح شرحه » .

منهج غير معلل

إن هذا الغموض في الكتاب يتكاثف مع كل نقلة جديدة يقوم بها المؤلف ، وهو غموض لا يعود إلى لغة الكتاب وانما هو ناتج عن التزامه بمنهج غير معلل حيناً وغير منسق في أحيان أخرى . انه — على سبيل المثال — لا يعترض على وجود (اسرائيل) بل ويدعو إلى تدعيم هذا الوجود مهما بدا من تردده في الظاهر . الا انه في الوقت نفسه يقف موقفاً غير حاسم من مسألة هامة تتصل بالفكرة الصهيونية ، وهي مسألة تمثل المجتمعات اليهود الذين يعيشون بين ظهرانيها . يقول :

« ان التمثل كلمة سيئة في أبجدية الصهيونية » . التمثل خطر ، التمثل تهديد . إن خطر التمثل هو الذي ينبغي أن يرغم يهود أمريكا على التماس المأوى في دولة اسرائيل — اذا ما كان الخطر الآخر ، خطر النزعة المعادية للسامية ، لا يمكن الاعتماد عليه في تنفيذ هذه المهمة .

ولكن ما هو التمثل ؟...

« الواقع انه يوجد – كما هو معروف منذ زمن طويل – نوعان من التمثل : التمثل الايجابي والتمثل السلبي . اذا التهم الاسد الحمل فان الحمل الذي يغذي لحم الاسد وعظمه والذي يكف عن الوجود كوجود (حملي) منفصل ، يصبح متمثلا في الاسد. ذلك هو التمثل السلبي . ومع هذا فان الاسد عندما يلتهم الحمل يكون منهمكا في عملية تمثل . انه يتمثل المادة المغذية لدى الحمل في عضويته الاسدية الخاصة به . والحق انه يفعل ذلك للحفاظ على اسديته . وذلك هو النوع الايجابي من التمثل . ومن الجلي ان النوع « السيء » من التمثل – اذا جاز استخدام احكام القيمة هنا – هو التمثل السلبي . وبالنسبة للنوع الايجابي من التمثل ، فليس ثمة حياة على الارض دونه ، هذا ليس صحيحاً من الناحية البيولوجية فقط وانما ينطبق الامر ايضاً وبنفس القوة على الحياة الثقافية والروحية . »

التمثل السلبي والايجابي

ويضرب المؤلف على التمثل الايجابي مثالا في تمثل اليهود الرعاة للحياة الزراعية المستقرة لدى الكنعانيين .

الا انه يتناسى ان تمثل المجتمع الامريكي لليهود هو نوع من انواع التمثل الايجابي بل انه يرى فيه خطراً يساعد الصهيونية على تشجيع الهجرة الى اسرائيل بعد ان ضعف سلاح مناهضة السامية الذي ترفعه الصهيونية في امريكا لهذا الغرض .

وهكذا فان التمثل يكون جيداً في موضع ورديئاً في موضع آخر . ومصطلح (التمثل) كمعظم المصطلحات التي تتردد في الكتاب إنما يستمد معناه من أهواء الكاتب وأغراضه وبالتالي فان القارىء لابد أن يكتشف أن النزعة الغالبة عليه هي الاضطراب في استخدام المصطلح . هذا على الرغم من ان المؤلف لايدخر وسعاً في اقناع القارىء بمدى اتساع أفقه وقدرته على المناورة الحرة فوق أرضية شاسعة من القدرة على الجدل . ولكن غرض المؤلف يظل مكشوفاً ، إنه لايعاود النظر إلى الفكرة الصهيونية لأنها قد أصبحت فكرة مهترئة لا تستطيع أن تصمد للامتحان العملي فحسب ، وإنما هو يستعيدها في ضوء معطيات التشكيلات القومية المعاصرة . فما دامت القومية الصهيونية لما تخلق بعد فليس ثمة مايمنع اليهودي المعاصر من اختلاقها . !! بيد ان المؤلف يرى أن شكل

« الأسرة » أو مايطلق عليه هذا الاسم هو الشكل الذي يصلح أكثر من سواه . ولايمكن للأسرة أن تمثل دور الاطار القومي الصهيوني إلا إذا احترم كل يهودي أو (أبناء إبراهيم على حد تعبير المؤلف) حق كل منهم في العمل حيث يشاء ، وإحراز النجاح حيث يشاء) .

وهذا هو الخلاص الحقيقي الذي يراه المؤلف حلاً لمشكلة إسرائيل . إنه يجزع بسبب الهجرة اليهودية الى اسرائيل وبسبب احتمالات الهجرة اليهودية إليها من القارة الأمريكية، باعتبار ان ذلك قد يحرم (اسرائيل) من دعم اليهود الأمريكيين . ويرى ان شكل الأسرة اليهودية الواحدة قمين بالازدهار في جو من الحرية يسمح لاسرائيل بأن تصبح جزءاً من هذا التركيب الخيالي .

إن التفكير الأسطوري يصبح بهذا الاعتبار أساساً من أسس الايديولوجيا الصهيونية المعاصرة . فالمؤلف لايتوسل إلى اليهود بالمنطق وإنما يصطنع حلولاً خيالية يقرر بعد أن يستنفد قدراته على المناورة انها تشكل حلولاً نهائية لمشكلة اليهودي الذي يصوره وكأنه يعيش في فراغ بشري لايصطدم فيه بالعربي إلا لماماً . ويستطرد المؤلف في أسطوريته فيحذف الوجود العربي من فلسطين ولايدخله في حساباته إطلاقاً . وهكذا فهو لايفتأ يشيد قصوراً شاهقة في الهواء .

الموضوعية المزيفة

دراسة لكتاب آموس ايلون:

«الإسرائيليون مؤسسون وأبناء»

الدكتور منير صلاحي الأصبحي

في عام ١٩٧١ نشر في الولايات المتحدة كتاب « الاسرائيليون : مؤسسون وأبناء » للكاتب الاسرائيلي آموس ايلون (١) ، وقد تصدت الصحف الامريكية بمختلف أنواعها لاطراء المديح لهذا الكاتب ولكتابه . فجريدة « نيويورك تايمز » مثلاً وصفت

(١) Amos Elon, The Israelis: Founders and Sons , Bantm] Books, 1972. وتشير ارقام الصفحات الواردة في هذا المقال الى هذه الطبعة .

الكتاب بأنه ثاقب ومتعمق وقالت : « هذا الكتاب هو شعلة » . وقالت مجلة «نيوزويك» ان الكتاب هو «أكثر تقييم ظهر حتى الآن للوضع اليهودي المعاصر اثارة واتزاناً وأمانة». أما مجلة « تايم» فقد أيدت وصف آلون للكتاب بأنه « أول تحليل نقدي لاسرائيل كتب من الداخل » .

ليس من الغريب ان تكيل الصحافة الامريكية المديح لكاتب اسرائيلي ، ولكن ما يمتاز به هذا الكتاب عن غيره هو انه تلقى المديح ايضاً من بعض الصحف والمجلات العربية أو المؤيدة للموقف العربي . فجريدة « العمل » Action – التي تصدر عن جمعية عربية في نيويورك – و « مجلة الشرق الاوسط الدولية - Middle East International - التي تصدر في لندن وتؤيد القضية العربية - كتبتا تقييمين للكتاب وكان التقييم ايجابياً في الحالتين . وكذلك كتب اورنس موشر في « مجلة الدراسات الفلسطينية Journal of Palestine Studies – التي تصدرها مؤسسة الدراسات الفلسطينية بالاشتراك مع جامعة الكويت – قائلة ان ايلون « يعرض التناقضات الاسرائيلية بصدق وتعاطف » . ويضيف موشر قائلاً : « ان ما يميز هذا الكتاب عن كتب كثيرة من نوعه هو قدرة المؤلف على تحاشي الجدل . ان المهمة التي يفرضها ايلون على نفسه هي الاثارة وليس الاستجداء . . . » ويتحاشى موشر في حديثه عن موضوعية الكتاب توجيه أي انتقاد له .

ان مثل هذا التعليق في مجلة في مستوى « مجلة الدراسات الفلسطينية » أو المديح في الصحف العربية أو المناصرة للموقف العربي يسترعي الانتباه . ولا بد أن يستنتج قارىء هذه التعليقات أن كتاب ايلون هو كتاب موضوعي يتحاشى التحيز الأعمى للصهيونية . وقد تزيد قناعة القارىء بهذا الاستنتاج اذا ما قرأ بعض المقاطع التي تقتبس عادة من كتاب ايلون في مثل هذه التعليقات. والمقطع التالي مثال على ذلك :

> ان العرب لم يحملوا اية مسؤولية لمعاناة اليهود في أوروبا التي استمرت قروناً طويلة ، ولكن في النهاية كان العرب هم الذين عوقبوا بسبب تلك المعاناة . وان الثمن الذي دفع كان باهظاً ، ومن المستحيل تقييم هذا الثمن من حيث المقاساة والمرارة الانسانية (ص ٢٩) (١) .

---

(١) لقد استشهدت أنا أيضاً بهذا المقطع في مقال « الصهيونية والتبريرات الاخلاقية في الخروج وروايات أخرى » الذي نشر في « المعرفة » ، العدد ١٥٠ (آب ١٩٧٤) ، ص ٥٣ – ٧٢ .

ولكن اعتقادي هو ان مثل هذا الاستنتاج من قبل القارىء هو استنتاج خاطىء وان التعليقات المشار اليها أعلاه هي – بغض النظر عن نيتها – مضللة . فمن الصحيح أن كتاب إيلون هو الى حد ما اكثر اعتدالاً وصراحة من معظم الكتب الموجهة الى قراء غير اسرائيليين والمكتوبة بأقلام اسرائيلية أو صهيونية ، ولكنه يبقى بعيداً تماماً عن أن يكون تحليلاً موضوعياً للصراع العربي – الصهيوني في حاضره أو في ماضيه .

يتألف كتاب ايلون من جزئين مقسمين الى اثني عشر فصـلاً . والقسم الاول (المؤسسون) مؤلف من سبعة فصول وهو عرض تحليلي لتطور الصهيونية في الماضي (قبل ١٩٤٨) . أما القسم الثاني (الابناء) فهو عرض وتحليل لجوانب متعددة لدولة اسرائيل . وأهم الجوانب التي يتناولها الكاتب في عرضه – على الاقل بالنسبة لنا – هو الصراع العربي – الصهيوني . ويخاطب الكتاب بشكل صريح القراء الامريكيين .

باستثناء الفصل الأول – الذي هو استعراض للوضـع في اسرائيل بعد حرب حزيران ١٩٦٧ – فان ايلون لا يتعرض في القسم الاول من الكتاب للصراع العربي – الصهيوني حتى الفصل السابع (وهو بعنوان « أبرياء في الوطن ») الذي يكرسه لبحث بدء وتطورات هذا الصراع .

يبدأ ايلون هذا الفصل بالقول بأن المستوطنين اليهود الاول (أو « الرواد » كما يسميهم) لم يدركوا خلال العشرين او الثلاثين سـنة الأولى من استيطانهم ان العرب سيكونون مصدراً للنزاع والصراع معهم ، ويضيف قائلاً ان هؤلاء المستوطنين لم يعتبروا فلسطين خالية من السكان – كما اعتبرها الصهاينة في الخارج – ولكنهم وجدوا ان كثافة السكان كانت قليلة ، ولم يجدوا من الناحية السياسـية اية منافسة من العرب ، فالقومية العربية قبل عام ١٩٠٨ لم تكن – حسبما يقول المؤلف – قد تبلورت بعد . وظن هؤلاء المستوطنون ان المنافسة السياسية الوحيدة لم يكن ان تصدر عن القوى الاوروبيـة الاستعمارية . ويذكر ايلون ان هرتزل لم يذكر كلمة واحدة عن الفلسطينيين العرب في تقريره عن زيارته لفلسطين عام ١٨٩٨ وفي مذكراته الخاصة . ويحكي ايضاً كيف قام البعض « باكتشاف » وجود العرب في فلسطين . وكيف كان هـذا الاكتشاف صدمة لبعض هذا البعض .

ويضيف قائلاً ان معظم « أنبياء الصهيونية في القرن التاسع عشر » بما فيهم هس وليلنبلم وبنسكر وهرتزل تجاهلوا وجود العرب أو أن الاستيطان اليهودي سيكون

مصدر خير للعرب وبالتالي اعتبروا انه من الممكن لهؤلاء العرب أن يعتنقوا الصهيونية. ورغم أن السكان العرب « قاموا ببعض أعمال العنف » ضد المستوطنين الاوائل فان هذه الاعمال لم تؤد إلى أي تغيير جوهري في تفكير هؤلاء بالنسبة للوجود العربي في فلسطين .

ويقول ايلون ان هناك تناقضاً يدعو الى الحيرة الشديدة في هذه النظرة ، وهو أن « الصهاينة كانوا يعملون بدأب وبتضحيات بشرية كبيرة لبعث قومي واجتماعي في وطنهم القديم ، ولكنهم تعاموا عن امكانية وجود آمال مماثلة لدى عرب فلسطين » (ص ١٩٩). ولكن رغم ذلك فان الحركة القومية العربية كانت آخذة في التطور في نفس الوقت الذي كانت تتطور فيه « القومية اليهودية » وبشكل مماثل حسب قول ايلون ، الذي يحكي أيضاً كيف « اكتشف » بن غوريون وجود القومية العربية ، ولكنه « بقي صامتاً بشكل يدعو للاستغراب » بالنسبة لاكتشافه هذا ، واستمر في اعتبار أن العرب غير موجودين سياسياً في فلسطين . ويقول آلون إنه لم تكن لدى بن غوريون أية نية في حرمان أي عربي فلسطيني أياً كان من حقوقه كفرد ، ولكنه لم يحفل بالحقوق القومية والسياسية للفلسطينيين كشعب (ص ٢٠٣ – ٢٠٤) . وهكذا – يقول آلون – لم يخطر بأي شكل لهؤلاء الصهاينة ان العرب سيعارضون استيطانهم في فلسطين ، وكانوا اذا واجهتهم اية معارضة عربية يفسرونها انها معارضة صادرة عن « الاقطاعيين الرجعيين » الذين كانوا يبغون من وراء التحريض على العداء للصهيونية ان يهدئوا من سخط الشعب على حكمهم الفاسد ، اما جماهير الشعب الفلسطيني فقد اعتقد الصهاينة بأنها ستلحظ الخير الذي سيعمها نتيجة للاستيطان اليهودي وانها ستحالف الحركة الصهيونية . ويضيف ايلون قائلا عن هؤلاء الصهاينة الاوائل :

اننا نعرف ما فيه الكفاية عن اعمالهم السابقة وعن مبادئهم ومعتقداتهم لنقول بشيء من الجزم انهم لو عرفوا كما نعرف نحن اليوم ان ثمن اعادة تثبيت اليهود في فلسطين سيكون حرمان العرب من وطنهم فانه كان من المحتمل ان يعيدوا النظر في مخططاتهم او حتى ان ينسحبوا من الحلبة في وقت مناسب . (ص ٢٠٧)

ويذكر ايلون انه كانت هناك اصوات تنبه اليهود الى الصراع المحتم مع العرب ولكنهم لم يسمعوا هذه الاصوات او اذا سمعوها فانهم لم يعيروها الكثير من الاهتمام .

ان قصر النظر هذا – حسب قول ايلون – كان شائعاً في القرن التاسع عشر خاصة بين الماركسيين والاشتراكيين ، وهو يستشهد بتأييد ماركس للاستعمار الاوربي

« كخطوة ضرورية لانتصار الاشتراكية في كل مكان ، وبتأييد انجلز للاستعمار الفرنسي للجزائر كخطوة هامة في التقدم الحضاري .

ويشير ايلون من جديد الى الغرابة في قصر النظر هذا من جانب الصهاينة . فهو يقول أن هرتزل كان يتميز بادراك للامور في الشرق الأوسط أكثر وضوحاً من الكثيرين، وأنه دهش دهشة كبيرة أثناء زيارة له للقاهرة من عمى البريطانيين الذي منعهم من رؤية القوة المتزايدة للحركة القومية في مصر ، مما دعاه لدى رؤيته لمجموعة من المثقفين المصريين الى القول : « سيكون هؤلاء أسياد المستقبل ، وانه لمن العجيب ألا يستطيع الانكليز رؤية ذلك . فهم يعتقدون أنهم سيتعاملون مع الفلاحين الى الأبد . » ويعلق ايلون قائلاً أنه « من العجيب أن هرتزل لم يستطع رؤية أن تعامل الصهاينة أيضاً لن يكون مع الفلاحين الفلسطينيين الى الابد » (ص ٢٠٨) . ويعجب ايلون من «سذاجة» و « براءة » تفكير الصهاينة الأول بالنسبة للعرب اللتين سمحتا لهم بالاعتقاد بأنه من الممكن التوصل بوسائل سلمية الى تسوية وتعايش مع العرب .

ويعزي ايلون قصر النظر الصهيوني الى ميل اليهود لتعميم تجاربهم المحدودة مع العرب واعطائها صبغة الشمول . ويعطي مثالاً على ذلك أن زوجة بن زفاي ــ الذي أصبح فيما بعد رئيساً للدولة ــ قابلت تجاراً شاباً عربياً أخبرها أنه يتمنى الرحيل الى أمريكا . وبناء على هذه الملاحظة استنتجت عن العرب أن « قلوبهم تميل الى الهجرة [من فلسطين] ، وقلوبنا تميل الى الهجرة [الى فلسطين] » (ص ٢١٢) . ويضيف ايلون « أن الرواد » اليهود كانوا يعيشون في عالم يكاد يكون معزولاً تماماً عن العالم الخارجي ، على الأقل في بداية وجودهم في فلسطين ، فمنذ وصول اليهودي الى ميناء يافا حتى التحاقه باحدى المستعمرات أو المزارع اليهودية لم يكن يتعرض لأي احتكاك مع العرب اذ ان جميع اتصالاته كانت مقتصرة على اليهود .

ورغم أن العرب اتخذوا مواقف معينة من الهجرة اليهودية — من المطالبة بوقف هذه الهجرة الى دعوة اليهود الى التعايش والتعاون — فان هذه المواقف لم تؤثر على نظرة الصهاينة ، فلقد آثر هؤلاء تفسير المواقف المختلفة تفسيراً يتفق مع نظرتهم وأهدافهم ، فاستنتجوا أن العرب لن يقوموا بأية معارضة جدية لأهداف الصهيونية . وحتى في عام ١٩٠٨ قامت مظاهرات معادية للصهيونية في يافا ، وفي نفس العام نشرت الصحف العربية عدداً من المقالات التي تهاجم الصهيونية . ورغم

أن انفجار ظواهر العداء في عام ١٩٠٨ كان يسترعي النظر باعتباره العام الذي تمتع به العرب بشيء من الحرية كنتيجة لتقلد حزب « تركيا الفتاة » زمام الحكم في الدولة العثمانية ، فان القادة الصهيونيين فسروها على أنها قامت بدافع مماثل للحملات ضد اليهود في روسيا وعجزوا عن تصور أى سبب آخر لهذه الظواهر ، كما انهم اعتقدوا أن مهاجمة الصهيونية كانت تأتي من العرب المسيحيين كنتيجة لتأثرهم بحكم دينهم بالعداء الأوربي لليهودية .

ويعطي ايلون مثالا على التفسيرات والنظريات المتعلقة بالعرب نظرة بار بوروتشوف التي كان لها تأثير كبير على أحد الحزبين الصهيونيين الرئيسيين في فلسطين . وقد اعتقد بوروتشوف أنه لم تكن للعرب « أية شخصية اقتصادية وحضارية خاصة بهم » ولذا فلم يكن باستطاعتهم أن يشكلوا أمة ، وبالتالي فانهم لم يتمكنوا من ان يقوموا « بمقاومة منظمة للتأثيرات الخارجية . » وكذلك كتب بورتشوف أن عامة الناس فقط يعتبرون سكان فلسطين الحاليين عرباً او اتراكاً (ففي الواقع ليس هناك شيء يجمع بينهم وبين العرب او الاتراك . . . وليس من سبب يدفعهم لمقابلتنا بالعداء فوراً (ص ٢١٧ — ٢١٩) . وبورتشوف هذا كان احد دعاة الصهيونية الذين لم يقوموا بزيارة فلسطين قط .

ويضيف آلون انه بالاضافة الى نظريات بوروتشوف كانت هناك نظرية أخرى لدى الحزب الصهيوني الآخر هي نظرية آفودا ايفريت (العمل العبري) ، وترتكز هذه الفكرة الى ان النزاعات القومية هي اقتصادية في اسسها وانه اذا قام اليهود بتطوير اقتصاد يهودي مستقل تماماً ومتسم بالاكتفاء الذاتي فان اليهود يكتسبون بذلك من جديد الحق في « موطنهم التاريخي » بواسطة عرق جبينهم ويتجنبون من جهة أخرى أي صراع مع سكان فلسطين الاصليين . ويقول ايلون ان عداء العرب وخاصة في ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ كان السبب في لجوء الصهاينة الى نقل هذه الفكرة الى حيز التطبيق وقيامهم فعلاً ببناء اقتصاد ووجود حضاري مستقلين تماماً عن العرب .

ويعلق ايلون على هذه النظرية بالقول بأن علينا ألا نحكم على مؤسسيها بقسوة تفوق قسوتنا في الحكم على ماركسيي ذلك العصر الآخرين الذين كانوا يعملون بدافع مماثل لالغاء السياسة وسلطة الدولة . ولكنه يشير الى ان ممارسة السياسة التي دعت اليها نظرية العمل العبري هذه أدت الى عكس النتيجة المنتظرة ، فبدلاً من تجنب الصراع مع العرب كانت هذه السياسة سبباً في تعميق هوة الخلاف بين الطرفين . وكذلك يقول آلون : ان

مما يدعو للاستغراب الشديد انه « من الواضح انه لم يخطر بتاتاً » لدعاة هـذه النظرية « انه حسب تعريفهم لحق المكتسب عن طريق العمل ،فان غالبية العرب في البلاد كانوا يبرهنون يومياً على حقهم هم في المطالبة بها » (ص ٢٢٢) . ويتحدث المؤلف ايضاً عن شعور اليهود بأنهم أفضل من الناحية الاخلاقيـة من غيرهم من المستعمرين ويقول ان هناك شيئاًمن الحقيقة في هذا الشعور لأن الهدف من الاستعمار اليهودي لم يكن البحث عن الارباح والثروات المادية وانما « تحقيق هدف جماعي » .

ومع تبلور النزاع بين الطرفين ، بدأت نظرة جـديدة نحو العرب تتكون لدى الصهاينة ، حسب قول ايلون . فالبعض تساءل عن موجب القلق بالنسبة للعرب قائلا أنه لم يقم أحد بطلب موافقة السكان الأصليين إبان استعمار امريكا وأستراليا . وقـام البعض الآخر بالقول بصفاقة « إن العرب ليسوا سوى كمية يمكن اهمالها » . وفي نفس الوقت كان حاييم وايزمن يحاول تهدئـة مخاوف العرب ، « فهو لم يخفق في رؤية تطلعات العرب القومية ، ولكنه افترض انمشاعر العربالقومية ستركز علىبغداد ومكةودمشق» (ص ٢٢٩) . ويعلق آيلون قائلاً إن « المأساة الكبرى لقيـادة وايزمن تمثلت في أن شعبه .. لم يسمح له بتاتاً بأن يسبر سبراً كاملا وسائل التوصل الممكن الى اتفاق » مع العرب (٢٣٠ — ٢٣١) وأن وايزمن نفسه بدأ في ١٩٢٥ يولي اهتمامه الاول لانقاذ اللاجئين اليهود معتقداً أنه « اذا كان السماح لليهود بدخول فلسطين يشكل ظلماً للعرب ، فان عدم السماح لهم بالدخول يشكل ظلماً اكبر لليهود » (ص ٢٣١) .

ويقول ايلون ان « البراءة » التي امتازت بها الصهيونية في مراحلهـا الاولى في موقفها تجاه العرب لقيت نهايتها لدى ظهور هتلر والنازية في المانيا .

اننا نلحظ في هذا العرض لمراحل الاولى من الصراع العربي — الصهيوني أن المؤلف يلقي تساؤلات هامة ويفضح تناقضات معينة في النظرة التي تبنتها الصهيونيـة بالنسبة لسكان فلسطين العرب ، وبهذا يكون ايلون اكثر صراحة في تحليله لهـذه المرحلة مما نجده عادة في الكتابات الصهيونية الموجهة لقراء غير اسرائيليين . وربما كانت هـذه الصراحة هي السبب في اسباغ صفتي الموضوعية والاعتدال على الكاتب والكتاب .

ان ايلون يقول أن المستوطنين الاوائل وقادة الصهيونية الاوائـل اخطأوا في نظرتهم الى العرب ، ولكنه دائماً يلتمس الاعذار لهؤلاء في نظرتهم هذه . وتتلخص هذه الاعذار في نقطتين . الاولى هي انه لم تكن لدى هؤلاء أية « نية سيئة » تجاه العرب .

وأن خطأهم كان نتيجة « لسذاجتهم وبراءتهم » ، والثانية هي أن الخطأ الذي ارتكبوه كان الى حد ما جزءاً من اخطاء شائعة في القرن التاسع عشر وأنه ايضاً خطأ « بشري». ان ايلون يوحي بأن الطبيعة الانسانية تغري الانسان بتفسير الامور تفسيراً يتفق مع مصالحه واهدافه وتدفعه الى تجاهل الدلائل التي لا تؤيد هذا التفسير . ويتابع ايلون تحليله بالقول بأن « حسن نية » الصهيونية استمر حتى ظهور النازية وعندها كان الاضطهاد الذي تعرض له يهود اوربا سبباً في انصباب اهتمام الصهيونية على انقاذ ما يمكن انقاذه وعلى تأمين هجرة اكبر عدد ممكن من يهود اوربا الى فلسطين ، ونجم عن هذا الوضع ضرورة اغفال الصهيونية لمشاعر وحقوق عرب فلسطين. وباختصار فان ايلون يقول ان ما حدث لعرب فلسطين كان امراً فاجعاً ولكن ظروفاً غير متعمدة أدت الى حدوثه .

واذا قبل القارىء الامريكي هذا المنطق فان عليه ان يلاحظ أن نفس الاسس يمكن ان تستعمل لتبرير أية نظرة يتبناها العرب تجاه اسرائيل مهما تطرفت . فمن المؤكد – حتى حسب عرض ايلون نفسه – ان العرب لم تكن لديهم اية سوء نية تجاه اليهود وكذلك فان الطبيعة البشرية والضرورة التي فرضها تشريد عرب فلسطين يمكن أن يستخدما لتبرير اي تطرف عربي . ان العرب ليسوا بحاجة الى مثل هذه التبريرات الطفولية لدعم قضيتهم ، ولكن النقطة هنا ان منطق ايلون يقود الى حلقة جوفاء . ان مشكلة ايلون هي في انه تمكن من رؤية بعض الاخطاء التي وقعت فيها الصهيونية النظرية ولكنه يعجز عن ادانتها بسبب هذه الاخطاء ويعجز ايضاً عن التمييز بين النظرية المعلنة والواقع العملي . وعجزه عن الادانة وعن التمييز (الذي يقود حتماً الى ادانة اشد وضوحاً واكثر عنفاً) يجعله عاجزاً عن الوصول الى اية نتيجة ايجابية . ورغم انه يحاول رؤية الموقف العربي بشيء من الموضوعية وان نجاحه محدوداً من جهة ومن جهة اخرى فان الموضوعية المحدودة التي يستطيع ان يتوصل اليها لا تغير من عجزه عن التوصل الى نتائج مرضية على الاطلاق .

وبالاضافة الى ذلك فان عرض ايلون وتحليله يعتمدان على تفسيرات معينة من جانبه تدعو الى التساؤل . فهو يبني نظريته في حسن نية الصهيونية تجاه العرب في مراحلها الأولى على اختياره لأقوال بعض الصهاينة ولبعض الأحداث وتقديمه لها على أنها تمثل الاتجاه الذي كان سائداً ، بينما يعتبر أقوالاً وأحداثاً اخرى ظواهر فردية

نادرة . وهو أيضاً يفترض صدق هؤلاء الصهاينة مع أنفسهم ومع قرائهم في تسجيلهم لمشاعرهم وأفكارهم. وهكذا نجد أنه يأخذ قول بن غوريون عن اكتشافه للمشاعر القومية العربية كحقيقة تنطبق على الصهيونية بشكل عام ، بينما يعتبر أن النتائج التي توصل اليها مايكل دافيت – وهو زعيم قومي ايرلندي تعاطف مع الصهيونية حسب تعريف ايلون له – في ١٩٠٣ عن حتمية الحرب بين العرب واليهود على انها ظاهرة فردية لم تستطع غالبية الصهاينة التوصل اليها . ويتجاهل ايلون في تحليله بعض الاشياء التي يوردها هو نفسه في كتابه . فهو على سبيل المثال يتجاهل مايورده حين يقول انه كانت هناك فوارق معينة بين المستوطنين وبين أولئك الذين بدأوا يتقلدون الزعامة الصهيونية في فلسطين . « وأحد التباينات الهامة كان الشعور العملي (الذرائعي) المتزايد من جانب بن زفاي وبن غوريون » . ففي عام ١٩٠٩ قام هذان القياديان « بالمساعدة على تنظيم منظمة دفاع سرية » وكان شعور المجتمعين خلال الاجتماع الذي جرى فيه ذلك أن فلسطين لن تصبح لهم بالكلام ولكن « بالدم والنار » (ص ١٥٥) . ومع ذلك يتحدث ايلون عن « حسن نية » بن غوريون والآخرين .

ويقع ايلون في بعض التخبطات والتناقضات الواضحة . فهو يؤكد انه لو اعتقد الصهاينة الأول بأن مصالحهم ستتضارب مع مصالح العرب وأن استيطانهم سيسبب تشريد عرب فلسطين لأعادوا النظر في مخططاتهم ، ومع ذلك فهو يذكر أن صدمة بن يهودا الناجمة عن اكتشافه عام ١٨٨٢ أن فلسطين بلد عربية (وايلون يعتقد أن هذه الصدمة أيضاً كانت ظاهرة فردية) لم تؤد الى تغيير في موقفه السياسي ، وكذلك يذكر المؤلف أن نظرة بن غوريون لم تتعرض لأي تعديل من جراء « اكتشافه » لوجود المشاعر القومية العربية لدى عرب فلسطين . وفيما يقبل ايلون فكرة أن الصهاينة استمروا حتى ١٩٢٥ في الاعتقاد بأن الصدام بينهم وبين العرب ليس ممكن الوقوع ، فانه يذكر بعض مظاهر المقاومة العربية التي جرت حتى في عام ١٩٠٨ . ومن جهة اخرى فان ايلون يعجز في ادراك ان اقامة اقتصاد منعزل لم تؤد بتاتاً الى عدم استغلال اليهود العرب ، فالاستيطان اليهودي منذ مراحله الأولى كان سبباً في تشريد الفلاحين العرب المستمر وفي قطع أرزاقهم . وحين يجد ايلون تبريراً لقصر نظر الصهاينة في قوله أن هذا القصر في النظر كان شائعاً في القرن التاسع عشر بين الماركسيين فانه يعجز من جديد عن أن يدرك أن « قصر النظر » في حالة الصهاينة (اذا قبلنا تفسيره) كان

سبباً مباشراً لنكبة شعب بأكمله ، بينما لم تؤد نظريات ماركس وانجلز بالنسبة لآسيا وافريقيا بشكل مباشر لمثل هذه النتيجة الفاجعة . وربما قام كاتب اسرائيلي آخر في المستقبل بتبرير تفسيرات آلون هذه وعجزه بأنها ناجمان عن « قصر نظر » و « ضعف انساني » ولكنهما متسمان « بحسن النية » .

ويحتوي الكتاب على تعليقات وتحليلات أخرى اذا ما أخذت بمفردها أعطت انطباعاً بأنها أكثر موضوعية من المواقف الاسرائيلية المألوفة . يتحدث الكاتب مثلا عن المقاومة الفلسطينية (دون أن يدعوها بهذا الاسم) فيقول انه لمن السخرية أن الاسرائيليين « الذين كانوا أنفسهم ارهابيين قبل ربع قرن في صراعهم ضد البريطانيين » يصفون المقاتلين الفلسطينيين بأنهم « سفاحون » و « مبتزون فاسدون » (ص٨) . وكذلك فان آلون في الفصل الأول من كتابه يترك الحديث عن « منجزات » اسرائيل لفترة كافية ليقول أن أمل الصهاينة الأوائل في تحويل الحياة اليهودية الى « حياة طبيعية » وذلك عن طريق خلق دولة اسرائيل قد فشل بسبب تأزم الصراع العربي — الاسرائيلي (ص ٣١) . ويذكر أن الصهيونية قد فشلت أيضاً في هدفها لأن تحمي اليهود من التعرض للهجمات وفي منحهم الأمن والاطمئنان (ص ٢٨) .

ولكن هذه التعليقات أيضاً لاتقود الى أية نتيجة ايجابية ولا تحدث تغييراً كبيراً في طابع الكتاب العام لسببين . أولهما أن آلون يحاول هنا أيضاً تمييع أثر هذه التعليقات فاللغة التي يستعملها والسياق الذي ترد فيه هذه الملاحظات تفقدها الكثير من قيمتها الموضوعية . فهو حين يتحدث عن معاناة الشعب العربي الفلسطيني الناجمة عن اقامة دولة اسرائيل فانه يضيف قائلاً : « ومهما كانت حماقات العرب واساءاتهم التي تلت فان معاقبتهم بسبب آثام أوربا هي شيء يجب أن تثقل ضمير الاسرائيليين لزمن طويل في المستقبل (ص ٢٩) . واستعمال كلمتي « حماقات » و « اساءات » هنا يعطي القارىء الأمريكي انطباعاً بأنه بالرغم من الظلم الذي أحاق بعرب فلسطين فان مسؤولية استمرار الصراع تقع على عاتق العرب . وكذلك فان الحديث عن « اثقال ضمير الاسرائيليين » قد يلفت انتباه القارىء عن ضرورة وضع حد لمعاناة عرب فلسطين . وكذلك فان الكاتب حين يتحدث عن السخرية في الأوصاف التي يطلقها الاسرائيليون على المقاتلين الفلسطينيين فانه يقوم هو بوصف هؤلاء المقاتلين « بالارهابيين » (وهو يطلق الوصف نفسه على الاسرائيليين ولكنه يتحدث عن هؤلاء « كارهابيين سابقين » مغفلاً أولاً الأعمال الصهيونية الارهابية

ضد العرب وثانياً جميع أعمال الارهاب التي ارتكبها الاسرائيليون منذ عام ١٩٤٨) . وبالاضافة الى ذلك فان ايلون يتحاشى في أغلب الأحيان التحدث عن سكان الارض المغتصبة كفلسطينيين متبعاً بذلك السياسة الاسرائيلية التي تحاول طمس هوية الشعب الفلسطيني (ومن الطريف أنه في نفس الوقت يدعو المستوطنين اليهود بالمستوطنين الفلسطينيين — ص ٢٢٧) .

أما السبب الثاني في عدم تحقيق هذه التعليقات لأي تغيير في طابع الكتاب العام فهو أنها تعليقات عرضية ترد ضمن محاولة واعية لترسيخ الأسطورة الصهيونية . انما يميز هذا الكتاب عن غيره هو أنه يخاطب قراء يتمتعون بمستوى فكري أفضل مما يتمتع به القراء الذين يخاطبهم ليون يوريس في « الخروج » وأمثاله من الكتاب . ولكن كتاب ايلون هو أيضاً حمل دعاوي صهيوني لايختلف في أهدافه كثيراً عن الكتاب الآخرين . واذا كان ايلون يزين كتابه باشارات الى كتاب ومفكرين عالميين من أمثال شوبنهاور وهرمان ملفيل ومارك توين ودوستويفسكي وتولستوي وألبير كامو وكثيرين غيرهم ، فان ذلك لايغير من الطابع الدعاوي الذي يطبع كتابه . ان لهجة الكتاب أقل مبالغة من لهجة يوريس وأمثاله . فبدلاً من أن يعطي ايلون صورة عن « المنجزات التي تفوق التصديق » التي حققتها الصهيونية في اسرائيل وعن « الدولة الصغيرة » التي تمثل « منارة للحضارة والتقدم والازدهار » في منطقة يسودها « الجهل والتخلف » فانه يعطي صورة لدولة « متقدمة » حققت الكثير من « المنجزات » الصعبة ولكنها كغيرها من الدول تعاني من بعض المشاكل الداخلية ، وهي تختلف عن معظم الدول في كونها في وضع عدائي مزمن مع الدول المجاورة لها ولكن المسؤولية الرئيسية في استمرار هذا الوضع لاتقع عليها . ان ايلون يعطي صورة أقل مبالغة ولكنها تعتمد على نفس أساليب المغالطة واخفاء الحقائق وتزييف حقائق أخرى التي يعتمد عليها الجهاز الدعاوي الصهيوني في العادة .

فايلون يحاول ترسيخ اسطورة « اسرائيل — المعجزة » . اذ أنه يتحدث عن المستوطنين اليهود الأوائل قائلا انهم حققوا المعجزات منذ قدومهم وأحضروا الحضارة الى بلد موبوء بالجهل والمرض والاهمال والفساد . مدينة يافا مثلا كانت في ١٨٨٠ — حسبما يصورها الكاتب — مصدر صدمة لليهود المهاجرين الى فلسطين ، فلقد صدمهم «الضجيج والقذارة في يافا، في اسواقها القذرة، وادارتها التركية الفاسدة كلياً، وحشود الاطفال المتورمي الاعين ، والصرافين والباعة المتجولين والشحاذين والذباب والمصابين

بالبرص ، وحماليا المتوحشي المظهر وادلائها الذين يتساومون مع الحجاج والسياح على سعر ركوب بغل يأخذهم الى هضاب القدس » (ص ١٠٨) . ويقول ايلون انه كانت هناك في نفس ذلك الوقت مستوطنة يهودية على القرب منيافا تحيط بها البساتين وكروم البرتقال التي كانت تصدر منتجاتها الى اوربا ، وكانت تحيط ببيوت هذه المستوطنة « احواض الورد وتظللها الاشجار الخضر — وكانت هذه نادرة في تلك الايام . وكانت ابقارها المستوردة تنتج كميات صغيرة من الحليب الطازج والزبدة الذين كانا اكثر ندرة..» (ص ١٠٩) . ان التباين في الصورة التي يرسمها المؤلف بين المدينة العربية وبين المستوطنة اليهودية واضح ، وكذلك فان غايته واضحة لا تحتاج الى شرح . ولا بد ان قراء ايلون من يهود امريكا وجدوا المتعة والقناعة في قراءتهم لهذا الوصف .

وفي صدد « الانجازات » يتحدث ايلون عن حرب ١٩٦٧ واصفاً اياها أنها كانت « خطة انجاز » . وكذلك يتحدث عن جهود المستوطنين الاوائل في استصلاح الأراضي معانين في سبيل ذلك الكثير من المشاق ، « كانوا يرتدون الأسمال وكثيراً ما عانوا الجوع ، وكذلك كانوا يصابون بالتفوئيد والملاريا بشكل منتظم وغالباً ما اضطروا للدفاع عن مزارعهم ضد جيرانهم العرب المسلحين » (ص ١٥) (ولكنهم استمروا في اعتقادهم ان العرب لن يقاوموا وجودهم في فلسطين) وقد أفلحت جهودهم — حسب قول ايلون — في تحويل فلسطين من « مقاطعة عثمانية متأخرة » قليلة السكان الى دولة حديثة (ص ١٧) .

ويحاول ايلون بوسائل مختلفة التخفيف من مسؤولية اسرائيل والصهيونية في الصراع العربي — الصهيوني والقاء اكبر قدر من اللوم على العرب . فوصفه لحرب ١٩٦٧ مثلاً هو تكرار لاسطورة « داود وجالوت » التي تصور اسرائيل كدولة صغيرة مهددة بالفناء تتعرض للهجوم من قبل « أربع دول عربية ركزت قواها المهددة على طول حدود اسرائيل الطويلة المكشوفة » (ص ٤) . ويتحدث عن الجماهير في القاهرة تصرخ طالبة الدم وتحمل رايات سوداء عليها صور الجماجم وعن اسرائيل وهي تعاني من « العذاب والخوف » (ص ٥)

وهو ايضاً يتحدث عن الصهيونية كحركة قومية يهودية مشبهاً اياها بالقومية العربية ومستنتجاً ان الصراع هو بين قوميتين «محقة» و «طبيعية» بطريقتها الخاصة ، وبذلك فان المسؤولية لا تقع كثيراً على اي من الطرفين (ص ٣٤) .

ومن جهة أخرى فانه يشير الى الاختلاف بين اليهود والمستعمرين الآخرين كما ذكر أعلاه . ويتحدث عن احتلال القدس في عام ١٩٦٧ قائلاً « لم يكن الفاتحون اليهود للقدس الحديثة صليبيين ، ولكن رجالاً ونساء تعتريهم الدهشة يقاتلون من أجل بقائهم كأفراد وكأمة » (ص ١٤) . ويتجاهل أعمال العنف والارهاب الصهيونية التي لاتحصى ، ويغفل ذكر دير ياسين كلياً ولا يذكر المنظمات الارهابية الصهيونية سوى عرضاً ، ويقول بعد كل هذا الاغفال والتجاهل ان أعمال العنف والارهاب الصهيونية كانت حالات نادرة نسبياً ومتطرفة . ويذكر مذبحة كفر قاسم عام ١٩٥٦ ولكنه يقول أن قتلة كفر قاسم أحيلوا الى المحاكمة العسكرية ، ورغم أنه صدر عفو عنهم بعد بضعة سنوات فان محاكمتهم أعطت درساً للقوات الاسرائيلية (ص ٣٠٢) . ويذكر كيف أن أحد المقاتلين الاسرائيليين أحرز شهرة أسطورية بسبب قيامه بالتسلل مرة بعد أخرى الى الأراضي الاردنية السورية وارتكابه أعمال قتل « فردية » داخل هذه الاراضي ، ولكنه يقول أن من الطبيعي أن تنشأ مثل هذه الاساطير حين يكون شعب من الشعوب في حالة حرب مستمرة (ص ٣٠٧) ويضيف قائلاً أن « الخط الفاصل بين مايدعى بالوحشية المشروعة ، والوحشية غير المشروعة غير واضح أبداً » (ص ٣٠٧) .

ويحاول أيضاً التخفيف من مسؤولية الصهيونية في تشريد شعب فلسطين مدعياً ان هجرة الفلسطينيين كانت في كثير من الأحيان هجرة طبيعية من النوع السائد بين الفلاحين لتجنب مناطق القتال ، « غالباً ما كانوا يبعدون بضعة أميال فقط ، الى القرية التالية ، فقط ليقوموا بالهرب ثانية اذ أن القوى المتحركة بسرعة تكون قد أدركتهم . وقد أمر البعض بأن يغادروا وجاء الأمر إما من قبل قادتهم القصيري النظر أو – في حالات أقل من اليهود المتقدمين » (ص ٢٩) . ويدير ايلون من جديد الاسطوانة الدعاوية الصهيونية المألوفة عن استغلال الحكام العرب لقضية اللاجئين واستخدامها كسلاح للمزاودة وعن رفض هؤلاء الحكام السماح للفلسطينيين بالاستيطان في بلادهم . ويقول أيضاً أن اليهود لم تكن لديهم أية نوايا عدوانية عام ١٩٤٨ وأنهم لذلك فوجئوا بهجوم الجيوش العربية (ص ٢٥٥) . ورغم أن بعض الاسرائيليين كانوا يجدون الفلسطينيين الذين استولوا على أراضيهم على مرمى بصرهم عبر الحدود فان المواجهة لم تكن محرجة لهم كما كان يمكن أن تكون ، وذلك بسبب ماعانوه على أيدي الجيوش العربية التي دخلت فلسطين (ص ٢٥٤) .

ويقول ان تدخل الجيوش العربية أدى الى تشريد عرب فلسطين اذ لو ترك اليهود

والفلسطينيون وحدهم لاستطاعوا التوصل الى اتفاق واتم التعايش بينهم (ص ٢٥٠) . ويقول أن التدخل كان بدافع أطماع سورية ومصر في اقتطاع مايمكن اقتطاعه من أرض فلسطين وضمه الى دولتيها (وهو لايوجه مثل هذا الاتهام للاردن) . وفي محاولته لتشويه صورة العرب يتحدث عن الضرب الوحشي الذي تعرض له فتى اسرائيلي وأخته حين وقعا في أسر القوات السورية وزج بها في سجن دمشق » . وقد مات أسرى اسرائيليون آخرون في سوريا بسبب التعذيب أو أنهم أصيبوا ببطء بالجنون بعد سنوات في السجون الرهيبة » (ص ٣٠٤) . ويذكر ايلون أيضاً أن القوات المصرية أثناء حصارها المستعمرة يهودية عام ١٩٤٨ وجهت النداء التالي لسكان المستعمرة طالبة منهم الاستسلام :« بسم الله الاله الأكبر الذي يتكلم الحق دائماً . لم تكن نيتنا أن نبدأ حرباً . ان مقاومتكم هي التي دفعتنا لأن نهاجمكم » ... (ص ٢٥٦) . وبهذا يعطي صورة عن العرب بأنهم ليسوا متوحشين فقط ولكنهم أغبياء أيضاً .

وبالاضافة الى محاولته لتخفيف اللوم عن الصهيونية وتوجيهه الى العرب فان ايلون يقوم كالعادة باستغلال الاضطهاد الذي تعرض له يهود أوروبا فيحكي عن أعمال العنف التي تعرض لها يهود روسيا القيصرية وبالطبع عن الفظائع النازية ، ثم يحاول الربط بين هذا الاضطهاد وبين الصراع العربي الصهيوني ، فيقول ان « عداء العرب » كان سبباً في ازدياد حدة شعور اليهود بالاضطهاد ،ويضيف بأنه اذا كانت تتصف بالعناد في صراعها مع العرب فان ذلك يعود للتاريخ الذي يميز شعبها عن بقية الدول ، مشيراً بالطبع الى الاضطهاد الأوربي (ص ٢٧٨) .

ويحاول ايلون أيضاً ترسيخ اسطورة التفوق الاسرائيلي . وأهم مايقوله في هذا الصدد أنه :

« الزعماء العرب سرعان ما أعلنوا [بعد حرب ١٩٦٧] ان حرباً أخرى كانت « محتمة » ، فقد توقعوا أنهم في السباق الطويل سيتوصلون الى النصر عن طريق الصبر والصمود وعن طريق مجرد تفوقهم العددي . هل كان هذا تقييماً واقعياً أم مجرد حلم آخر ؟ اذا كانت حرب ١٩٦٧ قد حسمت بتفوق اسرائيل التقني ، فان نتائج الحرب التالية ــ حتى بدون استعمال أسلحة ذرية ــ ستعتمد أكثر على العوامل التقنية . واذا أخذنا نسب النمو القومي السائدة فان من المرجح أن الهوة التقنية بين اسرائيل وخصومها

ستكون أوسع مما كانت عليه في ١٩٦٧ » (ص٣٦) . وهنا لابد ان نتساءل عن شعور ايلون حول التفوق الثقافي وحول ازدياد الهوة الذي تنبأ بـه في ضوء نتائج حرب تشرين .

ولا يغفل ايلون ارضاء قرائه الأمريكيين بواسطة المقارنة الدائمة بين التجربة اليهودية والتجربة الأمريكية (ص ٢٣، ١٩١، ٣٣٢٠٢٠٤، ٤٣٦٠١٩٥٧) .

وأعود للقول بأن كتاب ايلون يمتاز بصراحة أكبر من المألوف في الكتب الموجهة لقراء خارج اسرائيل . ولكن هذه الصراحة ليست دليلاً على الاعتدال أو الموضوعية . ان بداية كتاب ايلون توحي بأنه شعر ان اسرائيل قد توصلت الى حالة من الأمن والاستقرار بعد حرب حزيران ١٩٦٧ تسمح لها بمثل هذه الصراحة . ونلمس هذا أولاً في أهدافه الدعاوية وثانياً في حديثه عن مأساة عرب فلسطين . فحديثه هنا هو ليس حديث مفكر موضوعي يحاول التوصل الى امكانية لحل النزاع القائم ، فهو حين يتكلم عن معاناة الفلسطينيين ومرارتهم لايسعى الى ايجاد أو حتى مجرد اقتراح حل يضع حداً لهذه المعاناة والمرارة ، وانما هو حديث من يعتبر أن هذه المأساة قد أصبحت من شؤون الماضي ، لذلك لاضير في التكلم عنها بصراحة . انه حديث مشابه لما يتفوه به الكثير من الأمريكيين حول اساءة أمريكا معاملة الهنود الحمر .

اننا كعرب نرحب بالطبع بأي اعتدال أو موضوعية من مفكر اسرائيلي ، ولكن هذا لايعني أن نسارع لدى رؤية بعض العبارات المرضية للخلط بين الكاتب الدعاوي والمفكر الموضوعي ، وان آموس ايلون هو بالتأكيد ليس سوى كاتب دعاوي صهيوني آخر .

حرب رمضان

الجولة العربية - الإسرائيلية الرابعة

عرض : عادل أبو شنب

من بين الكتب القليلة التي تعرضت للجولة العربية الاسرائيلية الرابعة كتاب « حرب رمضان »(١) الذي صدر في اوائل هذه السنة .

والتعريف بالكتاب وعرضه لا بد من استهلال ضروري يخص مؤلفي الكتاب أنفسهم(٢) فهؤلاء ليسوا أناساً عاديين أو كتاباً أو صحفيين شهدوا الحرب من خارجها وإنما هم ضباط في الجيش العربي المصري ، كان لهم اسهامهم في الجولة نفسها ، وشهدوا

(١) كتاب « حرب رمضان : الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة » الذي صدر عن الشركة المتحدة للنشر والتوزيع بالقاهرة . رقم الايداع بدار الكتب ٢٣٢١/٧٤ .

(٢) مؤلفو الكتاب م : اللواء حسن البدري ، اللواء طه المجذوب ، العميد أ . ح ضياء الدين زهدي الذين أشاروا ، تواضعاً ، الى ان الكتاب من اعدادهم .

الحرب من داخلها ، ولعل هذه النقطة بالذات تؤكد على أهمية الكتاب وصدقه ، والمدى الذي بلغـه في الوصول الى تفاصيل ، تتعلق بالحرب ، لم يتسن لغـير المؤلفين أن يصل اليها .

والواقع ان الجهد الذي بذل لاعداد هذا الكتاب يتجـاوز جهد المؤلفين الثلاثة ، ففي كلمة الشكر التي وجهها المؤلفون في صفحات الكتاب الاول أشاروا الى « أن ضباط وجنود القوات المسلحة المصرية والسورية قد مدوهم بتفاصيل دقيقة مكنتهم من اعداد الكتاب» كما اشاروا الى جهود أخرى أسهمت في اعداده(١) وهكذا لفظت المطبعة واحداً من الكتب القليلة الهامة التي تتعرض لحرب رمضان ، بتوثيق ملحوظ ، ندر أن وجدنا مثيلاً له في الكتب الاخرى التي عالجت الموضوع نفسه .

محتويات الكتاب :

في الأبواب السبعة التي يشتمل عليهـا الكتاب — بعد التقديم بكلمة للرئيس محمد أنور السادات ، وبكلمة للمشير احمـد اسماعيل علي ، وباهداء « الى شهداء العرب ، كل الشهداء على درب الكفاح الطويل منذ بدر الاولى عام ٦٢٤ م الى بدر الثانية « حرب رمضان عام ١٩٧٣ وما سوف يتلوهـا من حروب » — في الأبواب السبعة يتعرض المؤلفون الى الخلفية السياسية للحرب ، والى التخطيط والاعداد لها ، ثم الى المعركة نفسها وتحطيم الاسطورة . وفي كل هذه الابواب ذات الفصول المتعددة لا بد من وقفة بل وقفات .

السلام بالحرب :

يقول المؤلفون ان الجهود التي بذلت لارساء سلام عادل ودائم في منطقة الشرق

---

(١) ادارة البحوث الفنية برئاسة الجمهورية ، اللواء مصطفى حسن الجمل استاذ الاستراتيجية بأكاديمية ناصر العسكرية العليا ، اللواء بهي الدين محمد نوفل رئيس عمليات القيادة العامة الاتحادية ، الاستاذ صبيح صادق مدير البحوث بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الاستاذ السيد يس رئيس وحدة بحوث بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، المقدم عادل عبد العزيز الوكيل الذي اعد خرائط الكتاب .

الاوسط قد باءت بالفشل « على صخرة الرفض والتعنت الاسرائيلي »(١) فلم يستطع القرار رقم ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن في تشرين الثاني ١٩٦٧ أن يفرض وجوده رغم انه كان يقوم على دعامتين أساسيتين هما : « أولاً – عدم شرعية الاستيلاء على الاراضي بواسطة الحرب . ثانياً – ضرورة العمل من اجل سلام عادل ودائم ، تستطيع كل دولة من دول المنطقة أن تعيش فيه بامان »(٢) كما ان السفير غونار يارنج لم يستطع أن يحرز أي نجاح في مهمته ، وفشلت المحادثات الرباعية في نهاية آب ١٩٧١ « نتيجة التباين في وجهات نظر الدول الكبرى »(٣) ثم فشلت المحادثات الثنائية بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، وكان سبب الفشل ما صرح به وكيل وزارة الخارجية الاميركية جوزيف سيسكو من « انه لا يعتقد ان على اسرائيل أن تعيد جميع الاراضي ، لان قرار مجلس الامن لم ينص على ذلك »(٤) وجاءت مبادرة روجرز بهدف ايقاف حرب الاستنزاف التي شنها عبد الناصر ، لكن الولايات المتحدة الاميركية « لم تمارس أي ضغط على اسرائيل كي تستجيب للمبادرة التي قدمها وزير خارجيتها ، الامر الذي حكم عليها بالفشل الذريع »(٥) . وجاءت مبادرة السادات في خطابه الذي ألقاه في أول أيار عام ١٩٧١ وعرض فيه أن تنسحب اسرائيل انسحاباً جزئياً لتبدأ مصر في تطهير قناة السويس وفتحها للملاحة الدولية ، لكن اسرائيل أعلنت رداً على المبادرة بلسان وزير دفاعها موشي دايان أن « ليس لدى اسرائيل اية نية للانسحاب من افضل خط استولت عليه »(٦) . لقد فشلت جميع هذه الجهود والمبادرات في ارساء السلام وتبين للمجتمع الدولي « ان اسرائيل مصممة على اغتصاب الاراضي بالغزو »(٧) .

هنا لجأ العرب الى الاعداد السياسي للمعركة في الامم المتحدة وفي المجال الافريقي

---

(١) صفحة (١)
(٢) صفحة (٢)
(٣) صفحة (٤)
(٤) صفحة (٤)
(٥) صفحة (٧)
(٦) صفحة (٨)
(٧) صفحة (٨)

ومجال دول عدم الانحياز وفي المجال الاوربي وفي المجال العربي ، الامر الذي زاد من عزلة اسرائيل وجعل الضمير العالمي في اشد لحظات تعاطفه مع العرب، وتفهمه لعدالة قضيتهم.

خلال السنوات الست التي اعقبت حرب حزيران مرت المعركة مع اسرائيل بأربع مراحل :

١ً – مرحلة الصمود
٢ً – مرحلة الدفاع النشط
٣ً – مرحلة الاستنزاف
٤ً – مرحلة ايقاف النار

ويقول المؤلفون ان لكل من هذه المراحل خصائصها ومميزاتها ، ولقد اثبت الجيش العربي المصري في معظم هذه المراحل قدرة على تجاوز النكبة الاليمة الى بذل تضحيات وبطولات ، اعاد على وهجها بناء نفسه مادياً ومعنوياً ونفسياً ، لكن المرحلة الحاسمة كانت بالتأكيد هي مرحلة التخطيط والاعداد . وفي هذه المرحلة اتخذ القرار الجريء باستخدام القوة العسكرية ، « بغرض تغيير موازين الموقف السياسي والعسكري في الشرق الاوسط ، وتهيئة الظروف المناسبة لاستخدام باقي اوجه القوة المتوفرة للعرب »(١).

ويتحدث المؤلفون عن نظرية الامن الاسرائيلي ، وكيف حددت القيادة المصرية اتجاهات رئيسية لاهدارها ، ومنها :

- حرمان العدو من تفوقه الجوي .
- حرمان العدو من مزايا توجيه الضربة الاولى .
- حرمان العدو من توجيه ضربات مضادة قوية
- حرمان اسرائيل من ميزة الاستناد على مواقع طبيعية وصناعية .

ويقول المؤلفون ان القيادة راحت تدرس بروية كيفية عبور المانع المائي وتذلل المشاكل التي نشأت عن خطة العبور ، «ولعل ابرز معالم العبور كانت تتلخص في الآتي :

لم يحدث في تاريخ الحروب أن نفذت عملية عبور او اقتحام لقناة صناعية مجهزة هندسياً ومقام عليها قلاع حصينة كما جهزت قناة السويس وضفتها الشرقية »(١) .

---

(١) صفحة (٣٣)
(٢) صفحة (٤٩)

وبكثير من التفصيل يروي المؤلفون كيف تم التجهيز الهندسي لمسرح العمليات واعداد القوات ، والمفاجأة وكيف خطط لها واجراءات الخداع العسكري واختيار انسب التوقيتات لتنفيذ العملية الهجومية ، وسرية التخطيط ، والتنسيق مع الجبهة السورية.

المعركة

مائتا طائرة مصرية تنتخب اهدافاً في عمق سيناء وتضربها في الوقت المحدد ، ألفا مدفع واكثر تصب حممها على خط بارليف لمدة ٥٢ دقيقة « وبكثافة لم يسبق لها مثيل ، وتحت ستر هذه النيران القاتلة ، اخذت جماعة من الصاعقة ومقاوز اقتناص الدبابات تعبر مياه قناة السويس لتبث الالغام والشراك في مصاطب العدو ، وتقيم الكمائن على طرق اقتراب المدرعات الى القناة لتمنعها من التدخل في عملية الاقتحام الوشيكة »(٢)

كانت الضربة موجهة لاسرائيل فقد انكشف زيف المزاعم الصهيونية وافتضحت الدعاوى الاسرائيلية عن تخلف العرب الحضاري والفجوة التكنولوجية التي تمسك بتلابيبهم وغير ذلك ، وطلعت صحف واذاعات العالم بما تفضح هذا الزيف . وفي الكتاب انتقادات موفقة لأبرز ما قيل في هذا الصدد في الصحف والمجلات التي كانت باستمرار الى جانب اسرائيل نفسها . ومما قالته الجارديان البريطانية « ان الجيش المصري والجيش السوري قد برهنا انها افضل تدريباً واحسن تشكيلاً واستعداداً واشد جلداً وافضل عتاداً عما سبق »(٣) .

يقسم المؤلفون مراحل المعركة الى مرحلة اولى (٨ أيام) تم خلالها اقتحام القناة واحتلال خط بارليف والاستيلاء على رؤوس الجسور ، ومرحلة ثانية (يوم واحد) طور فيها الهجوم شرقاً نحو مضائق سيناء ، ومرحلة ثالثة (٣ أيام) صدت ودمرت كافة هجمات العدو ، ومرحلة رابعة (٥ أيام) ادير فيها القتال ضد متسللي الضفة الغربية ومرحلة خامسة (٦ أيام) قبلت اسرائيل فيها قرار مجلس الأمن بضمان الدولتين الكبيرتين وهي تشمر العدوان وراحت تضغط بجنون « لانجاح مغامرتها الجديدة حتى تجعل من موقفها الميؤوس منه غرب القناة وضعاً محتملاً وقابلاً للاستمرار »(١) .

---

(٢) صفحة (٩٢)

(٣) صفحة (٩٩)

(١) صفحة (١٠١)

ويستعرض الكتاب بتفصيل نادر مراحل القتال بالدقيقة منذ اليوم الأول وحتى النهاية ، وكيف تحطمت الاسطورة وتحطم موشي ديان الذي « انهار في اليوم الثاني من حرب اكتوبر عندما حطمت القوات المصرية كافة الهجمات الاسرائيلية في سيناء ، ووصلت القوات السورية الى مسافة لاتتجاوز خمس دقائق من وادي الاردن واوقعت خسائر جسيمة في الدبابات والطائرات الاسرائيلية »(٢) وكيف امنت رؤوس الجسور وعززت المعابر وكيف كانت قوات الدفاع الجوي الدرع الواقية ، وكيف تم الضغط شرقاً وكيف دفعت اسرائيل معظم احتياطاتها التعبوية والاستراتيجية صوب الجبهة السورية « لايقاف التهديد السوري وتصفيته قبل أن يحول مجهوده الرئيسي صوب الجبهة المصرية ، ولاحباط ذلك قرر القائد العام نقل جهوده صوب سيناء لتخفيف الضغط على القوات السورية »(٣) .

وتحدث المؤلفون عن معارك الدبابات الكبرى وعن تدفق الامدادات الاميركية على اسرائيل وعن الجيب الهش وكيف « تحولت القوات الاسرائيلية الموجودة في الجبهة غرب القناة من سلاح تضغط به اسرائيل علينا الى رهينة نضغط بها نحن على اسرائيل»(٤) وعن بطولة القوات الجوية والقوات البحرية .

ويأتي المؤلفون الثلاثة بعد ذلك ، الى المحادثات التي اعقبت وقف اطلاق النار ، الاجتماعات العسكرية والمرحلة الأولى من محادثات الكيلو متر « ١٠١ » ثم مؤتمر جنيف السلام ولجنة العمل العسكرية ، ثم المرحلة الثانية لمباحثات الكيلو متر « ١٠١ » وما تلا ذلك من قرارات، ثم يصلون الى ما حققته حرب رمضان من نتائج كثيرة يأتي على رأسها،

- انهـا كانت سبباً في وحدة عربية شاملة ، وموقف عربي موحد لم يشهده العالم من قبل .
- انها عززت الوحدة الوطنية بصورة لم تشهدها مصر سابقاً .
- انها اعادت الى قوات مصر المسلحة ثقتها بنفسها ، كما اعادت لشعب مصر ثقته بقواته المسلحة .

---

(٢) صفحة (١١١) نقلاً عن جريدة « هاعولام هازيه » الاسرائيلية في عرضها لأحداث اليومين الأولين من الحرب .

(٣) صفحة (١٤٦)

(٣) صفحة (١٨٩)

- انها قضت على اسطورة جيش اسرائيل الذي لايقهر .
- انها غيرت الاستراتيجية العسكرية في العالم كله ، حتى باتت القيادة العسكرية في الدول الكبرى تعكف على دراسة وتحليل حرب رمضان ، كما اوقفت بعضها انتاج بعض الاسلحة التي ثبت عدم جدواها .
- انها قلبت الموازين العسكرية في العالم .
- انها حركت ازمة الشرق الاوسط بدرجة لم تحدث في أي وقت مضى، واصبح العالم كله شرقاً وغرباً يتساءل عن حقوق شعب فلسطين .

ومن ثمار الحرب أن العرب فرضوا احترامهم على العالم ، وكشفوا عن متانة العروة التي تجمع شملهم ، وان العدو قد اصيب « بتفسخ خطير في روابط الثقة بين الحاكم والمحكوم والقائد والمرؤوس»(١) .

ملحمة البطولة :

انها ملحمة البطولة بين دفتي كتاب . « وسوف يجيء اليوم الذي نجلس فيه لنقص ونروي ماذا فعل كل واحد منا في موقعه ؟ وكيف حمل كل منا امانته وأدى دوره ، وكيف خرج الابطال من هذا الشعب وهذه الامة في فترة حالكة يحملون مشاعل النور لتضيء الطريق حتى تستطيع امتهم أن تعبر الجسر بين اليأس والرجاء »(٢) .

---

(١) صفحة (٢٩٢)

(٢) نص التقديم الذي كتبه الرئيس محمد انور السادات واثبت في أول صفحات الكتاب .

رسالة باريس الثقافية

انطباعات عربي في باريس عن حرب تشرين

وليد فستق

كانت مناقشاتنا مع المثقفين الافرنسيين تدور دوماً حول الوضع في الشرق الأوسط . نشتري جريدة « اللوموند » بعد ظهر كل يوم ، عقب صدورها ، ونطالعها مع المطالعين في إحدى المقاهي المنتشرة على أرصفة باريس .. في شوارعها ، وساحاتها ، وفي أحيائها السكنية ، نلقي نظرة سريعة على عناوين الصفحة الرئيسية ، تستوعب البعض ولا تستوعب البعض الآخر .. نريد ان نقلب الصحيفة الى صفحتها الأخيرة لنطلع على الفهرس الذي يعرفنا في اي من صفحاتها الست والثلاثين أو الاثنتين والأربعين عالجت مشاكل وأخبار وتطورات الشرق الأوسط .

ونرشف من فنجان القهوة رشفة أو رشفتين ، ونمج من السيكارة مجة أو مجتين ونحن نسترجع أخبار الأمس ، رابطين اياها بتطورات اليوم .. وفي هذا وذاك نحاول أن نرسم صورة للأحداث كما يمكن ان تقع في المستقبل .

ويرمق الواحد منا الآخر .. كل يريد ان يجعل من الأخبار التي يطالعها عنصراً من العناصر التي تؤيد تفكيره في منطلقاته .. وتصوراته . والواقع ان كلاً منا كانت له منطلقاته وتصوراته التي لم يكن من السهل أو الامكان التنازل عنها . ففي حين كنا نستند الى قاعدة صلبة من الفكر القومي العربي ، والى معرفة جيدة بطبيعة نوايا ومخططات العدو ، ماتحقق منها وما هو في أمل التحقيق ، كان محدثونا يسترجعون في ذاكرتهم ماطالعوه في صحفهم .. فيحكمون علينا لا لنا .. ويتعصبون لعدونا لا لقضيتنا . وبالرغم من أننا كنا نلحظ فيهم بعض الفهم حيناً ، وحيناً آخر بعض التأييد .. فقد كنا في قرارة أنفسنا نشك في هذا الفهم ، شكنا في هذا التأييد .. حتى كاد يخيل الينا ان العرب وحيدون في الساحة ، لايتعاطف معهم سوى أصوات ، هي من القلة بحيث لم تحدث تأثيراً أو وزناً .. وأكاد أقول ولن تحدث تأثيراً أو وزناً .

وهكذا كانت دوماً الطبيعة الخضراء التي تحيط « بالمدينة الجامعية » في باريس اكثر تفاؤلاً منا . كما كانت قناديل مقهى الفوروس البرتقالية — حيث يفضل الطلاب الجامعيون القاطنون هذه « المدينة » تناول قهوتهم بعد وجبتي الغداء والعشاء — اكثر أملاً وانشراحاً منا .

فقد ساهمت الخرائط الجغرافية — السياسية التي تصاحب طرح قضايانا في الصحف والمجلات الافرنسية والتي تبرز بشكل واضح توسع العدو .. في زعزعة ثقتنا بأنفسنا .. بل كانت حرب حزيران وما واكبها من تمثيل العرب بالقوة الكبيرة الفارغة التي لا قوام لها ولا كيان ومن تمثيل الاسرائيليين بالقوة القليلة الحديثة التي تمثل العلم والحضارة .. في زعزعة ثقتنا بقادتنا وحكامنا .

وكثر الكلام عن الحرب . تحدثت سورية عن الاستعداد لها .. حديث مصر .. كما تحدثت اسرائيل عن احتمال شن الحرب عليها .

وكنا هنا نطالع اخبار الاولين ، نخشى من انفسنا عدم تصديقها .. او قل لا نقوى على هذا التصديق . فقد طالت أحاديث الاستعداد عن هذه الحرب عاما بعد عام .

وكنا نطالع أخبار الآخرين فنكذبها .. او نحن لا نقوى الا على تكذيبها .. فقد كنا نظن أنها حيلة من حيل العدو يجترها حين يريد خداع الرأي العام العالمي في الوقت الذي يخطط للانقضاض على خصمه !

أما محدثونا من الفرنسيين وسواهم من الأجانب فقد كانوا اكثر بساطة منا .. يصدقون هؤلاء .. واولئك .. يخشون الحرب وشن الحرب .. ويدرسون بهدوء مدى تأثير ذلك على اقتصادهم وكذا على مشاريعهم السياحية !

لقد كان هؤلاء أكثر ثقة بأنفسنا منا نحن ! ولعلهم كانوا – أو كان بعضهم على أقل تقدير – أبعد رؤية منا .. واكثر الماماً بمنطق التاريخ .. فصدقوا الاولين .. وصدقوا الآخرين .. وكسبوا الرهان .

وكانت الحرب

كان كل منا يبحث عن زميله .. أو عن أي زميل آخر في المدينة الجامعية .. يريد أن يقابل أي طالب عربي .. من أي قطر كان .. كي يتأكد من صحة الأخبار التي يسمعها .

ترددت أخبار الحرب مع غروب شمس السادس من تشرين .. وكنا نأمل أن نطالع في صحيفة « اللوموند » خبراً عن هذه الحرب .. فلم نجد شيئاً .. لم نشأ أن نصدق الصحيفة .. كما كنا حذرين ازاء تصديق الاخبار المتناقلة .

لم نكن نريد سماع أخبار باريس أو لندن أو بروكسل .. كما نفعل في الامسيات .. بل كنا – في هذه المرة دون سواها – نريد الاخبار من مصادرها الاولى . فاذا بتجمعات الطلاب تتحلق حول اجهزة « الراديو » تبحث عن دمشق .. والقاهرة .. تريد أن تعرف الحقيقة .. من منابع الحقيقة .

كانت النفوس مضطربة .. هي بين الفرح والحذر موزعة ، تريد النصر وتخشى الهزيمة . واغلقنا كتبنا وكراساتنا واقلامنا وجمعنا القواميس والمراجع فأودعناها جانباً وأحللنا محل هذه وتلك صحف اليمين واليسار والوسط والديغوليين ، نلاحق الاخبار والتحليلات كلما عجزنا عن التقاط اذاعاتنا في أواسط الأيام .

كنا نصيح كالأطفال الصغار كلما سمعنا نبأ هجوم على قوات العدو .. أو غارة

على خطوطه الأمامية .. تبرق العيون ، وتزهر الوجوه ، وتقرأ في النظرات الآمال الكبار .. وكثيراً ما تتصافح الايدي مرة أو مرات .. أو يذهب أحدنا فيقبل زميله مرة .. أو مرات .

كما كان ريقنا يجف ، وحناجرنا تبح ، وعيوننا تذبل ، وخدودنا تصفر ، كلما سمعنا نبأ غارة على دمشق أو حمص أو اللاذقية .. كان البعض منا يضع يديه على أذنيه .. كأنما لا يريد سماع النبأ.. أو كأنما يشعر كما لو كان في تلك اللحظة في المدينة التي يجري فيها القصف.. يخفف عن أذنيه قسوة الصوت ! ويفكر كل منا في ذويه ، في والديه واخوته واخواته.. كلما تناهى الى سمعه قصف حي معين من الاحياء أو جانب من جوانب مدينة من مدننا الغالية :.

كنا نمضي صباحنا وظهرنا وعصرنا .. ونحن نسمع الأخبار والأنباء . فاذا هبط المساء سعينا الى البيوت الجامعية التي خصصت لنزلائها جهاز « تلفزيون » يتابعون من خلاله أخبار العالم .. وبرامج المحطات المحلية .. في صالات صغيرة ! ويتقاطر الطلاب من عرب وأجانب الى مثل هذه الصالات في مواعيد الاخبار .. فاذا القاعة الصغيرة غاصة بالشبان والشابات ينتظرون بلهفة اعلان موعد الأخبار. وإذا بمزيد من الشبان والشابات يفدون فرادى وجماعات فمنهم من يجد كرسياً فيجلس عليه ، ومنهم من لا يجد فيجلس القرفصاء . أو يظل واقفاً ان بقي متسع للوقوف !

وينتهي عرض القناة الأولى من الأخبار دون أن يروي ظمأ أحد من العرب.. وكيف يرتوي الظمأ إذا كانت اكثر الاخبار تروي جانب العدو !! واكثر الصور والافلام المعروضة هي من جانب خطوط العدو !!

ويقفز أحد الطلاب فلا يستشير زملاءه الحاضرين المشاهدين في تغيير القنال .. كما يجري العرف في مثل هذه الحال — فيقلب مفتاح الجهاز الى « القناة الثانية » لسماع ورؤية الأخبار من جديد .. ولعل البعض يلجأ الى القناة الثالثة لسماع الأخبار مرة ثالثة وهو يعلم ان كثيراً من الافلام المصورة تعرض في كل القنوات الثلاث التي يبث عليها التلفزيون الفرنسي في باريس برامجه .

فاذا كانت الساعة تقارب التاسعة مساء ، عاد كل منا الى غرفته .. يعالج جهازه يريد تأكيداً لأخبار النصر التي سمعها لتوه.. كما يريد في نفس الوقت تكذيباً أو رداً لكل هجوم مضاد جرى أو يجري في حينه .

ولم يكن سهلاً على البعض أن يستسلم للنوم .. كان البعض يستيقظ كلما سمع خبراً جديداً .. فينهض ليدق باب جاره.. فاذا بالثالث يسمع ضجة في الممر فيستيقظ بدوره ليسمع النبأ الجديد ..

أما البعض الآخر فقد كان من شدة الاحساس ورهافة الشعور بحيث كان يحتاج الى بعض الأقراص المهدئة كي يستطيع النوم أربعاً أو خمساً من الساعات . .

السفارة السورية في باريس

ولقد اختار كثير من الطلاب العرب السفارة السورية في باريس مركزاً لتجمعهم منذ اليوم التالي لاندلاع الحرب . يريدون من خلال هذه الزيارات الجماعية ، سماع أخبارها من لسان دمشق في العاصمة الفرنسية . . وهو لسان مفتخر بنفسه افتخار الآخرين به .

وكان هؤلاء الطلاب يطرقون باب هذه السفارة فيجدونها مرحبة بهم في أية ساعة جاؤوا . . فقد ألغت دوام الساعات الست اليومية . . وجعلته دواماً مستمراً دونما انقطاع يبدأ في السابعة صباحاً . . ولاينتهي قبل الحادية عشرة ليلاً . والواقع أن كثيراً من المسؤولين كانوا يغادرون مكاتبهم في الثانية بعد منتصف الليل . وقد تناهى إلينا يومها – وليس سراً اذاعته – أن رئيس البعثة قد وزع على الجهازين الدبلوماسي والاداري لديه مهاماً تتعلق كلها بالحرب . . فجند كافة الامكانيات للعمل من بعيد في ومن أجل المعركة .

كان الوافدون الى السفارة كل يوم عديدين . . وعديدين جداً . كانوا مزيجاً بين سفراء عرب يريدون الاجتماع بزميلهم السفير السوري ، أو دبلوماسيين أجانب يريدون سماع وجهة النظر العربية السورية في الأحداث . وهكذا كانت وفود معلقي الصحف والمجلات ومصوري التلفزيون الفرنسي . . تأتي السفارة في أغلب إن لم يكن في كافة أيام الحرب . . تقابل رئيس البعثة أو من ينوب منابه للأغراض السياسية أو الاعلامية التي أتوا من أجلها .

ولعل من الأمور التي كنا نلاحظها ونحن نزورها، الأغراض النبيلة التي كان الطلاب العرب يفدون من أجلها .. حمل البعض قليلاً من ماله .. والمال في هذه البلاد عزيز على أهله فكيف على الأجانب سيما ان كانوا طلاباً !! وحمل البعض دمه يريد التبرع

به .. فأرشد الى المشافي التي تجمع الدم لصالح الجانب العربي في الحرب .. أما البعض الآخر ، وكان على ما لا حظنا من العمال التونسيين والجزائريين والمراكشيين ، فقد أرادوا تقديم أنفسهم للمعركة .. فسجلوا أسماءهم في « سجل الشرف » الذي أعدته السفارة لهم .. منتظرين اشارتها كي يودعوا عائلاتهم واطفالهم ويسافروا الى الشرق ..

ولم نكن نشأ بعد مرورنا من هذه الدار الكريمة أن نعود الى المدينة الجامعيةدون أن نلقي السلام على رفاقنا في مركز اتحاد الطلبة السوريين .. فاذا بالمركز غاص بالطلاب أتوا من كل صوب . كما يحدث في العادة مرة كل عام يوم يدعونه لانتخاب مجالسهم النقابية !! واذا الجمع يتناقل الأخبار والأنباء .. بعض يتحدث .. والبعض يستمع ، يحلل .. وآخرون يرددون ..

كانت هذه الفترة مرهقة علينا .. كما كانت مرهقة على حكامنا وقادتنا وجنودنا، وعلى ذوينا في الوطن . وقد ساهمت بعض من الصحف الفرنسية الموالية للعدو في حرب أعصاب شنتها على المواطنين العرب المقيمين هنا . إذ أخذت تردد ما تذيعه وتبثه أجهزة اعلام العدو ..وهكذا تحدثت هذه الصحافة عن عبور الاسرائيليين الضفةالشرقية لقناة السويس في الأسبوع الأول من الحرب في الوقت الذي كان هؤلاء أضعف من أن يقاوموا مفاجأة الضربة العربية في سيناء .. كما تحدثت هذه المصادر عن احتلال أجزاء جديدة من هضبة الجولان في الوقت الذي كانت قواتنا الباسلة تطارد العدو في جبل الشيخ .

لقد كانت هذه الفترة مرهقة علينا .. وعلى سوانا .. ولم يخفف هذا الارهاق سوى أنباء النصر . . أنباء البسالة العربية التي كدنا ننساها بعدما طالعنا عنها في كتب فتوحات أجدادنا .. لم يخفف هذا الارهاق سوى هذا الضياع وهذا التمزق وهذا التشتت الذي دب في صفوف العدو . . بل هذا الاعتراف من قبله بمفاجأة الضربة العربية وعنفها ..

هي الكرامة العربية – غسل جزء من عارها .. أما الجزء الآخر .. فينتظر الضربة القادمة .

باريس – وليد فستق

الأسـرى الإسـرائيليّون

مشـكلة مفتعـلة

جانت الكسـان

قالت اذاعة « اسرائيل » في بداية معارك تشرين التحريرية ، ان القيادة العسكرية الاسرائيلية وسعت المعسكرات لاستقبال الأسرى العرب حتى لا تقع في المأزق الذي وقعت فيه بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ ، عندما كان عدد الأسرى كبيراً لدرجة ان المعسكرات ضاقت بهم ... وقالت الاذاعة ان المعسكرات التي ستستقبل الأسرى العرب، جهزت بأحدث الخدمات ، ومنها حمامات الدوش ..

قالت اذاعة العدو هذا ضمن حملتها الاعلامية النفسية ضد العرب ، ثم فوجئت بعد ساعات ، ومنذ اليوم الأول للقتال ، بسقوط قوادها وطياريها وجنودها أسرى بين أيدي القوات العربية .. فقامت تثير مشكلة اسمتها « قضية الأسرى » .. الاسرى الاسرائيليين ، لا العرب ..

منذ اليوم الأول للمعارك ، تمكنت القوات العربية على الجبهتين من أسر عدد من جنود العدو بدأ يتزايد يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ..

وقد قال البلاغ الرابع للناطق العسكري في اليوم الأول للمعارك : تمكنت قواتنا بعد معارك ضارية بالدبابات ، ومختلف أنواع الأسلحة تكبد فيها العدو خسائر فادحة من تحرير عدد من المواقع والقرى في هضبة الجولان ، كما أسرت قواتنا عدداً من جنود العدو ... وفي الوقت نفسه ، ونتيجة معارك الجو أسقط طيارونا ووسائط دفاعنا الجوي عدداً كبيراً من طائرات العدو ـ جاءت التفاصيل في البلاغات العسكرية ـ وأسرت عدداً من الطيارين ..

وقد شهد المواطنون هؤلاء الأسرى على شاشة التلفزيون .. وكشفت اعترافاتهم التي بثتها الاذاعة ونشرتها الصحف المحلية والعربية والاجنبية ، وتناقلتها وكالات الأنباء الكثير عن حقيقة المؤسسة العسكرية الاسرائيلية وأهدافها العدوانية والاجرامية والتوسعية ..

والسؤال الذي يطرح الآن ، لماذا حاولت السلطات الاسرائيلية أن تجعل من قضية الأسرى الاسرائيليين ، والذين في سورية بالذات ، مشكلة عالمية ؟ .

هذا الامر تجاوز الاطار المعروف لقضايا الاسرى في كل الحروب ، فالمسألة ، في الواقع ، لم تعد مسألة أسرى يفترض في النهاية أن يعودوا الى عائلاتهم ، وانما أصبحت فصلاً ماضياً وبارداً يعمق في أخاديد الهزيمة في اسرائيل .. ففي أكثر المعارك والاشتباكات السابقة ، حاولت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ان تجعل من حفاظها على الجندي الاسرائيلي اسطورة ، وذلك لتدفع الجنود الى المضي في تنفيذ الخطة الصهيونية بأعين معصوبة ، وكانت الظروف تساعدها لان الحروب ، قبل السادس من تشرين الأول عام ١٩٧٣ كانت سهلة خفيفة الوطأة نسبياً على اسرائيل مثلاً ؛ كان الطيار الاسرائيلي الذي تتحطم طائرته ويهبط بالمظلة ، يجد فوق رأسه مظلة جوية من طائرات الفانتوم لتغطية احدى طائرات الهيليكوبتر التي تهرع لالتقاطه من الأرض أو من البحر .

كان الميدان آنذاك على هوى اسرائيل الى حد بعيد ، وعندما كان احد الجنود الصهاينة يقتل أو يجرح بلغم أو برصاصة عربية ، كانت أسراب كثيفة من طائرات اسرائيل تلقي حمولة الموت من القنابل والصواريخ على مخيات الفلسطينيين ، والقرى السورية والاردنية واللبنانية .. وكانت المؤسسة العامة العسكرية الصهيونية تهتم بالاعلان

من هذه العمليات ، ربما اكثر من اهتمامها بالعمليات نفسها ، وذلك لتخيف العرب من جهة ، ولتقنع جنود لها بأنهم اعزاء عليها كثيراً .

ولكن معارك تشرين غيرت هذا الأمر ، فاضطر القادة العسكريون الاسرائيليون الى ربط طياريهم وقادة مدرعاتهم بالسلاسل حتى لا يهربوا .

من هنا كان « اهتمام » اسرائيل بقضية الاسرى .. انها تستهدف تغطية ما حدث ، وتخفيف وطأة مظاهرات الاسرائيليين الذين كانوا يطالبون بأبنائهم ، أو باسماء عدد الاسرى والقتلى والمفقودين منهم على الاقل .

• • وفي جمهورية مصر العربية اعدت القوات المسلحة المصرية معسكراً خاصاً لاستقبال واقامة الاسرى الاسرائيليين الذين بلغ عددهم في اليوم الأول للقتال فقط مئة اسير .. وقد وضع هؤلاء الاسرى تحت قيادة رئيسهم وصاحب اكبر رتبة عسكرية بينهم وهو العقيد الاسير عساف ياجوري الذي كان قائداً للواء الاسرائيلي المدرع الذي تم اسره في سيناء في يوم ٩ تشرين الاول ١٩٧٣ ، اي في اليوم الرابع للقتال .. وقد عقد العقيد ياجوري مؤتمراً صحفياً ، ونشرت له احاديث عن المعارك ، وعرض ٧٧ شاشة التلفزيون .. وعندما سئل عن المعاملة التي يلقاها في الاسر قال انها معاملة كريمة ..

• ومن الاسرى الذين تحدثوا لرجال الصحافة العربية والاجانب :

٦ ــ العريف الاسير دافيد دارخيم ، اسر بعد ظهر اليوم الاول للمعارك ، وقال : « بعد ظهر ذلك اليوم دفعت قواتنا بوحدات مدرعة تحركت لشن هجوم مضاد على القوات المصرية التي عبرت القناة في القطاع الجنوبي .. وكنت اقود احدى دبابات هذه الوحدة المدرعة ، وعندما دارت المعركة اصيبت دبابتي ضمن تشكيل الدبابات التي دمرتها القوات المصرية ، ورأيت حولي ثلاث دبابات قد اصابتها المدرعات المصرية »

وكانت هذه الامور مفاجأة غير متوقعة للجنود الاسرائيليين الذين اوهمهم قادتهم بأنهم لا يمكن ان يهزموا ..

ومن اسرى التحصينات التي عرفها العدو باسم «خط بارليف » احد افراد المشاة الاسرائيليين وهو شميس باروخ.

قال : لم اقاتل . . سلمت نفسي ورفعت يدي أمام أول جندي مصري رأيته أمامي .. لقد كنت في الموقع ، وسقطت قذيفة على موقعنا ، وعندما دخل الجنود المصريون استسلمت مع رفاقي الخمسة .

ويقول باروخ انه من اليهود الشرقيين ، وان ذلك ينعكس على حياته في اسرائيل ، وعلى وضعه في الجيش الاسرائيلي . لان التفرقة واضحة جداً في المعاملة . فاليهودي الاوروبي طلباته تجاب ، بينما يعمل اليهودي الشرقي كالحمار ، والتعبير لباروخ نفسه - ويعيش في حجرة حقيرة . . حتى في الجيش فان اليهودي الشرقي آخر من يحصل على الامتيازات .

والدكتور مان دانييل نموذج آخر من الاسرى الاسرائيليين .. لقد كان يعمل طبيباً مدنياً في مستشفى اسرائيلي عندما استدعي للخدمة . . وكان في موقع قرب الضفة الشرقية للقناة ، ولم يستطع خلال المعارك ان يقدم اية اسعافات مجدية للجرحى الاسرائيليين .. وقال : ان المياه نفدت من الموقع الذي لم يتلق اية امدادات ، وقد فضل ان يقع اسيراً بين ايدي القوات المصرية على ان يموت عطشاً في الموقع .

وعن عما يسميه العدو « نظرية الامن الاسرائيلي » قال انه لم يعد يؤمن بهذه النظرية ، وانه ضد مواقف السلطة في بلده .

ومن الاسرى الطيارين الملازم الطيار جور ، وهو شاب في الرابعة والعشرين . كان يعمل في وحدات الاستطلاع الجوي وغادر قاعدته مع زميل له في مهمة استطلاعية قرب قناة السويس ، وكانت النيران هناك في انتظاره .

وكما حدث في سورية ، حدث في مصر ، قامت القوات العربية بنقل الاسرى الجرحى الى المستشفيات حيث كانوا يلقون الرعاية الطبية والاسعافات اللازمة ، واجريت لبعضهم عمليات جراحية خطرة كانوا دونها سيلقون حتفهم .

● على الجبهة المصرية تم تبادل الاسرى . . اما على الجبهة السورية ، فقد أصدرت السلطات المسؤولة عدة تصريحات حول موضوع الاسرى ، اذ أكد مصدر مسؤول ان عملية تبادل الاسرى غير ممكنة حالياً - كان التصريح قبل مؤتمر جنيف - ولن يتم هذا التبادل الا في اطار تنفيذ الانسحاب الكامل من الاراضي المحتلة ..

- وفي تصريح آخر أكد الناطق المسؤول ان موقف سورية من موضوع الاسرى كان واضحاً منذ البداية ، اذ انهارت على ادعاءات اسرائيل بمذكرات رسمية الى اللجنة الدولية للصليب الاحمر في جنيف ، وبينت بالوقائع الثابتة ان اسرائيل هي التي انتهكت اتفاقيات جنيف ، وهي التي رفضت علناً الالتزام بها . وذلك على لسان مندوبها في

المؤتمر الدولي للصليب الاحمر الذي انعقد في طهران ، ولسان ممثليها في اجتماعات اللجنة السياسية الخاصة للامم المتحدة .

والواقع ان اسرائيل جعلت من قضية الاسرى أمراً أشبه بالطقوس الدينية .. فبين ساعة واخرى كان المسؤولون يهمسون ، واحياناً كثيرة يصرخون ، هم والناس والصحافة : هل قدمت دمشق قائمة الاسرى ؟ .

وانتقل السؤال « المشكلة » من الكنيست الى الشارع ، واصبح «قضية القضايا» ثم تصاعد ـ من خلال حملة مخططة ـ الى موجة احتجاج اسرائيلية عالمية اجتاحت اوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية .. وبالرغم من ان كيسنجر قد نقل الى تل ابيب بعد ذلك قائمة بأسماء الاسرى ، الا ان المسؤولين الاسرائيليين الذين كشفهم ذلك ، انتقلوا « فجأة » من المطالبة بقائمة تحمل اسماء الاسرى ، الى المطالبة بالافراج عنهم .

شريط طويل ، حركته آلة الاعلام الصهيوني ، داخل اسرائيل وخارجها ، اشتركت في اعداده هيئات وافراد ومنظمات ، رسمية وشعبية ، وساهمت الصحافة الغربية في عرض هذا الشريط على الرأي العام العالمي ..

بدأت المسألة في وقت لم تكن فيه دماء الحرب قد جفت ، حتى ولا ان اطلاق النار قد توقف بموجب قرارات مجلس الامن المتلاحقة ، ورأينا ان اسرائيل ربطت امر وقف اطلاق النار بتقديم قوائم بأسماء الاسرى .. وبما ان الحرب لم تكن بعد قد وضعت اوزارها ، فان سورية ومصر رفضتا ذلك يومئذ .

وبعد قرار وقف اطلاق النار بأقل من اسبوع ، بدأت آلة الدعاية الاسرائيلية تتحرك .. وعبرت « ديلي تلغراف » البريطانية عن « قلق اسرائيل البالغ بشأن اسراها » ذلك « لأن السحب المظلمة قد خيمت على كل المعلومات القادمة من الجبهة السورية » ..

ثم انتقل الكلام الى مجلة « ايكونوميست » البريطانية ايضاً ، والتي اشترى الصهاينة معظم اسهمها ، فهاجمت سورية « لأنها لم تخضع لاتفاقيات جنيف » ..

ثم تناسى الجميع الموضوع ، بما فيهم اسرائيل نفسها ـ حتى تمت عملية « فك الالتحام » على الجبهة المصرية ـ الاسرائيلية وعادوا فتذكروا اسرى اسرائيل في سورية .

وتحركت آلة الدعاية الاسرائيلية بكثافة وبسرعة هذه المرة .. طار وفد من اهالي الاسرى الى امريكا ، والوفد شكلته اسرائيل ، وادلى ببيان امام لجنة فرعية بالكونغرس..

وبعدها قام الوفد بزيارة عدة مدن كبرى في امريكا ، بغية اثارة الرأي العام ضد سورية ، وفي جميع المدن التي زارها ، ظهر في التلفزيون ، وتحدث في الاذاعات ، وحصل على تغطية واسعة في الصحف .

زار الوفد نيويورك وشيكاغو ولوس انجلوس وبوسطن ودالاس ، وسان فرانسسكو وفيلادلفيا ، ونيو اورلي ، واجتمع الى المنظمات الصهيونية ، والى الجمعيات الدينية والمدنية .

وعلى الصعيد الطلابي تحركت اسرائيل بمبادرة من المنظمة اليهودية للطلبة في امريكا ، وجرت اضرابات عن الطعام « احتجاجاً على سياسة سورية بالنسبة للاسرى » .. ووقع اكثر من ٣٠٠ عالماً امريكياً في « معهد الصحة القومي » قرب واشنطن ، وبسبب هذه الضغوط الاعلامية ، على عريضة يطالبون فيها بـ « الافراج عن الاسرى » .. كما تدخلت شخصيات فكرية وادبية وسياسية عالمية في القضية ، ففي يوم الاثنين ١٨ شباط ١٩٧٤ عقد في فندق هيلتون ببروكسل مؤتمر « عالمي » اشترك فيه خمسة وعشرون اديباً ومفكراً وسياسياً من اجل موضوع الاسرى م سيمون دي بوفوار والبروفسور ريني كفان ، والعازف ليونارد بيرنشتاين والكاتب اندريه شفار تسبارك .. واتخذ هؤلاء « قراراً » تحدثت عنه دي بوفوار ، يدعو السوريين الى « احترام معاهدة جنيف » .. وقد وصلت الى المؤتمر برقيات بـ « تأييد وتضامن » من روبرت كندي ومنديس فرانس والممثل ريتشارد برتون ، والممثلة اليزابيت تايلور ، والكاتب جيمس ميتشنر ، والروائي ارثر ميللر .. وقد ظهر من خلال المؤتمر ان اسرائيل استطاعت ان تقوم باستنفار عام للرأي العام الغربي لدعم هذه المشكلة التي افتعلتها .

ومن هنا تصاعد الهجوم في الصحافة الغربية على سورية . . ففي مقال افتتاحي شديد اللهجة ، وبصورة غير اعتيادية ، هاجمت « نيويورك تايمز » في ١٩ - ٢ - ١٩٧٤ سورية بسبب « موقفها » من قضية الاسرى وقالت انه « لا يجوز لكيسنجر ان يبدأ بمبادرة جديدة ازاء سورية في الوقت الذي لا تكشف فيه دمشق عن حجم اسرى الحرب » ..

وقبل هذا المقال باسبوع ، وفي عدد ١١ - ٢ - ١٩٧٤ نشرت « رابطة مكافحة التشهير » التابعة لمنظمة « بني بريث » الصهيونية اعلاناً على صفحة كاملة يدعو الأمريكيين لتقديم المساعدة لكشف الاسرى الاسرائيليين .

وفي يوم ٢٢ - ٢ - ١٩٧٤ وصل الى اسرائيل وفد الرابطة الكاثوليكية -

اليهودية في امريكا للاعراب عن تأييد اسرائيل ومشاركتها في موقفها من موضوع الاسرى ..

وفي اليوم نفسه زار وفد يمثل يهود واشنطن جوزيف سيسكو مساعد كيسنجر، وقدم له عريضة تحمل ٧ الاف توقيع تدعو امريكا لاستخدام جميع طاقاتها لـ « تحريك سورية » وفوراً أبرق سيسكو بالعريضة الى كيسنجر . .

وفي ٢٥ - ٢ - ١٩٧٤ اقيمت في اسرائيل ، في « بلدان شتات » صلاة من اجل الاسر ، دعا اليها مجلس الحاخامين الاعلى .. واقيمت بعد ظهر اليوم نفسه صلات اخرى قرب حائط المبكى .

تلك السلسلة كانت الحلقة الأولى في موضوع الاسرى . . وكان هدفها الأول والاخير : تقديم سورية قائمة بأسماء الاسرى . . ولكن تقديم اللائحة جعل الموضوع يقفز الى حملة المطالبة بالافراج عنهم . . وقد عممت وسائل الدعاية الصهيونية خبراً يقول ان غولدا مائير بكت وهي تتسلم القائمة من كيسنجر والقت بياناً مبتدئة فيه موضوع المطالبة بالافراج عنهم... قالت مائير في ٢٧ - ٢ - ١٩٧٤ : اننا لن نهدأ قبل اطلاق جميع الأبناء من الاسر.

والمعلوم أن موضوع الافراج عن الاسرى لم يكن وارداً ، لا من قريب ولا من بعيد ، في مهمة كيسنجر . . شرطان فقط وضعتها اسرائيل قبل تسلمها القائمة وردا في ٢١ - ٢ - ١٩٧٤ على لسان ابا ايبان عندما رحب بقرار الرئيس نيكسون ايفاد كيسنجر الى المنطقة قائلاً : « اننا فقط ، بعد استلام لائحة الاسرى ، وقيام موظفي الصليب الأحمر بزيارتهم ، يصبح بامكاننا الشروع بمفاوضات فصل القوات » .

وعاد ايبان لتأكيد الشرطين قبل وصول كيسنجر الى المنطقة بـ ٤٨ ساعة ، وكان ذلك امام اعضاء الكونغرس اليهودي الامريكي الموجودين في اسرائيل ، ولكن لهجته تبدلت بعد مرور ٢٤ ساعة على ذلك .. فقد تحدث في النادي الاقتصادي فذكر شرطي اسرائيل بالنسبة للقائمة والصليب الاحمر وقال : « أريد ان اؤكد ان رغبتنا ليست فقط الحصول عن الاسماء والسماح بزيارتهم ، بل اعادة الاسرى انفسهم الى البلاد ، وهذا هو الموضوع الاساسي : تخلية سبيل الاسرى من الجانبين ويتوجب ان يكون ذلك بمثابة أم البنود في المفاوضات مع السوريين » .

واكدت اذاعة اسرائيل المطالب الجديدة فقالت يوم الاربعاء ٢٧ - ٢ - ١٩٧٤ « انه في بداية المفاوضات حول فك التحام القوات ، تنوي اسرائيل تقديم طلب لتخلية سبيل الاسرى الاسرائيليين من الاسر السوري » ..

وعكست هذا المطلب الجديد صحف اسرائيل بعد ذلك بشكل لا يحتمل اي غموض فأكدت « عال همشمار » انه سيتم قريبا وبمساعدة الرأي العام العالمي « وموقفنا المتصلب » الافراج عن الاسرى .. وقالت « هاآرتس » انه من الواجب تبادل الاسرى قبل البدء بفك التحام القوات .. وأبدت « جيروزالم بوست » تخوفها من أن « يحاول السوريون الآن ابتزاز تنازلات من اسرائيل مقابل تبادل الأسرى » ، وأعادت « دافار » الى الاذهان « التعهد » الذي قطعه كيسنجر في تشرين الأول ١٩٧٣ بتخلية الاسرى و « ذلك لقاء فك التحام القوات ، بل لقاء موافقتنا على وقف اطلاق النار .. ولا يجوز فك التحام القوات قبل تبادل الاسرى » .. اما « هاتسوفيه » فقالت انها قلقة من جعل قضية الاسرى « ورقة مساومة في التسوية السياسية » ويجب عدم تمكينها السوريين من استغلال حساسيتنا تجاه قضية الاسرى ، ولا يجوز لنا ان نظهر ضعفنا بهذا الصدد ».

وقالت « معاريف » انها تعتقد ان الافراج عن الاسرى هو غاية اسرائيل الاساسية ، وليس تسلم الاسماء والسماح بزيارة الصليب الاحمر لهم » ...

وقضية الاسرى التي جعلت منها اسرائيل « مشكلة » بصورة دراماتيكية مفتعلة هي ببساطة قضية أناس جاؤوا بطائراتهم - ومنهم بالدبابات ، وقصفوا أحياء دمشق الآهلة بالسكان المدنيين الآمنين ، ودمروا المنازل على رؤوس النساء والأطفال ، بل ودمروا بعض مباني البعثات الدبلوماسية ، بالاضافة الى المنشآت الاقتصادية ومنشآت الخدمات .. هؤلاء كانوا يسقطون مع طائراتهم في بساتين الزيتون والمشمش والتفاح ، وفي مرات كثيرة كانوا يهبطون بمظلاتهم فوق الطرق والساحات ، فكان المدنيون يلقون القبض عليهم ويسلمونهم الى السلطات العسكرية المختصة .. كان الناس الذين تعرضت بيوتهم للقصف وأبناؤهم للقتل يكظمون غضبهم ويسلمون هؤلاء الأسرى الى السلطات. وقد أكد التلفزيون الفرنسي من خلال الشريط الذي عرضه على القناة الأولى يوم ١٩٧٤/٢/٨ أن صحة الأسرى جيدة وأنهم عولجوا في المشافي ، وأن وزير الدفاع السوري أصدر أوامر مشددة بعدم المساس بأي أسير اسرائيلي .. حتى الذين ماتوا

متأثرين بجراحهم دفنوا بحضور الحاخام اليهودي الذي تولى اجراء مراسم الدفن حسب الأصول ..

• • وقد أثار التحقيق الذي نشرته مجلة باري ماتش الفرنسية في الخامس من كانون الثاني ١٩٧٤ وفي العدد ١٢٨٧ تحت عنوان « شاهدت الاسرى الاسرائيليين في دمشق » ضجة عالمية كشفت زيف الحملة التي افتعلها الاعلام الصهيوني حول هذا الموضوع .. والتحقيق كان بقلم بيير ديبرون وعدسة المصور جاك جارفالو ...

لقد تحدثت الصحف الفرنسية طويلاً عن مجزرة وهمية تعرض لها الاسرى الاسرائيليون في دمشق ، لكنها لم تشر الا بالقليل الى ما أشار إليه ناطق عسكري اسرائيلي من أن الأسرى السوريين قد استخدموا للمرور فوق حقول الالغام على منحدرات جبل الشيخ ،وهذه الصحف لم تشر الا بالقليل الى ماشهد به جراح اسرائيلي من أصل هولندي يدعى الدكتور بياليستوك من أنه كان يمارس سحب الدم من الجنود السوريين الاسرى لاستعماله في أجساد الجرحى من الجنود الاسرائيليين ووضع نائب وزير الخارجية السورية امام الصحفي الفرنسي عدد صحيفة التايمز البريطانية الصادر بتاريخ ١٨ كانون الاول ١٩٧٣ والذي فيه موضوع بعنوان «جندي اسرائيلي يتحدث عن تعذيب العرب » وتساءل : هل سمعت سيمون دي بوفوار وجميع اولئك الذين استعملوا سلطتهم المعنوية في تغذية حملة التسميم الاسرائيلية . . هل سمعوا بالشهادة التي أدلى بها مدير الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان الدكتور اسرائيل شاراك ؟ . انه يقول : « بتاريخ ٧ تشرين الاول ١٩٧٤ قبل الجنود الاسرائيليون حوالي خمسين جندياً سورياً فيما كانوا يخرجون من طائرتهم الهليوكوبتر التي سقطت بهم ، وكانت النار قد شبت في ثيابهم ، وكانوا يصيحون عالياً بأنهم يريدون ان يستسلموا » .

كما تحدث الدكتور شاراك عن حالات جرى فيها تعذيب الاسرى السوريين بالسيكارات المشتعلة وبأعمال التعذيب البشعة ، ومن بينهم طيار لطائرة هليوكبتر .

وعاد نائب وزير الخارجية ليقول : هل تعلم أن ١٥ الف لاجيء قدموا الينا منذ وقف اطلاق النار لينضموا الى ١٣٠ الف لاجيء كانوا قد طردوا من هضبة الجولان عام ١٩٦٧ . . النا نعرف خطة الاسرائيليين في تفريغ الاراضي من سكانها ، انها الخطة نفسها التي استخدموها في فلسطين منذ تأسيس اسرائيل . . انها الارهاب . . في فلسطين اقترفوا مذبحة دير ياسين لتحريض الفلسطينيين المنكوبين على ترك كل شيء ،

وهذه المرة ، وكما ابلغنا الأمين العام للامم المتحدة في رسالة رسمية ، أعدموا ثلاثين مدنياً في قرية بيت جن وامام القرويين الاخرين من اجل اجبارهم على ترك بيوتهم وأرزاقهم .

لقد جاءنا اثنان من مساعدي السيناتور الامريكي فولبرايت، وسمعا من القرويين ماجرى لهم .. لقد جمع الاسرائيليون القرويين المنكوبين وقالوا لهم : احملوا معكم ما خف وغلا .. ثم اصعدوهم الى الشاحنات ، وجاؤوا بهم الى خط وقف اطلاق النار .. وانزلوهم هناك وراحوا يطلقون الرصاص بين أرجلهم وفي الهواء لارعابهم ، وراح المساكين يركضون في الحقول تاركين وراءهم كل ما كانوا يحملونه .

ان عمليات من هذا النوع تجعل الاسرائيليين يقولون أن السكان هم الذين هربوا، كما تسمح لهم بالتالي أن يقيموا فوق بيوتهم وفي أراضيهم مستعمرات جديدة ..

وقال وزير الدفاع السوري لديبرون حول الموضوع : هذه حملة لتحويل انظار الرأي العام ، والاسرائيليون لم ينقطعوا عن الجعجعة .. عندما جاء كيسنجر الى دمشق في المرة الاولى تحدث بصفة عامة عن الاسرى الاسرائيليين مع الرئيس حافظ الاسد . هذا كان يعني انه علينا ان ننسى أننا ما قاتلنا وما قبلنا بوقف اطلاق النار في سبيل استعادة الاراضي العربية المحتلة واستعادة الحقوق الشرعية للشعب العربي الفلسطيني .. ان القرار ٣٣٨ لمجلس الامن لا يتحدث عن الاسرى .. انه يتحدث فقط وبالدرجة الاولى عن انسحاب اسرائيل السريع من الاراضي التي تحتلها .

وقال : اننا مثل اسرائيل وأكثر ، يقلقون بأسرانا ، لكن هذه المسألة يجب أن تحل عند النهاية وليس قبل ذلك . . ولماذا يريدوننا أن نعيد الى اسرائيل طياريها ؟ هل ذلك حتى يعودوا عند أول مناسبة الى قصف دمشق بالقنابل الموقوتة وقتل النساء والاطفال ؟ ..

لقد كان هذا التحقيق وثيقة دامغة أصابت الرأي العام العالمي ، بالذهول . بعد أن ظل يعيش طيلة ثلاثة أشهر في الاجواء الاعلامية الصهيونية المسمومة . .

واعلنت اتفاقية الفصل بين القوات الاسرائيلية والقوات السورية ، والتي جاءت نتيجة للبطولات الرائعة التي ابداها جيشنا الباسل ،وحصيلة للتضحيات الرائعة التي منحها شعبنا العظيم لقضيته الاساسية في تحرير الارض وبناء الكرامة العربية ، وبفضل القيادة

الحكيمة والواعية لقائد المسيرة الرئيس حافظ الاسد ، وحصيلة لتلاحم الكفاح المسلح على طول الجبهة وجبل الشيخ خلال مئة يوم من المعارك بعد حرب تشرين ، مع النضال السياسي والدبلوماسي الواثق بعدالة قضيتنا وانتصارها في نهاية المطاف .

وقد نصت الفقرتان و ـ ز من الاتفاقية على موضوع الاسرى فجاء في الفقرة و: في غضون ٢٤ ساعة بعد توقيع هذه الاتفاقية في جنيف يعاد جميع اسرى الحرب الجرحى الذين يحتفظ بهم كل من الجانبين ، الى الجانب الآخر بشهادة اللجنة الدولية للصليب الأحمر .. وفي صباح اليوم الذي يلي اتمام مهمة مجموعة العمل العسكرية ، يعاد جميع من تبقى من اسرى الحرب .. ونصت الفقرة ز على ما يلي: تعاد جثث جميع الجنود الموتى المحتفظ بها من قبل أي من الجانبين للدفن في البلد الذي تنتمي اليه هذه الجثث في غضون عشرة أيام من توقيع هذه الاتفاقية ..

وهكذا كان .. عاد الى ارض الوطن ظهر اليوم الأول من حزيران ١٩٧٤ ستة وعشرون من ابطالنا الذين خاضوا حرب تشرين التحريرية بكل شجاعة واقدام ، وبعد ان قضوا حوالي قرابة ثمانية أشهر في الأسر في سجون العدو الصهيوني .. وقد اقلتهم طائرة تابعة للصليب الاحمر الدولي حطت في مطار دمشق الدولي في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً وهم خمسة وعشرون بطلاً .

وقد تحدث أول الابطال العائدين الى السيد نائب القائد العام للجيش والقوات المسلحة وزير الدفاع فقال : لقد كنا في سجون العدو رجالاً كما كنا في معاركنا خلال الحرب .

ثم انحنى على تراب الوطن يقبله معبراً عن مدى تعلق جنودنا بأرضهم الغالية ..

ومن جهة اخرى غادرت دمشق في الساعة الحادية عشرة من اليوم نفسه طائرة تابعة للصليب الأحمر الدولي تحمل اثني عشر أسيراً اسرائيلياً وذلك تنفيذاً لاتفاقية فصل القوات .

وكانت طائرة تابعة للصليب الاحمر الدولي قد اقلعت في الساعة العاشرة من صباح اليوم نفسه تحمل ستة وخمسين أسيراً اسرائيلياً بينهم اثنا عشر طياراً وأربعة ضباط .

وأضاف المصدر المسؤول قائلاً : ذلك بينما كانت حالة اسرانا لاتتفق والمبادىء الانسانية أو معاهدة جنيف، ولم تقدم اسرائيل العناية الطبية اللازمة يدل على ذلك جروحهم التي تعفنت ..

وأضاف قائلاً : لقد أتينا بهم الى المطار دون أن نعصب عيونهم ، ومررنا بهم في شوارع رئيسية في دمشق ، بينما وضعت اسرائيل العصابات السوداء على أعين أسرانا حتى دخولهم طائرة الصليب الأحمر التي أقلتهم الى دمشق .

• وتمت بعد ظهر اليوم نفسه عملية استلام جثث ثمانية من شهداء قواتنا الابطال الذين استشهدوا خلال حرب تشرين التحريرية ، وتم نقل الجثث بواسطة الصليب الاحمر الدولي عند خط وقف اطلاق النار ، ثم وضعت النعوش في سيارات الهلال الاحمر السوري تجللها الاعلام السورية .

ومن جهة ثانية تم تسليم جثث ثمانية عشر قتيلاً اسرائيلياً ، قتلوا على الجبهة السورية ابان معارك تشرين التحريرية ، للصليب الاحمر الدولي عند خط وقف اطلاق النار .

وذكر أبطالنا العائدون من الاسر أنهم عوملوا بشكل لاانساني يدل على ذلك بتر أطراف بعضهم ، واستئصال أجزاء أخرى من أجسامهم وهي في حالة سليمة ، وعدم العناية الطبية بهم ، ووضعهم في أسوأ الظروف الصحية .. مثل وضعهم في زنزانات مضاءة باللون الأحمر وقليلة الطول والعرض ، ثم توجيه الشتائم لهم في التحقيقات وفي المستشفيات على أيدي أطباء العدو وممرضاته وجنوده ، كما أكد أبطالنا بأن اسرائيل قتلت بعض الأسرى وهم أحياء ، مخالفة بذلك قرارات الأمم المتحدة والمعاهدات الدولية الأخرى .

كما كان من أبطالنا الأسرى بعض العاملين مع المراقبين الدوليين كانت اسرائيل قد أسرتهم متحدية بذلك الهيئات والاعراف والمعاهدات الدولية ، حيث أنهم يتمتعون بحصانة الأمم المتحدة .

وقد أجاب السيد معاون الوزير والسيد رئيس الوفد العربي السوري في محادثات جنيف على الاسئلة ، كما وزع على الحاضرين بيـاناً أصدرته وزارة الخارجية حول الموضوع قالت فيه :

بعد أن عاد اسرانا الى الوطن وأجرينا تحقيقاً دقيقاً عن حالتهم أثناء الاسر تأكد لنا أن السلطات الاسرائيلية قد ارتكبت ضدهم جرائم حرب لاتختلف في فظاعتها عن الجرائم التي ارتكبتها النازية في الحرب العالمية الثانية مما حمل المجتمع الدولي آنذاك على وضع اتفاقيات جنيف لمنع تكرار مثل هذه الجرائم في أية حرب من الحروب المقبلة وإننا نسرد فيما يلي على سبيل المثال لا الحصر بعضاً من هذه الجرائم :

١ – القتل المتعمد : وقد أثبت صحة ذلك شهود عيان من الجيش الاسرائيلي نفسه ، وقد نقلت جريدة التايمز اللندنية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٣/١٢/١٨ حديثاً للدكتور اسرائيل شاهاك رئيس الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان ، الذي يملك وثيقة موقعة من جندي اسرائيلي جاء فيها أن القوات الاسرائيلية قتلت خمسين جندياً سورياً رغم طلبهم الاستسلام بعد سقوط طائرة الهيلوكوبتر التي تحملهم واشتعال النار في ملابسهم وقد أكد هذه الواقعة الجندي الاسرائيلي ايلات كوهين ورقمه ٢١٧٠٤٠٣ .

٢ – البتر والتشويه : بتر أطراف بعض الأسرى بدون أي مبرر طبي كما شلت بعض الأعضاء الأساسية في أسرى حرب تشرين .

٣ – التعذيب الجسدي : تعرض أسرى الحرب السوريون الى عملية تعذيب عن طريق تعليقهم عراة من أرجلهم ورأسهم الى الأسفل ، وضربهم بالسياط حتى الاغماء ، ثم رشهم بتيار قوي من الماء البارد ، وتكرار هذه العملية ، كما ضرب الاسرى على أعضائهم التناسلية .

٤ – منع الأسرى من النوم وارهاق أعصابهم : احتجز بعض الاسرى في زنزانات مربعة ضلع الواحدة منها خمسون سنتمتراً وارتفاعها ١٨٠ سنتمتراً ، وسلطت عليهم أنوار ساطعة باهرة في الوقت الذي كانت تنبعث فيه أصوات عويل وصراخ مسجلة على أشرطة لاتلاف أعصابهم وحرمانهم من النوم لأيام عديدة . وفي سائر الحالات لم يكن يسمح للأسرى بالخروج من زنزاناتهم إلا لمدة عشر دقائق في اليوم .

٥ – الاهانة ومس الكرامة كان الاسرى يضربون ضرباً مبرحاً ، ويشتمون شتماً يمس كرامتهم وكيانهم كبشر وكانتماء الى قومية معينة ، كما كان يجري احتجازهم بأعداد كبيرة في عنابر ضيقة اشبه ماتكون بحظائر الحيوانات .

٦ – الاهمال المتعمد للجرحى والاسرى : يوجد حالياً عدد من هؤلاء الجرحى الذين ماتزال جروحهم في حالة التهابية متقدمة .

وفي الوقت الذي كان فيه اسرائيل يعاملون هذه المعاملة الوحشية كنا نعامل الاسرى الاسرائيليين معاملة انسانية لائقة وفق احكام اتفاقية جنيف الثالثة ، وقد شهد بذلك ممثلو مجلس الكنائس العالمي الذين زاروا دمشق وقابلوا طيارين اسرائيليين ونشروا شهاداتهم في صحف سويسرية بتاريخ ١٩٧٣/١١/١٦ وقالوا فيها ان الاسرى الاسرائيليين

يعاملون معاملة حسنة ، وكمثال آخر نذكر شهادة الصحفي الفرنسي بيير ديبرون التي نشرتها « باري ماتش » في عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٤/١/٥ والتي تكلم فيها مطولاً عن زيارته للأسرى الاسرائيليين بدمشق ، وقد نشر في مقاله صورة معبرة عن المعاملة الطبية التي يتلقونها من السلطات السورية ..

كما عرض التلفزيون الفرنسي مساء يوم ١٩٧٤/٢/٨ شريطاً صوره كل من السيدين ميشيل توروس وروجير بيك ، وقد ظهر في الشريط الاسرى الاسرائيليون الذين عالجت السلطات السورية جراحهم وصرحوا فيه بأنهم عولجوا معالجة جيدة .

ومن أهم الشهادات التي تشهد لنا بحسن معاملة الاسرى الاسرائيليين شهادة السيد ميشيل كونغرس ممثل اللجنة الدولية للصليب الأحمر الذي قدم ابا ايبان بتاريخ ٧٤/٣/٤ تقريراً مفصلاً عن الحالة المعنوية والجسدية للأسرى الاسرائيليين في سورية . وقد نقلت هذه الشهادة وكالة الصحافة الفرنسية استناداً الى مصادر موثوقة مقربة من وزير الخارجية الاسرائيلي إذ أوردت وكالة الصحافة الفرنسية بأن الحالة المعنوية والجسدية للأسرى مرضية بشكل تام ، كما نشرت صحيفة الهيرالد تريبيون في عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٤/٦/٣ اي بعد الجلاء سبيل الجرحى الاسرائيليين تصريحاً للطبيب الاسرائيلي مردخاي شاني قال فيه : ان الوضع الصحي للأسرى الجرحى العائدين جيد ، وذلك عدا واحد منهم ويبدو ان المعالجة الطبية التي تلقوها كانت معقولة ..

اننا إذ نضع هذه الحقائق امام مراسلي وكالات الانباء العالمية والصحافة لاطلاع الرأي العام العالمي على ما ارتكبته اسرائيل من جرائم ، لنشير الى ان اسرائيل لم تكتف بانتهاك احكام اتفاقية جنيف الثالثة ورفضها العلني تطبيق اتفاقية جنيف الرابعة ، وانما تجاوزت كل ذلك الى حد دعوة جنودها الى ارتكاب جريمة ابادة العنصر . فقد نشرت مجلة « هاعولام هوزيه » الاسرائيلية مقالاً بالعبرية في عددها رقم ١٩١٥ الصادر بتاريخ ١٩٧٤/٥/١٥ ، يدل على ان الحاخامية العسكرية الاسرائيلية في قيادة المنطقة الوسطى قد وزعت كراساً يدعو القوات الاسرائيلية الى قتل المدنيين العرب اثناء الحرب او خلال عملية مطاردة او عملية غزو ، ويصف المقال الكراس بأنه كراس عسكري رسمي بدليل انه طبعت في بدايته العبارات التالية : المنطقة الوسطى ، الجنرال يونا افران ..

حوار مع :

توفيق فيّاض

أجرى الحوار: خلدون الشمعة
صفوان قدسي

• • لدي سؤال حول وضع الأدب العربي في الأرض المحتلة قبل حزيران . الأدب العربي خارج الارض المحتلة قبل حزيران ، كان له محوران ، المحور الاول هو عدم وجود نبوءة لما حدث في حزيران . من جانب آخر هناك من يقول بأن

ثمة الكثير من الاعمال الأدبية التي تنبأت بحدوث الهزيمة . هناك من يستخدم النكبة والنكسة كعلامات في تاريخ الادب العربي المعاصر أي أن هناك أدب ما قبل النكسة وأدب ما بعد النكبة ، وأدب ماقبل نكسة حزيران وأدب مابعد نكسة حزيران .

أنا أميل الى عدم استخدام هذه الحوادث وكأنها ذات أثر حاسم في تقسيم الأدب، وأرى ان تأثير الأدب عادة بعيد المدى . الأدب الذي يتأثر بالاحداث الحاسمة لايخلق بين عشية وضحاها .

أنا اتساءل عن وضع الادب العربي في الأرض المحتلة قبل حزيران اذا أمكننا أن نعتبر حزيران حداً فاصلاً .

هل ترى أن هذا التقسيم عادل بالنسبة للأدب العربي في الارض المحتلة ؟..

• • • قلت انه لم يكن هناك نبوءة في الادب الفلسطيني في الارض المحتلة لنكبة ٥ حزيران . اعتقد أن هذا غير صحيح ، وأنا أعتقد أنه لو كانت هناك دراسة متتبعة للادب ، وخاصة أدب المقاومة في الأرض المحتلة ، لشممت رائحة الهزيمة المقبلة في ٥ حزيران من خلال أدبهم ، ولكن كانت هذه الرائحة تشم بحذر ، اذ انها كانت ممزوجة دائماً برائحة الأمل بالنصر مع التخوف من الهزيمة . وهناك وضعت بصمات وسمات للهزيمة المقبلة في الادب الفلسطيني في الأرض المحتلة . هذا بالنسبة للنبوءة .

ولذلك عندما جاءت نكسة ٥ حزيران كانت الصدمة لدى الكتاب والشعراء في الأرض المحتلة وكأنها صدمة متوقعة ومحسوب حسابها فكان ردهم المباشر عليها هو رد تلقائي واستمراري لما كانوا يقولونه دائماً ، بعكس ما حدث في العالم العربي حيث اخذ الكتاب والشعراء يجلدون أنفسهم تكفيراً عن صمتهم السابق وعدم اكتراثهم السابق بمايدور على الساحة السياسية في البلاد العربية .

واكثر من ذلك انهم اخذوا من أدبنا في الأرض المحتلة سياطاً يجلدون بها أنفسهم وأولهم الشاعر نزار قباني الذي وجه قصيدة لشعراء الارض المحتلة بعد نكسة ٥ حزيران . لايحضرني اسم القصيدة ، ولكنني قرأتها في الأرض المحتلة .

بالنسبة لتقسيم مراحل الادب في الأرض المحتلة أو تقسيم مراحل الادب بالنسبة للصدمات في أي مجتمع من المجتمعات .

اعتقد أن ما قلته فيه كثير من الصحة ، اذ ان التجربة ، أي تجربة ، لايمكن للكاتب أو الفنان التعبير عنها مباشرة .

فلو أخذنا مثلا ثورة فيتنام أو ثورة ٢٣ يوليو في مصر،أو التطورات السياسية الثورية في سورية، وقرنا ذلك بالادب في هذه البلاد، نرى ان الادب كان مقصراً دائماً في التعبير عن الثورة ، لماذا ؟ لأن النضوج الفكري في خلال التجربة لايستطيع أن يواكبها وانما يحتاج الى فترة لاستيعاب الثورة ليخلق أدباً ثورياً .

كما أن الثورة في غليانها لا تخلق جيل الثورة ، ولكن جيل الثورة يولد من خلال الثورة ليقود الثورة بالحقيقة ، وهكذا الأدب .

ولكن بالنسبة للادب المقاوم في الارض المحتلة أرى هناك اختلافاً قد يكون بسيطاً، إذ أن تجربة شعراء المقاومة وكتابها في الارض المحتلة لم تكن لهم تجربة آنية ، وانما كانوا دائماً يعيشون الصدمة والمعاناة التجريبية على الساحة الفلسطينية المحتلة.

فكان لديهم استمرارية في التعبير عن تطور الاحداث والصدمات التي بدت مفاجئة لكتاب وشعراء العالم العربي ، وبدت مفاجئة اقل في نتائجها وليس في حدوثها لدى كتاب وشعراء الارض المحتلة .

ولهذا نرى الرد على نكسة « حزيران لدى كتاب وشعراء المقاومة في الارض المحتلة رداً استمرارياً لقولهم السابق ، فبينما كانوا يحذرون من الهزيمة قبل « حزيران » ، نراهم بعد « حزيران يؤكدون اننا قلنا لكم ولكنكم لم تسمعوا وعليكم أن تفعلوا كذا وكذا ، ثم وصفوا الحلول في أدبهم ولذلك فان النتائج لم تكن سلبية ولكنها كانت تأكيداً لنبوءتهم السابقة ، وما كانوا يقولونه بحذر متفائل ، قالوه بعد « حزيران بتأكيد قاطع.

لدينا أدلة كثيرة طبعاً ، فاي دارس لأدب المقاومة في الارض المحتلة سواء كان شعراً أو نثراً أو حتى رسماً يستطيع بالفعل أن يتأكد مما أقوله .

• • سؤالي ينحصر في نقطتين ، النقطة الاولى : هل حدث تغير في ايقـاع الادب الفلسطيني بعد حزيران ؟ وهل كان هذا التغير في الايقاع سلبياً أم ايجابياً؟ والنقطة الثانية هي: هل يمكن اعتبار أدب مابعد حزيران مختلفاً من حيث النوع عن أدب ماقبل حزيران؟

• • • كان هناك نغمة جديدة بالفعل ، نغمة أشد عنفاً وتأكيداً للمقاومة لا سيما وأنه حصل طارىء جديد على الساحة العربية ، على ساحة الصراع ، وهو ميلاد الثورة الفلسطينية. كان هذا هو النبوءة التي يتنبأها كتاب وشعراء المقاومـة في الارض المحتلة ، كانوا دائماً يؤكدون على فلسطينية المعركة ، وعندما ولدت الثورة كان من الطبيعي أن يتلاحم الشاعر والكاتب في الارض المحتلة روحياً مع ثورته ومنها يأخذ منطلقاً جديداً لكي يلتحم بها الجماهير في الارض العربية المحتلة بثورته المقادة من خارج الحدود .

ولهذا نرى بالفعل أنه حصل تطور أو مانسميه قفزة كبيرة ، ولكن ليست قفزة غير موصولة وانما كانت موصولة، نسميها دفعة قوية في الروح المعنوية لدى الكاتب والشاعر في التحدي ، لأنه لم يقبل الهزيمة ، وهو يعرف أكثر من غيره أن هذا الجندي الذي هزم الجندي العربي ، كان بامكان الجندي العربي أن يهزمه ، وأنه هزمه لظروف ناجمة عن سوء في وضع هذا الجندي في الموقع المناسب .

والكاتب العربي والشاعر العربي في الأرض المحتلة يعرف الجندي الاسرائيلي جيداً ، ويعرف أنه ليس الاسطورة التي حاول العالم بأجمعـه أن يخلقها للجنـدي الاسرائيلي ، ولذلك كان ألمه أشد ، وكانت محنته أشد ، اذ أنه يعرفـه . لقد قاتله وهو صغير ، ربما باليدين ، وربما بالسكين ، وهزمه ، ولذلك لم ير الداعي او المسبب لأن ينهزم الجندي العربي أمام هذا الجندي ولذلك كان دائماً ينظر اليه من اعلى ، ينظر الى الجنـدي الاسرائيلي من أعلى ، لأنه يتفوق عليه سواء كان ذلك جسدياً أم فكرياً ، لأنه لكي يعيش هذا الكاتب أو الشاعر أو أي فلسطيني في الارض المحتلة ، حتى من الناحيـة الاقتصادية عليه أن ينافسه في السوق الاقتصادية ، سواء كان في اليد المحترفة أو في الجامعة أو في أي عمل معين ، يجب أن يتفوق عليـه ، كي يضمن لقمة عيشه والا لما استطاع أن يعيش ، ولذلك كان دائماً يشعر بالتفوق عليه ، وكانت محنته عظيمة عندما هزم هـذا الجندي الجندي العربي .

• • اذاً الادب الفلسطيني في الارض المحتلة، باعتبار أنه كان ينطلق من واقع معرفة الكاتب العربي الفلسطيني في الارض العربية المحتلة لحقيقة الاسرائيلي وحقيقة اسطورة تفوق

الاسرائيليين على العرب، فقد كتب أدب المقاومة على نحو مختلف جذرياً عن الادب العربي خارج الارض المحتلة، بمعنى أن الكتاب الذين كتبوا خارج الارض المحتلة كانوا لاينطلقون من معرفة واقعية حياتية ، بالاسرائيلي ، ولذلك فقد كان من السهل الدعاية الاسرائيلية أن تؤثر فيهم .

أما الادب العربي في الارض المحتلة فقد كان ينطلق من معرفة حقيقية بوضع الاسرائيلي ، وبالتالي فانه لم يخدع بأسطورة التفوق الاسرائيلي ، ولهذا فانا أرى أنه كان ادباً صادقاً اكثر واشد صلة بحقيقة المعركة والصراع العربي الاسرائيلي .

• • • ولهذا أيضاً فان الكاتب او الشاعر في الارض المحتلة لا يخاطب شعبه فقط وانما يخاطب هذا العدو من نقطة القوة ومن واقع المعرفة الصحيحة بطبيعته، وكما كان يحذر الشعوب العربية وشعبه من الهزيمة قبل ٥ حزيران، اصبح يحذر العدو من هزيمته المقبلة اذا استمر بتبجحه وعدوانه وصلفه .

• • اذاً نستطيع أن نفهم من هذا ان الادب المقاوم في الارض المحتلة تنبأ بما حدث في تشرين ، تنبأ بأن العدو الاسرائيلي سوف يهزم في يوم من الأيام او سوف يلحق به شكل من اشكال الهزيمة .

• • • ليس في أدبه وشعره فقط ، وانما كنا دائماً نحاورهم في المقاهي ، وفي بيوتنا وفي بيوتهم ، وفي الندوات المشتركة في حيفا وفي تل ابيب وفي القدس. دائماً نحاورهم ونقول لهم هذا : أنكم ستهزمون يوماً ما وأنكم لا تتحملون الهزيمة ، يعني ذلك أن عليكم دائماً أن تفعلوا وان تجدوا الطريق لمعالجة الامر. اذكر مرة انني قلت لكاتب عبري حين احتج على ما اقول ، وقد اتهمت الكتاب والشعراء اليهود بالانجراف خلف نشوة الانتصار ، وقد قلت ان أمماً اعرق بكثير من الشعب اليهودي ، وان دولاً اعرق بكثير من دولة اسرائيل تاه كتابها وشعراؤها وانجرفوا ايضاً خلف نشوة النصر ، سواء كان ذلك في المانيا او في غيرها ، ولذلك لا عجب اذا كان الكتاب والشعراء اليهود ينجرفون هم الآخرون خلف نشوة النصر، وتتغير نغمتهم التي كانت في ٤ حزيران تدعوا الى السلام والوئام والعيش المشترك مع العرب. وقد احتج هذا الكاتب العبري أولاً بمقارنة اسرائيل بألمانيا ، فقلت له ان غوتيه قال مرة ان بداية كل انسان هي التي تقرر مصيره وكانت بداية دولة اسرائيل الحرب ، ونهايتها ستكون الحرب . وحين قال ان هذا لن يحدث لاسرائيل لأنها انتصرت مرة اولى وثانية وثالثة ورابعة ، وكان عندي كتاب « لناحوم

غولدمان » اسمه بريدريخ عاميه يقول فيه نفس ما اقول وقلت له هذا يهودي صهيوني، بل والصهيوني الاول ، يحذركم من هذه النهاية. ولذلك فإن هذا الحوار الذي كنا نحاورهم اياه على الطبيعة ، كنا نحاورهم فيه ايضاً من خلال ادبنا وشعرنا وفننا وبشكل يشبه الى حد كبير صرخات « اشعيا » في القدس التي كان يسميها في ذلك الوقت : « ويل لك ايتها القرية الزانية » .

• • اذاً الوضع الادبي كان شديد الصلة بتطور الاحداث ، بمعنى ان النبوءة التي تحدثنا عنها بالنسبة للادب العربي خارج الارض المحتلة ، غياب هذه النبوءة، كان ماثلا في ادب الارض المحتلة .

بالمقابل كانت حرب تشرين بمثابة المحرك الذي اعاد توازن الصورة في الادب العربي المكتوب خارج الارض المحتلة ، اما هو اثر حرب تشرين في الصورة العامة ؟كيف تلقى الكتاب العرب الفلسطينيون حرب تشرين،وكيف انعكست هذه الحرب على انتاجهم؟

• • • في الواقع انني لا استطيع الاجابة على هذا السؤال كاملا لانني استطيع ان اتكلم عن كاتب واحد فقط اذا جاز لي ان اسمي هذا الكاتب كاتباً وهو انا. لقد جاء النصر في ٦ اوكتوبر وانا في السجن ، ومنذ اللحظة الاولى وكأنني كنت اكتب : لقد قلت لكم هذا انكم ستهزمون يوماً ما ، هذا هو وقع ٦ اوكتوبر اي حرب تشرين على الكاتب الذي هو انا .

لم يفاجئني أبداً ، ولكن كانت نتائج حرب اوكتوبر اصغر مما كنت اتوقع ، وبالفعل كنت أؤمن ان الجيش السوري سيغسل الجولان يوماً ، وان الجيش المصري سيعبر القناة ويقتحم أكثر وأكثر وأكثر ، ولم أكن مؤمناً بالمعنى الايطوبي أي من منطلق الأحلام . كنت أعرف ، وقد شاركت في هذا ، وحين شاركت في هذا كنت اعرف ماسيكون مدى المشاركة ، وكنت اعرف ان الجيش السوري وان الجيش المصري وان الثورة الفلسطينية ، بمقدورها ان تحقق انتصاراً اكبر مما حصل ، ولكن الرياح لم تأت بما تشتهي السفن ، كانت هناك ظروف اعتقد أنها قاهرة مما حد من الانتصار الجغرافي ، ولكن النصر هو بالفعل النصر المعنوي ، الذي كنت بالفعل انتظره .

هنـــاك خطأ ما في تقديرات كثير من الناس ممن تحدثوا عن ٦ أوكتوبر ، عن

مدى هزيمة اسرائيل في ٦ اوكتوبر . البعض قال الانتصار الجزئي ، والبعض قال الانتصار المدروس ، والبعض قال مانسميه بانتصار اوكتوبر ، ولكنني أنا أقيس ٦ اوكتوبر بقياس آخر ، واعتقد ان كل فلسطيني يعيش داخل الأرض المحتلة ، ويعرف المجتمع الاسرائيلي جيداً، ويعرف دولة اسرائيل جيداً ، اعتقد أنه يرى الأمور بنفس العين التي أراها أنا .

لو نظرنا الى الصهيونية وحاولنا بالفعل ان نلخصها كي نرى مامدى هزيمة هذا المبدأ، أنا ألخصها بثلاثة بنود فقط .

كل النظرية الصهيونية الطويلة العريضة وذات الأحلام الواسعة ، الخصها بثلاثة بنود وهي الأرض ومن ثم الانسان الذي يشغل الارض ، اعني الهجرة ، ومن ثم رأس المال . هذه ثلاثة بنود لايمكن ان يتم أحدها إلا بتمام الآخر . فلنأت الى مشكلة الأرض ، ان ٦ اوكتوبر حتى لو اقتحم الجيش المصري القناة فقط ٢٠٠ متر ربما ٢ كم ، والجيش السوري اقتحم الجولان ، لم يحتل الجولان وانما اقتحمه فقط .

ولكن هذا الاقتحام كسر البند الأول في هذه النظرية ، وهو أن الصهيونية لن تستطيع التوسع الجغرافي مهما بلغت من القوة لأن هذه القوة سيأتي يوماً ما قوة اكبر منها لتدحرها أي تزحزحها عن الارض التي احتلتها في المفاوضات الدائرة الآن،لنفرض ان اسرائيل بالفعل قهرت على أن ترجع عن الأرض التي احتلتها في سنة ٦٧ بذلك ، وأنا أقول قهرت ، لأن اسرائيل لن ترجع الا قهراً ، سواء استخدمنا القوة العسكرية أو لم نستخدمها ، حسب اعتقادي ان استخدام القوة العسكرية وتحقيق اهدافها دون استعمالها ، هذا يعني أن هذه القوة هي أقوى بكثير من استعمالها ، إذ ، ما هو الجيش في النهاية ؟، ما هي القوة العسكرية في النهاية ؟ الجيش وجد ليحقق أهدافاً سياسية للدولة وليس العكس ، أي أن الدولة وجدت لتخدم أهداف الجيش والا تصبح كارثة في أي دولة من الدول . نحن استعملنا هذا الجيش ، وأثبتنا أن هذا الجيش قادر على أن يهزم الجيش الآخر . ووقفنا عند حد ما ، وقلنا اما أن ترجعوا أو نستخدم هذه القوة

مرة اخرى ، وبذلك ردعنا العدو وتراجع وانسحب دون أن نستخدم الجيش ، اذاً الجيش يحقق الهدف السياسي دون استعماله ، اذاً هذا الجيش هو بالفعل جيش قوي .

ماذا أريد أن أقول؟ أريد أن أصل في النهاية الى أن البند الأول من النظرية الصهيونية قد كسر ، وهو القاعدة لكل النظرية الصهيونية : عندما لا يوجد أرض ، لا يمكن أن تأتي بالهجرة ، أين تضع المهاجرين ، أين تضع اليد العاملة لتشغل هذا الحيز ، وبالتالي ، اذا توقفت الهجرة ، فان رأس المال الجبان بطبيعته ، لن يغامر في توظيف استثماراته في بلد لا يستطيع أن يوسع قاعدته لهذه الاستثمارات .

إذاً عملية حسابية منطقية الغاء البند الأول ، القاعدة ، يلغي البنود الأخرى .

أنا هكذا أقيس هزيمة ٦ اكتوبر لاسرائيل أو نصر ٦ اكتوبر للعرب بالنسبة لاسرائيل، وليس المدى الجغرافي الذي وصلت اليه الجيوش العربية ، او عدد الدبابات أو الطائرات التي خسرها العدو في هذه المعركة، أو حتى الجيش، ولكن أقيسه بهذا المقياس .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، هذه الاسرائيل ، الامبراطورية التكنولوجية كما استطاعوا بالفعل أن يوهمونا بها ، أن يوهموا العالم اعتقد أن هذا غير صحيح ، اسرائيل لن تستطيع أن توهم المانيا أنها امبراطورية تكنولوجية ، هي تعرف ذلك ولن تستطيع أن توهم أمريكا ولن تستطيع أن توهم روسيا ، قد توهمنا نحن هذا صحيح . ولكن نحن في الداخل نعرف هذه الامبراطورية . عندما يذهب الطالب العربي الى « المدرسة » ويدرس مع الطالب اليهودي على نفس البنك ويتفوق عليه . وهذا حسب الاحصائيات ، وفي الجامعة العبرية ، يتفوق عليه ، وعندما يتعلم قيادة السيارة يتفوق عليه ، ولكن الشكل الذي عرضته اسرائيل يوحي بأن هناك امبراطورية تكنولوجية ، ولكنها تكنولوجية زائفة . لنأخذ الصناعة في اسرائيل ، وهذا أنا أعرفه جيداً ، ليس هناك مصنع واحد في اسرائيل يغطي نفقاته على مدى السنة المالية . كل مصنع يخرج في نهاية السنة بعجز مالي قيمته نصف رأس هذا المصنع وطبعاً تغطيه امريكا ، لهم مخصصات من الدولة ، طبعاً تيمناً أن هذه العجلة السيارة التي يصنعها في مصنع اليانس والتي يصدرها الى أفريقيا او الى أي بلد غير متطور صناعياً ، يريد ان يكون متواجداً منذ البداية حتى يصبح هذا المصنع بالفعل ، لا أقول رابحاً ، حتى تصبح الدولة الصهيونية المنتظرة أي الدولة الصناعية التي تهيمن على اقتصاد العالم كله ، ذات تواجد .

فلننظر اذاً الى داخل هذا الجهاز الذي كان يبدو متكاملاً. هذه الساعة، ساعة اليد التي كانت تبدو دقيقة وتضرب دائماً بالثانية ، لننظر ماذا حصل بها ؟ لم أخض التجربة عملياً ، ولكنني كنت استفسر دائماً ، ومن خلال الصحف ومن خلال الراديو ، وانا في السجن كنت اسمع ، عندما كان الانسان في حيفا يمسك سماعة التلفون ليتصل بايلات ، وخلال ثوان يتكلم مع ايلات وبصوت واضح كأنه يتكلم مع انسان آخر في حيفا ، انه اليوم يحاول عدة ساعات ليتصل بايلات، وعندما يتصل بايلات قد لا يسمع الطرف الآخر. وقد تنقطع المحادثة . عندما كان الانسان يريد ان يرسل رسالة ، من ايلات مرة اخرى ، إلى المطلة مثلاً أي من أقصى الجنوب الى اقصى الشمال ، كانت هذه الرسالة تصل في اليوم الثاني ، ولكنها اليوم تصل بعد اسبوع او اكثر . لنقل يوماً واحداً اكثر ، اذا حصل خلل .

لننظر مثلاً الى الاسعار . سمعت مؤخراً من انسان خرج ليس منذ زمن بعيد من الضفة الغربية ، وسألته عن الاسعار ، سألته عن الحذاء ، قال لي حذاء الرجل يتراوح بين ٧٥ ليرة ـ ١٠٠ ليرة . كان الحذاء قبل ٦ اكتوبر، الحذاء الراقي، ربما ٥٠ ليرة . البيضة، لا اقول اثناء الحرب ، ففي اثناء الحرب كانت غائبة ، وفي السوق السوداء وصلت ٧٥ قرشاً ، البيضة الآن تساوي ٢٥ ـ ٣٠ قرشاً لا أدري بالعملة السورية كم . ولكن بالعملة المصرية هي تساوي ٣ صاغ بينما هي تساوي في مصر ١,٥ ـ ٢ صاغ .

كيلو اللحم في اسرائيل الآن يساوي ٣٥ لـيرة او ما يقارب ذلك . في مصر هناك يشكون من غلاء اللحم ، وكيلو اللحم هناك في مصر جنيه مصري أي ما يعادل ١٠ ـ ٧ ليرة اسرائيلية ولننظر الفرق بين ١٠ ليرات و٣٥ . لننظر الى الخدمات العامة في اسرائيل ، نرى انها قد تضعضعت ، هي ليست الباصات التي كانت دائماً تخرج بالوقت ، وليست البضائع التي كانت دائماً متوفرة ، وكانت اسعارها محددة .

الموظف الآن في اسرائيـل لايستطيع أن يقتني السيارة ، ولا يستطيـع

ان يقتني التلفزيون كما كان يقتنيه في السابق ، لأن دخله لا يستطيع ان يوازي الحجم الغلائي في السوق الاسرائيلية .

بينما العامل في الأرض المحتلة اجرته في اليوم تتراوح بين ٤٠ - ٦٠ ليرة يومياً ، لغياب اليد العاملة في الشارع الاسرائيلي . وبكل ألم أقول ان هذه اليد العاملة هي فلسطينية ، لا أدري لماذا ؟ ولكن المعدة عندما تضرب فارغة فلا يستطيع الانسان أن يقاومها .

إذاً لننظر إلى مدى الهزيمة في اسرائيل من هذه الناحية . نحن نرى أن هذا الجهاز قد تضعضع في الداخل . لا أريد أن أتكلم عن الهجرة المضادة من اسرائيل وعن الهزائم السياسية على الساحة العالمية ، ولا عن الهزيمة النفسية التي لحقت بالشخصية الاسرائيلية . هذا العملاق الذي كان يرى نفسه عملاقاً ، لأنهم أوهموه أنه عملاق ، ورأى نفسه قزماً يبكي في يوم من الأيام ، لا أريد أن أتكلم عن كل هذا .

• • لقد قرأت مرة عما يسميه الاسرائيليون مسألة بطولة « مسادا » وتطبيق هذا المفهوم على الجيش الاسرائيلي ، وشعورهم بأنهم لا يمكن أن يذهبوا أسرى ، ألا ترى أن حرب تشرين وأثر ذلك على الجيش الاسرائيلي حيث أخذ الجيش السوري والجيش المصري عدداً من الأسرى الاسرائيليين ، ألا ترى أنه هذا قد ضعضع نظرية المسادا هذه ؟

• • • لا أريد هنا ان اتكلم عماذا كان الجندي الاسرائيلي جباناً ام غير جبان اعتقد ان هذا ليس مدار الحديث . الجندي هو جندي في كل مكان . ولكن لننظر الى الأمور من ناحية انسانية . هذا الجندي الذي كانوا يوهمونه انه دائماً المنتصر ، في قرارة نفسه يعرف ان هذا غير صحيح ، هو يعرف لأنه لم يخض التجربة الصحيحة مع الجندي العربي ، هو كان دائماً في داخل الدبابة ، ولم يشتبك مع الجندي العربي ومن اشتبك مع الجندي العربي يعرف ان ذلك غير صحيح ، وقد قالوه بعد ٦ اكتوبر . قاله « ايغال يادين » وقاله « هرتسوغ » نفسه وقاله جنرالات كثيرون عن أبوعجيلة وعن المرتفعات السورية وعن الاشتباكات مع الجيش الاردني ومع الفلسطينيين نفسهم ، حتى في ٥ حزيران عندما اشتبكوا في رفح مع الجيش الفلسطيني او المقاومة الفلسطينية وارتدوا عنها ثلاث مرات ، يعرفون ذلك جيداً .

اما الاغلبية الساحقة من الجيش الاسرائيلي ، تعرف انها وصلت الأراضي المحتلة في ٥ حزيران بالباصات ، وقد رأيناهم . ولذلك لم يجرؤ واحد منهم ان يقول لي انني انتصرت على الجندي العربي ، لأنني في هذه الحالة سأقول له انني انتظرتك في باص « ايغليت » تذهب لتحتل موقعك ، هذا الجندي قبل كل شيء كان يتوهم انه الأقوى، ولكن هنا شعر بمدى عجزه الاكبر . لو لم يقولوا له انك اقوى ، على الأقل انك تساويه او انك اقوى منه قليلاً لم يفاجأ ، ولكنه في ٦ اكتوبر صعق ، ولم يكن امامه الا ان يسلم وهو لا يدري ماذا يحدث ، وهنا كانت هزيمته اشد بكثير مما لو لم يوهموه بأنه الاقوى ، وامام الموت ليس هناك شجاعة ، لا ندري اي منا وقف امام الموت مرة وكيف تصرف ، وقد اتت لهم ٦ اكتوبر بالموت المحقق ، وهو تصرف في هذه اللحظة تلقائياً ، كالانسان الذي يخاف الموت . لان الموت دهمه ، فلذلك استسلم . على فكرة كانت من اجمل لحظات حياتي حين رأيت الاسرى اليهود مطأطئي الرؤوس في الصحف العبرية وانا داخل السجن ، وحين رأيت السجانين يبكون في داخل السجن ، وكان هذا يكفي .

مرة واحدة في العمر أخذت أربت على كتف الضابط وأقول له : «يا الله معليش، تتعدل » ورد علي الضابط: « كيف تتعدل ، جيل كامل غير موجود ». هذا ما قاله لي ضابط في سجن الرملة يدعى « يوسف » ، وهو أب وأعتقد ان ابنه كان اسيراً .

بالنسبة لعقدة مسادا ، اعتقد انهم يرتكبون غباء كبيراً رغم ذلك الذكاء الملصق باليهود . لاينتحر الا الجبان ، ومسادا هي قمة الجبن عند اسرائيل وهي ذروة الشعور بالنقص لدى الاسرائيلي، لانه يعرف دائماً أنه سيهزم فلذلك دائماً يجد المبررات لهذه الهزيمة. حتى مسادا هي نفسها ، هذه القلعة الجبلية التي لجأ اليها الجنود اليهود الفارون أمام الجند الروماني ، واكور الفارين أمام الجند الروماني ، لو كان صحيحاً انهم من الشجاعة بقدر ان يقفوا أمام الاحتلال الروماني وأمام الجند الروماني الحارق للهيكل، كانوا انتحروا وماتوا على اسوار القدس ، وما كانوا ليذهبوا الى قمة مسادا لينتحروا عليها . ثم لم ينتحروا . ثم ماتوا جوعاً فوق مسادا ، وكان موتاً اضطرارياً لم يكن عندهم الجرأة ان ينزلوا من مسادا ليواجهوا الجند الروماني ليقاتلوه على الارض ، فلذلك ثم ماتوا جوعاً فوق مسادا، ودائماً المهزوم يحاول ان يبرر موته وهزيمته . يعني لا ادري اذا ما رأيت هذه التجربة ، ولكن مرة مارستها . لقد سمعنا من جدتي بمثل قالته ، «العقرب لما يتحاصر بيقتل نفسه»

ويبقى هذا السؤال بالفعل ، هذا المثل يلح علي كثيراً ، وقبضت على عقرب تعيس في يوم من الايام ، ووضعته داخل دائرة من النار ، هـذا حدث بالفعل ، وحاول العقرب ان يتخطى دائرة النار ، وبالفعل عندما لم يجد مخرجاً أو جرأة في ان يقتحم النار ليخرج منها بالفعل يضرب نفسه ويقتل نفسه .

في لحظة يائسة يلسع نفسه في رأسه ويموت ، وهذا ما حدث بالفعل لجند اسرائيل فوق مسادا .

● ● ما هي صورة العربي في الادب العبري المعاصر . لقد قرأنا بعض النماذج من الرواية المكتوبة بالعبرية وكانت صورة العربي في هـــذه النماذج صورة مهزوزة بعض الشيء ، وذكرتنا بصورة العربي في الروايات الدعائية المكتوبة باللغة الانكليزية كرواية « اوريس الخروج » ورواية « ماتان » وروايات اخرى . الجانب المجهول لدينا هو صورة العربي في الرواية المكتوبة بالعبرية .

● ● بالنسبة لي هذا غير جديد ، هذا السؤال كان يطرح دائماً منا على الكتاب والقراء في الارض المحتلة ، اليهود واعني ، باختصار ، العربي في الادب العبري هو هكذا .
إما ان يكون لصاً وإما أن يكون مخادعاً وإما ان يكون جباناً وإما ان يكون غادراً وإما ان يكون خائناً ، وهـذا ليس صدفة ، انه مخطط من ضمن المخطط الصهيوني ، لماذا ؟

وهذا خطأ آخر ، والخطأ الاساسي الذي ارتكبه المفكرون سواء كانوا السياسيين أو الاجتماعيين او العسكريين هو إيهام هذا الجندي انه الاقوى ، وانه العملاق . ثم لم يوهموه فقط بعد « حزيران » ، انها عملية ايهام مدروسة منذ الطفولة ، وقد حاورت مرة مع كاتبة اسمها « تيبورا » وهي كاتبة اطفال معروفة ، وكان هذا الحوار من بدايته غريباً . لقد فاجأتني يوماً انها تحمل مجلات سورية للجيش السوري وكتب مدرسية من سورية ايضاً ومن المخيمات ومن غزة ، وقالت لي « انظر كيف تعلمون اطفالكم كــره اليهود » .

لقد استغلوا هذه القضية عالمياً . ان المعلم يسأل التلميذ : اذا قتل الجندي السوري يهودياً ومن ثم قتل يهودياً آخر ، يساوي كم ؟ ورسوم تبيّن كيف ان الجندي العربي او الفدائي العربي يسحق اليهودي مرة على شكل حية ، ومرة على شكل تنين .. الخ وقالت « انظر كيف تعلمون أولادكم » . قلت لها ، ايوه ، مشكلة العرب انهم غير اذكياء في

زرع الكراهية في الطفل العربي ، لأن الكراهية والحقد تنافي طبيعة العربي ، وعندما يريد ان يتعلمها لا يحسن إتقانها ، ولكن انا سأقول لك من يعلم الاطفال الكراهية والحقد باتقان ، هو انتم . وكنت قد طلبت منها أن تأتيني بمجموعة قصص الاطفال ، وهي كاتبة معروفة . وكان عندي في مكتبي قصص ، وكنت قد اشرت أنني كنت أعد دراسة عن الشخصية العربية في ادب الاطفال بعد تلك الحملة قبل ان اتحاور معها وكنت قد علمت بالامر ، وكان لها كتاب ، وكان هناك على ما اذكر قصة كانت فرحة بها جداً وهي تدعو الى السلام ، وهي عن احتلال القدس في الـ ٦٧ .

القصة تدور هكذا ، بيت يهودي وبيت عربي في القدس القديمة متجاورات ويفصلها السلك الحاجز بينها ، وفي يوم من الأيام يلعب الطفل اليهودي بكرته فتأتي الكرة إلى الناحية الاخرى ، حيث الولد العربي الذي كان دائماً يقف حافياً نصف عار وجائعاً ، ينظر بحزن الى ذلك الطفل اليهودي المدلل الذي يلبس حذاء الرياضة وينعم بالحياة ، وبكل بساطة الطفل العربي يحمل الكرة ليناولها الطفل اليهودي ، وقد رأته ام الطفل اليهودي فأشفقت عليه ، واحدثت ثغرة في السلك ليتسلل منها الطفل العربي الى بيتهم فتغسله وتلبسه من ثياب ابنها ومن احذية ابنها وتطعمه ومن ثم تطلب من ابنها ان يدعه يلعب معه بالكرة .

وهكذا كان الطفلان دائماً يلتقيان من خلال الثغرة ، هذا الطفل المسكين المحروم الذي لا يعرف شيئاً ، وهذا الطفل المدلل ، الى ان جاءت حرب حزيران ، واقتحم الجيش الاسرائيلي القدس واحتلها ، فانهد الجدار القائم بين ذينك الطفلين الحبيبين ، وبهذا حققت السلام . وقد اخذت القصة وقلت لها ماذا تعلمين هذا الطفل ، السلام ، الاحتلال ، ان يحتل غيره ليفرض عليه السلام وان يحب بالقوة ، انت تجيزين الاحتلال وتعلمين هذا الطفل منذ نعومة اظفاره ان يكون غازياً ومحتلاً ، ومن ثم أريتها عدة نماذج قصص «الطفل العربي»فيها كاذب وسارق وخادع، وقلت لها انتم تعدون الجندي منذ طفولته لكي يشعر عندما تحملونه البندقية ، ويرى العربي امامه ، أن يطلق عليه النار كما يطلق النار على حشرة خسيسة ،لانه بالنسبة له تعود منذ البداية ان هذا لا قيمة له،وانتم بذلك تخلقون جيلاً مجرماً بدم بارد .وبالفعل هذه هي الشخصية العربية في الادب العبري .

جائزة الثقافة العربية

تعلن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - جامعة الدول العربية - عن منح جائزة الثقافة العربية لعامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ، وقدرها ٥٠٠ جنيه مصري او مايعادلها لاحسن كتاب عربي يتناول موضوعاً يتصل بأحد ميادين الحضارة العربية ويكشف عن قيمها واصالتها ، على ان يتوافر للكتاب عنصر الاصالة والابتكار ، بالشروط التالية :

١ - ان يكون الكتاب المرشح من الكتب المنشورة منذ بداية عام ١٩٧٣ .
٢ - الا يكون الكتاب حائزاً لجائزة سابقة ولا مقدماً لجائزة اخرى .
٣ - الا يكون رسالة جامعية .
٤ - الا يكون مترجماً عن لغة اخرى .
٥ - آخر موعد لتقديم الكتاب نهاية اكتوبر / تشرين الاول ١٩٧٥ .
٦ - ترسل ثلاث نسخ من الكتاب الى مقر المنظمة (١٠٩ شارع التحرير ميدان الدقي - القاهرة) .

وتدعو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والهيئات والمراكز العلمية ودور النشر والمؤلفين في البلاد العربية الى ترشيح مايرونه مناسباً من الكتب العربية .

الأشجار تموت واقفة

الأشجار تموت واقفة ، وبعض الرجال يموت واقفاً . هكذا مات الدكتور محمد امين .

كان جالساً في مكتبه يمارس واجباته اليومية القومية عندما تساقطت القنابل فوق دمشق .

سمع صوت الطائرة ، ولم يتحرك من مكانه ، فحجم العمل الذي بين يديه لا يحتمل اي وقت ضائع . وتساقطت جدران الحجرة فوقه ، وبقي اياماً تحت الأنقاض قبل أن يواري التراب في بلدته القريبة من دمشق « منين » .

كان واحداً من العاملين في الحقل الثقافي ، وكان نشاطه في المركز الثقافي السوفييتي بدمشق شاهداً على كفاءته الممتازة ، وحين انهار المركز بفعل العدوان الاسرائيلي على مدينة دمشق في اليوم الرابع لحرب تشرين ، كان ما يزال يعمل ويعمل ويعمل لخير وطنه ، لخير الانسان نفسه ، ومن اجل قيم ومثل كبرى كان يحملها بروح طيبة وعزيمة لا تعرف القنوط .

لم يكن يحب الالقاب ولا الوجاهة بالرغم من حمله لالقاب علمية رفيعة. كان منقطعاً - كالمتصوف - الى العمل الجدي ، الى العمل الذي يبدأه في الصباح ويستمر فيه حتى منتصف الليل . ما من احد عرف الفقيد الدكتور محمد امين إلا وعرف فيه المثقف الرصين ، والمناضل المؤمن بقيم التقدم والحرية والكرامة ، والعامل الدؤوب المقتنع بأن تغيير معالم حياة الناس يتم بعمل الانسان لنفسه وارادته .

وفي الذكرى الاولى لاستشهاده ، تذكر له أسرة « المعرفة » اسهاماته الكبرى في ميادين الثقافة ، وتبعث الى روحه الطاهرة بتحيات اصدقائه ورفاقه . ذلك ان الدكتور محمد امين ما زال يعيش معنا بما خلفه من عاطر الذكريات وكريم الأعمال .

« المعرفة »


يانصيب المعرض
يقدم
لصاحب الحظ
١٥٠,٠٠٠ ل.س
٦٠,٠٠٠ ل.س
٣٥,٠٠٠ ل.س
٢٥,٠٠٠ ل.س
يجري السحب ظهر يوم الاثنين من كل اسبوع